غربة

القـرآن

حقوق الطبع محفوظة

طبعة مزيدة ومنقحة

١٤٤٤ هجري - ٢٠٢٣ ميلادي

رقم الإيداع:

١٠١٠٦ / ٢٠١٣م

الترقيم الدولي: I.S.B.N

٩٧٨-٩٧٧-٤٤١-٩١٧-٠

غربة القرآن

مجدي الهلالي

بسم الله الرحمن الرحيم

رب يسِّر وأعِن يا كريم

المقَـدّمَة

الحمد لله الذي أنزل الكتاب على عبده ليكون للعالمين نذيرًا، وللمؤمنين نورًا وهدىً وشفاءً وبشيرًا، والصلاة والسلام على المبعوث رحمةً للعالمين؛ سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

فهذه بفضل الله وعونه صفحات جديدة أكتبها عن القرآن العظيم، ذلك

الحاضر الغائب .. القريب البعيد

أكتبُها والأمل في الله يحدوني بأن يجعلها سبحانه سببًا -مع غيرها- في استثارة العزائم والهمم نحو الانتفاع الحقيقي بالقرآن في تحصيل التغيير الجذري الشامل للفرد، ومن ثَمَّ الأمة؛ حتى يعود مجدها وعزها وأستاذيتها للبشرية .. أستاذية الهداية وإقامة العدل: ﴿**كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ**﴾ [آل عمران: ١١٠].

وكأني أشعر بك -أخي القارئ- وأنت تُتَمتِم قائلًا:

«وماذا ينبغي علينا أن نفعل مع القرآن أكثر مما نفعله؟ .. إننا نهتم به اهتمامًا عظيمًا؛ فالمصاحف في كل مكان، وحلقات التعليم والتحفيظ تملأ ربوع العالم الإسلامي، والإذاعات تبثُّه ليل نهار، وحفَّاظه بمئات الآلاف بل بالملايين.. فماذا

تريد منَّا أن نفعل مع القرآن أكثر من ذلك؟!».

الجواب على ما قلتَه -أخي- يتمثَّلُ فيما أخبَرنا به اللهُ -جل شأنه- بأن مِن صفات القرآن أنه روح:

﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ﴾ [الشورى: ٥٢].

ومن المعلوم أن الروح هي سرُّ الحياة، وأنها هي التي تُميِّـزُ الحيَّ عن الميت.

فالقرآن روح بكل ما تحمله هذه الكلمة من دلالاتٍ ومعانٍ.

روحٌ تُحيي القلوبَ وتنقلُها إلى عِداد الأحياء.

روحٌ تُخرجُ الإنسان من الظلمات إلى النور، ومن المادية إلى الربَّانية، ومن الهمِّ والغمِّ إلى السَّعادة والهناء:

﴿أَوَمَن كَانَ مَيۡتٗا فَأَحۡيَيۡنَٰهُ وَجَعَلۡنَا لَهُۥ نُورٗا يَمۡشِي بِهِۦ فِي ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ لَيۡسَ بِخَارِجٖ مِّنۡهَا﴾ [الأنعام: ١٢٢].

قال ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا في تفسير قوله تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا لَهُۥ نُورٗا يَمۡشِي بِهِۦ فِي ٱلنَّاسِ﴾ [الأنعام: ١٢٢]: هو القرآن[١].

فإن قلتَ: وأين نجدُ هذه الروح؟ أليست كامنةٌ في ألفاظِ القرآن؟!

جاءك -بفضل الله- الجواب بأن ألفاظ القرآن تُعدُّ بمثابة المبنى أو الوِعاء الذي تحلُّ فيه الروح، وعندما تغيب عنه فإنها تُصبح كالجسد بلا روح.. ألفاظًا نردِّدُها فلا تؤثر فينا، ولا تحرِّك قلوبنا أو تحييها، وهذا يُجيب عن تساؤلات البعض

(١) رواه الطبري في التفسير (١٢/ ٩١ - مؤسسة الرسالة - تحقيق شاكر).

حول عدم التغيير أو الشفاء؛ على الرغم من كثرة تلاوة القرآن وحفظ ألفاظه.

ومما يؤكد أن روحَ القرآنِ ونورَه قد لا ينتفع به كل مَن يقرؤه؛ قولُ رسولِ الله ﷺ في الدعاء: «**اللَّهُمَّ إِنِّي عَبْدُكَ، ابْنُ عَبْدِكَ، ابْنُ أَمَتِكَ، نَاصِيَتِي بِيَدِكَ، مَاضٍ فِيَّ حُكْمُكَ، عَدْلٌ فِيَّ قَضَاؤُكَ، أَسْأَلُكَ بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ، سَمَّيْتَ بِهِ نَفْسَكَ، أَوْ عَلَّمْتَهُ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ، أَوْ أَنْزَلْتَهُ فِي كِتَابِكَ، أَوِ اسْتَأْثَرْتَ بِهِ فِي عِلْمِ الْغَيْبِ عِنْدَكَ؛ أَنْ تَجْعَلَ الْقُرْآنَ رَبِيعَ قَلْبِي، وَنُورَ صَدْرِي، وَجَلَاءَ حُزْنِي، وَذَهَابَ هَمِّي**»(١).

والربيع -كما يقول ابن القيم-:

«المطر الذي يُحيي الأرضَ.. شبَّه القرآن به لحياة القلوب به»(٢).

فطلب رسول الله ﷺ من ربِّه بعد هذه المقدمة الطويلة في الثناء عليه وإظهار الافتقار التام له أن يجعل القرآن ربيع القلب ونور الصدر وجلاء الحزن وذهاب الهَمِّ؛ يدل على أن هذه الآثار العظيمة للقرآن قد لا تتحقق في العبد؛ ومن ثَم كان من الضـروري إلحاحه على الله لتحصيلها من خلال القرآن.

وعندما نقرأ قول النبي ﷺ: «**إِنَّ اللَّهَ يَرْفَعُ بِهَذَا الْكِتَابِ أَقْوَامًا، وَيَضَعُ بِهِ آخَرِينَ**»(٣)، ثم ننظر إلى واقع الأمة فستتأكد بأن القرآن لم يرفعنا، وذلك بالرغم من الاهتمام الواضح به من خلال الإذاعات والفضائيات التي تبثُّه ليلَ نهار، ومن خلال

---

(١) رواه أحمد (٦/ ٢٤٦ برقم: ٣٧١٢)، والبزار (٥/ ٣٦٣ برقم: ١٩٩٤)، وابن حبان (٣/ ٢٥٣ برقم: ٩٧٢)، والطبراني في المعجم الكبير (١٠/ ١٦٩) عن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وحسنه ابن حجر في نتائج الأفكار (٤/ ١٠٠).

(٢) الفوائد لابن القيم (ص: ٣٩).

(٣) رواه مسلم (١/ ٥٥٩ برقم: ٨١٧).

المدارس والجامعات والكتاتيب التي تعلِّمُ ألفاظَه، ومن خلال ملايين المصاحف التي تُطبع، والمسابقات التي تُعقَد.

فأين الخلل؟!

هناك حلقة مفقودة في تعاملنا مع القرآن؛ ولذلك لا نرى أثره.

لقد أنزلَ اللهُ القرآنَ كأعظم نعمة تلقَّاها بشر، ولكي يكون كتاب هداية وشفاء وتغيير، وعندما لا يتم التعامل معه على هذا الأساس فإن عقوبات متوالية ستُصيب الأفراد وتعُم الأمة:

﴿ **وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً** ﴾ [الأنفال: ٢٥].

قـال ابن عبـاس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا: «أمرَ اللهُ المؤمنينَ ألَّا يُقِرّوا المنكرَ بين أظهُرِهم فيعمَّهُم اللَّهُ بالعذاب»[١].

والواقع الذي نحياه يخبرنا بتحقُّق ذلك الوعيد، فقد أصبحنا في ذيل الأمم على الرغم من خدمتنا للقرآن واهتمامنا بعلومه، بل إن الأمر لا يقتصر على ذلك؛ فلقد وردت أحاديث صحيحة عن الرسول ﷺ تؤكد أن القرآن العظيم سيُرفع في آخر الزمان، منها قول النبي ﷺ:

«يَدْرُسُ[٢] الْإِسْلَامُ كَمَا يَدْرُسُ وَشْيُ الثَّوْبِ، حَتَّى لَا يُدْرَى مَا صِيَامٌ وَلَا صَلَاةٌ وَلَا نُسُكٌ وَلَا صَدَقَةٌ، وَلَيُسْرَى عَلَى كِتَابِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي لَيْلَةٍ، فَلَا يَبْقَى فِي الْأَرْضِ مِنْهُ آيَةٌ، وَتَبْقَى طَوَائِفُ مِنَ النَّاسِ: الشَّيْخُ الْكَبِيرُ وَالْعَجُوزُ؛ يَقُولُونَ: أَدْرَكْنَا آبَاءَنَا

(١) رواه الطبري في التفسير (١٣/ ٤٧٤).

(٢) يدرس: لا يبقى منه شيء، يُسرى: يذهب بالليل، الوشي: النقش.

عَلَى هَذِهِ الْكَلِمَةِ (لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ) فَنَحْنُ نَقُولُهَا»[(١)].

والملاحظ أن الرسول ﷺ في معظم أحاديثه التي وجَّهها لأصحابه في هذا الشأن لم يحدثهم بطريقة توحي إليهم بأن هذا الأمر خاص بآخر الزمان، وأنهم في منأى عنه، بل كان يحدثهم على أنهم هم المُخاطَبون به، كما في قوله ﷺ:

«**مَا هَذِهِ الْكُتُبُ الَّتِي بَلَغَنِي أَنَّكُمْ تَكْتُبُونَهَا؟ أَكِتَابٌ مَعَ كِتَابِ اللهِ؟ يُوشِكُ أَنْ يَغْضَبَ اللهُ لِكِتَابِهِ فَيُسْرَى عَلَيْهِ لَيْلًا، فَلَا يَتْرُكُ فِي وَرَقَةٍ وَلَا قَلْبٍ مِنْهُ حَرْفًا إِلَّا ذَهَبَ بِهِ**» فقال مَن حضرَ المجلس: فكيفَ يا رسُولَ اللهِ بالمؤمنين والمؤمنات؟ قَالَ: «**مَنْ أَرَادَ اللهُ بِهِ خَيْرًا أَبْقَى فِي قَلْبِهِ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ**»[(٢)].

لقد كان ﷺ يرقُب باهتمامٍ بالغ أثرَ القرآن في المسلمين باعتباره المقصود الأعظم من نزوله، فعن أبي الدَّرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كنَّا مع رسولِ اللهِ ﷺ فشَخَصَ ببصَرِه إلى السَّماءِ ثُمَّ قَالَ: «**هَذَا أَوَانُ يُخْتَلَسُ الْعِلْمُ مِنَ النَّاسِ حَتَّى لَا يَقْدِرُوا مِنْهُ عَلَى شَيْءٍ**» فقال زياد بن لبيد الأنصاري: يا رسول الله، وكيف يُختلس منا وقد قرأنا القرآن؟ فوالله لنقرَأنَّه ولنُـقرِئنَّه نساءَنا وأبناءَنا، فقال ﷺ: «**ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ يَا زِيَادُ، إِنْ كُنْتُ لَأَعُدُّكَ مِنْ فُقَهَاءِ أَهْلِ الْمَدِينَةِ، هَذِهِ التَّوْرَاةُ وَالْإِنْجِيلُ عِنْدَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى، فَمَاذَا تُغْنِي عَنْهُمْ؟!**».

قال جبير بن نفير -راوي الحديث عن أبي الدرداء-: فلقيت عبادة بن الصامت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قلت: ألا تسمع إلى ما يقول أخوك أبو الدرداء؟ فأخبرته بالذي قال أبو

---

(١) رواه ابن ماجه (٥/ ١٧٣ برقم: ٤٠٤٩) وصححه البوصيري في مصباح الزجاجة (٤/ ١٩٤)، ورواه الحاكم في المستدرك (٤/ ٥٨٧ برقم: ٨٦٣٦)، وصححه، ووافقه الذهبي.

(٢) رواه الطبراني في المعجم الأوسط (٧/ ٢٨٧ برقم: ٧٥١٤).

الدرداء، قال: صدق أبو الدرداء، إن شئت لأحدثنَّك بأوَّلِ علمٍ يُرفع من الناس: الخشوع، يوشك أن تدخل مسجد جماعة فلا ترى فيه رجلًا خاشعًا[(١)].

تأمل قوله ﷺ: «**حَتَّى لَا يَقْدِرُوا مِنْهُ عَلَى شَيْءٍ**» فالفائدة العظمى للقرآن تكمُن في أثره الذي يحدثُه في ذاتِ الإنسان من هدايةٍ وشفاءٍ وخشوعٍ وتغييرٍ واستقامةٍ على أمر الله، فإن لم يقدر المسلمُ على تحصيل ذلك من القرآن فإن مصيبة كبرى قد حلَّت به، وهذا ما كان يحذره ﷺ، وبخاصةٍ مع كثرة دخول الناس في الإسلام.. وكان ماثلًا في ذهنه حالة بني إسرائيل وانحرافهم وغضب الله عليهم واستبدالهم على الرغم من وجود التوراة والإنجيل بينهم.

ولقد سار صحابتُه الكرام على نهجِه ﷺ، فقد كانوا يُحذِّرون مَن بعدَهم ويخوِّفونَهم من عدم التعامل الصحيح مع القرآن، والذي من شأنه أن يستدعي العقوبات المتوالية والمتصاعدة من الله عَزَّوَجَلَّ على الأمة، والتي تنتهي بالمصيبة الكبرى والكارثة العظمى وهي: «**رفع القرآن**».

ومما يؤكد على ضرورة التشمير للانتفاع بالقرآن أننا بالفعل محرومون من أثرِه وروحِه، فألفاظُه أمامَنا ولكننا لا نقدر على تحصيل الخشوع والتغيير والشفاء منها، وبمرور الوقت تصوَّرنا أن ما نفعله مع القرآن، وما نُحصِّله منه من تأثُّر ببعض آياته هو غاية الانتفاع به.

ولعلك أخي القارئ تعرف مثل ما يعرف الكثيرون من تلك القصص الواقعية التي تطرق أسماعَنا وأبصارَنا، والتي تحكي فصولها وتشرح قدر ابتعاد العلم عن

(١) رواه الدارمي (١/ ٣٣٣ برقم: ٢٩٦)، والترمذي (٥/ ٣١ برقم: ٢٦٥٣)، وقال: حديث حسن غريب، والحاكم (١/ ١٩٧ برقم: ٣٣٨)، وصححه، ووافقه الذهبي.

العمل، وانفصال الممارسات الحياتية لبعض قُرَّاء القرآن وحُفَّاظه ومُعلمي ألفاظِه ومعانيه عن أخلاق القرآن وآدابه، وهذا يدلِّل على أن ما ورد في فضل أهل القرآن ليس على إطلاقه، ولا يشمل كل مَن يتعامل معه، فالاتصاف بصفة «**أهل القرآن**» أو «**صاحب القرآن**» ليست بالسهولة التي يظنها البعض، فلكل قول حقيقة، ولهذه الصفة علامات علينا أن نتعرَّف عليها لندرك حقيقة موقعنا من القرآن، وعندها سنُفاجأ بأننا قد أدرنَا ظهورنا للقرآن، وأن المسافة التي بيننا وبينه كبيرةٌ كبيرة، وأننا لو بقينا هكذا فستتوالى علينا عقوبات الإعراض عن آيات الله كما أصابت مَن قَبلنا، إلى أن تكون الخاتمة؛ خاتمة السوء: أن يَرفعَ اللهُ كلامَه، وينسخ القرآن ويعود من حيث أتى.

واعلم أخي أن الدافع الأساس لطرح هذا الموضوع هو استثارة الشعور بالخطر، ومِن ثَم التشمير الجاد للعودة إلى القرآن والانتفاع الحقيقي به.

هذا، وإن كاتب هذه السطور، لهو -والله- أحوج ما يكون إلى ما تهدف إليه، ويحدوه الأمل أن يجعلَها اللهُ عَزَّوَجَلَّ سببًا لاستنفار جهود المُشفقين والحريصين على هذه الأمة وعلى هذا الكتاب الذي هو مبعثُ قوَّتِها وسرُّ عزَّتِها، من أجل إعادة روحه وأنواره وتأثيره إلى القلوب بإذن الله، فيرفعنا سبحانه به في الدنيا والآخرة: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلۡكِتَٰبِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُصۡلِحِينَ ﴾ [الأعراف: ١٧٠].

والحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله.

الفصل الأول

بل نحن محرومون!!

بل نحن محرومون!!

إذا ما أرادَ الجهازُ التنفيذي لمدينةٍ (ما) أن يشقَّ طريقًا بين صخور صلبة؛ فإنه يستدعي المتخصصين الذين -بدورهم- يقومون بمُعاينة الموقع وتحديد القدر المناسب لكمية المتفجرات اللازمة لإنجاح العملية، وكلما كانت الصخور صلبة وضخمة كانت القوة التأثيرية المطلوبة في المتفجرات أشد.

وكما هو معلوم، فإن هذه المتفجرات لا تُحدثُ شيئًا بذاتها، فاللهُ عَزَّوَجَلَّ هو الذي أودع فيها تلك القوة التأثيرية الضخمة، وكيف لا، وكل قوة في هذا الكون مستمدة من قوته سبحانه ﴿**لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ**﴾ [الكهف: ٣٩]، فقوة تأثير النيران التي تصهر الحديد، وتُذيب النحاس ما هي إلا أثر يسير من آثار قوته سبحانه، وكذلك فإن قوة تأثير الكهرباء، وأشعة الليزر، والقنابل الذرية هي من آثار قوته سبحانه، فجميع أشكال القوة الموجودة على ظهر الأرض هي مِلكٌ لله ومُستمَدة من قوته ﴿**أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا**﴾ [البقرة: ١٦٥].

ولقد أخبرنا صاحبُ هذه القوة -جل شأنه- أن من أشدِّ أنواع القوى تأثيرًا، تلك القوة التي أودعها سبحانه في القرآن العظيم، وضربَ لنا مثلًا يؤكِّد فيه هذا المعنى: ﴿**لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ**﴾ [الحشر: ٢١].

فقوة تأثير القرآن لا يوجد لها مثيل على ظهر الأرض.

وعندما طلب كفَّارُ مكة من رسول الله ﷺ أن يريَهُم آيات خارقة تدل على صدقِه كان الرد الإلهي: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ [العنكبوت: ٥١].

ولمَّا سألوه أن يجعل ربه -جل شأنه- يُباعد بين جبال مكة حتى يتمكَّنوا من زراعتِها، وأن يُحيي لهم أمواتهم، وأن يقطع به الأرض، فيقرِّب بينهم وبين الشام واليمن فنزلَ قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ [الرعد: ٣١]، وجواب الشرط محذوف وتقديره: لكان هذا القرآن، بمعنى أنه لو سمح للقرآن أن يفعل ذلك لفعل[1]، والله على كل شيء قدير؛ بدلالة قوله تعالى بعد ذلك: ﴿بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا﴾ [الرعد: ٣١].

ومع هذه القوة التأثيرية الجبَّارة للقرآن؛ إلا أن الله -جل شأنه- جعل مجال عملها ودائرة تأثيرها هي ذات الإنسان، باعتبار أن الإنسان هو موضوع هذه الأرض:

﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة: ٢٩].

﴿وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ﴾ [الرحمن: ١٠].

فأيُّ تأثيرٍ يمكن أن يُحدثه القرآن لو تعرَّض له الإنسان.. أي إنسان؟!

وأيُّ نتيجةٍ تترتَّب على دخولِ الإنسان دائرة تأثير القرآن؟!

(١) روى ابن أبي شيبة في المصنف (٧/ ٣٣٣ برقم: ٣٦٥٦٩) عن الشعبي، قال: قالت قريش لرسول الله ﷺ: إن كنت نبيًّا كما تزعم فباعد جبلي مكة أخشبيها هذين مسيرة أربعة أيام، أو خمسة، فإنها ضيقة، حتى نزرع فيها ونرعى، وابعث لنا آباءنا من الموتى حتى يكلمونا ويخبرونا أنك نبي، واحملنا إلى الشام أو إلى اليمن أو إلى الحيرة، حتى نذهب ونجيء في ليلة كما زعمت أنك فعلته، فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ﴾ [الرعد: ١٣] الآية، وروى ابن جرير (١٦/ ٤٤٩) عن قتادة وابن زيد قولهم في تأويل قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ﴾ قال قتادة: يقول: لو فعل هذا بقرآنٍ قبل قرآنكم لفُعِل بقرآنكم.

.. ألا توافقني أن زلزالًا عنيفًا سيحدُث له، فيُعدِّل حياتَه ويُصحِّح مسارَه ويقوِّم سلوكَه، ويُحدِث فيه تغييرات جذرية شاملة؟

.. ألا توافقني أن حالَه بعد كلِّ مرةٍ يتعرَّض فيها لتأثير القرآن ستختلف كثيرًا عمَّا كان قبلها؟ ﴿**وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا**﴾ [الأنفال: ٢].

.. بلا أدنى شك هناك علامات واضحة -لا يمكن إنكارها- لمَن يتصل اتصالًا حقيقيًّا بالقرآن ويدخل إلى دائرة تأثيره.. هذه العلامات تشكِّل مقياسًا واضحًا ومؤشرًا حقيقيًا لمَن يمكن أن نُطلِق عليه أنه قد «**أُوتِيَ القرآن**»، و«**صاحب القرآن**»، و«**أهل القرآن**»، و«**حامل القرآن**» .. وفي المقابل فإن لم تظهر تلك العلامات على شخص ما فلا يمكن أن نُطلِق عليه هذه الألقاب مهما كان الجهد الذي يبذله مع القرآن تلاوةً أو حفظًا أو تعليمًا، فالبيِّنةُ على مَن ادَّعى.

العلامة الفارقة

هذه العلامات التي سيتم الحديث عنها بعون الله في الفصل الأخير من هذا الكتاب كمظاهر لحالة النجاح في الاتصال الحقيقي بالقرآن يجمعها أمر عظيم وعلامة فارقة، ألا وهي:

التغيير الجذري الشامل في شخصية المرء، والذي من الضروري أن ينعكس على سلوكه وأفعاله ليصبح: مسلمًا، صالحًا، مُصلحًا، متواضعًا، مجاهدًا في سبيل الله، لا يخاف فيه لومة لائم.

إن الذي يدخل -بإذن الله- إلى دائرة تأثير القرآن، فتُباشرُ معجزتُه كينونتَه؛ فمن الطبيعي والتلقائي أن يتغير تغييرًا إيجابيًّا وشاملًا وعميقًا، فيُعيد القرآن تشكيلَه على الوجه الذي يحبُّه اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ:

﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾ [الإسراء: ٩].

﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الإسراء: ٨٢].

﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ﴾ [فصلت: ٤٤].

لذلك لا يُخطئ مَن يقول بأن أهمَّ علامةٍ من العلامات الدَّالة على دخول المرء في دائرة تأثير القرآن، ومِن ثَمَّ سريان روحه فيه: التغيير الذي يظهر عليه، ويشمل جميع جوانب شخصيته.

- **تغيير في المفاهيم الخاطئة**، والمعتقدات الفاسدة والتصوُّرات المُعوجَّة التي تحتلُّ العقل.
- **وتغيير في القلب**، حيث يقوم نور القرآن -بإذن الله- بقطع علائق القلب بالهوى، ويزيده إيمانًا حتى يصبح قلبًا حـيًّا سليمًا أبيضَ خاليًا من الأمراض.
- **وتغيير في النفس**، فيزيلُ آثارَ تضخُّمِهَا، ويروِّضُها ويُلزِمُها طريقَ الصدقِ والإخلاص، ويُخلِّص صاحبَها من مظاهر ضعفِه أمامها من اعتدادٍ بالرأي، وتفاخر، وتباهٍ، وسعي للصدارة، وشح، وحرص، وتعلق بالدنيا، ... إلخ.

.. هذه التغييرات تَظهَر آثارُها -بعون الله- على حركة المرء فتجده في حالة دائمة من الاستقامة على أمر الله عَزَّوَجَلَّ، يسعى دومًا إلى فعل ما يحبه ربه وذلك في كل المجالات الفردية والجماعية.

والخلاصة: أن القرآن يُنتِجُ -بإذن الله- شخصًا ربَّانيًّا عابدًا ورِعًا متواضعًا مجاهدًا، نافعًا لغيره، متوازنًا في أمورِه كلها.

وأعظمُ دليلٍ على ذلك هو رسولنا ﷺ الذي وصل لأعلى مرتبة بين البشر عند الله عَزَّوَجَلَّ في الإيمان والخشوع والتقوى والخُلُق والشكر والصبر والاستقامة، كل ذلك كان بفضل الله من خلال القرآن: ﴿وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِىٓ إِلَىَّ رَبِّىٓ﴾ [سبأ: ٥٠].

فلقد كان يتَّبع القرآنَ في كلِّ شيء، ولا يتَّبع غيرَه:

﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ﴾ [الأنعام: ٥٠].

ولعل أبلغ ما وُصِفَ به ﷺ أنَّه: «**كَانَ خُلُقُهُ الْقُرْآنَ**»(١).

وكان: «**قُرْآنًا يَمْشِي عَلَى الأَرْضِ**».

عَنْ أَنَسِ بْنِ مالِكٍ، أَنَّهُ سَمِعَ عُمَرَ بنَ الخَطَّاب الغَدَ، حِينَ بايَعَ المُسْلِمُونَ أبا بَكْرٍ، واسْتَوى عَلى مِنبَرِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، تَشَهَّدَ قَبْلَ أَبِي بَكْرٍ، فَقالَ: «أَمَّا بَعْدُ، فاخْتارَ اللهُ لِرَسُولِهِ ﷺ الَّذِي عِنْدَهُ عَلى الَّذِي عِنْدَكُمْ، وهَذا الكِتابُ الَّذِي هَدى اللهُ بِهِ رَسُولَكُمْ، فَخُذُوا بِهِ تَهْتَدُوا، وإِنَّما هَدى اللهُ بِهِ رَسُولَهُ»(٢).

ومما يؤكد من الناحية العملية على هذه العلامة الفارقة ؛ هُم صحابةُ رسولِ الله ﷺ الذين تغيَّروا بالقرآن تغيُّرًا كاملًا، فبعد أن كانوا جماعات متفرقة، يعبدون الحجارة، ويأتون الفواحش، ويقطعون الأرحام، ويأكل القويُّ منهم الضعيف؛ أصبحوا أمَّةً قويةً مُتماسكة، وأصبح كل واحدٍ منهم أمة وحدَه، ويكفي في وصفهم ما جاء في قوله تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ﴾ [الفتح: ٢٩].

---

(١) رواه مسلم (١/ ٥١٢ برقم: ٧٤٦) بمعناه عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

(٢) رواه البخاري (٩/ ٩١ برقم: ٧٢٦٩).

يقول في وصفهم عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «مَن كانَ مُسْتَنًّا فَلْيَسْتَنَّ بِمَن قَدْ مَاتَ، أُولَئِكَ أَصْحابُ مُحَمَّدٍ ﷺ كانُوا خَيْرَ هَذِهِ الأُمَّةِ، أَبَرَّها قُلُوبًا، وأَعْمَقَها عِلْمًا، وأَقَلَّها تَكَلُّفًا، قَوْمٌ اخْتارَهُمُ اللَّهُ لِصُحْبَةِ نَبِيِّهِ ﷺ ونَقْلِ دِينِهِ، فَتَشَبَّهُوا بِأَخْلاقِهِمْ وطَرَائِقِهِمْ فَهُمْ أَصْحَابُ مُحَمَّدٍ ﷺ، كَانُوا عَلى الهُدَى المُسْتَقِيمِ»[١].

وقال علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «وَاللَّهِ لَقَدْ رَأَيْتُ أَصْحَابَ مُحَمَّدٍ ﷺ فَمَا أَرَى اليَومَ شَيْئًا يُشْبِهُهُمْ لَقَدْ كَانُوا يُصْبِحُونَ صُفْرًا غُبْرًا، بَيْنَ أَعْيُـنِـهِمْ أَمْثَالُ رُكَبِ الْمِعْزَى، قَدْ بَاتُوا سُجَّدًا وَقِيَامًا، يَتْلُونَ كِتَابَ اَللَّهِ، يُرَاوِحُونَ بَيْنَ جِبَاهِهِمْ وَأَقْدَامِهِمْ، فَإِذَا أَصْبَحُوا فَذُكِرَ اللَّهُ مَادُوا كَمَا تَمِيدُ اَلشَّجَرُ فِي يَوْمِ الرِّيحِ، وَهَمَلَتْ أَعْيُنُهُمْ حَتَّى تَبُلَّ ثِيَابَهُمْ، وَاَللَّهِ لَكَأَنَ اَلْقَوْمُ بَاتُوا غَافِلِينَ»[٢].

وقال ابن عبد البر في خطبة كتابه: «الاستيعاب في معرفة الأصحاب»:

روى ابن القاسم عن مالك بن أنس أنه سمعه يقول: «لمَّا دخلَ أصحابُ رسولِ الله ﷺ الشامَ نظر إليهم رجلٌ من أهل الكتاب فقال: ما كان أصحاب عيسى ابن مريم عَلَيْهِ السَّلَامُ الذين قُطِّعوا بالمناشير وصلبوا على الخُشُب بأشد اجتهادًا من هؤلاء»[٣].

لقد كان الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ يدركون جيدًا قيمة القرآن العظيم، ويشعرون بالتغيير الشامل الذي حدث لهم من خلاله، لذلك كانت وصاياهم لمَن بعدَهم بضرورة الالتزام بالقرآن، فهذا أبو بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول: «هذا كتابُ اللهِ فيكم لا تَفْنَى عجائبُه ولا يُطفأ نورُه، فصَدِّقوه وانتصِحُوه واستضِيئوا منه ليوم الظُّلمة»[٤].

---

(١) رواه أبو نعيم في الحلية (١/ ٣٠٥).

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في التهجد وقيام الليل (برقم: ٢٠٦)، وأبو نعيم في الحلية (١/ ٧٦).

(٣) الاستيعاب في معرفة الأصحاب (١/ ١١).

(٤) عيون الأخبار لابن قتيبة (٢/ ٢٣٢).

وعندما أراد بنو عامر العودة للإسلام بعد ردَّتِهم كان مما اشترطه عليهم خليفة رسول الله أبي بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وأخذ العهد عليه: «عليكم عقد الله وميثاقه أن تقوموا بالقرآن آناء الليل وآناء النهار، وتُعلِّموه أولادَكم ونساءَكم، ولا تمنعوا فرائضَ اللهِ في أموالِكم»[١].

وعن جويرية بن قدامة أنهم دخلوا على عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وقد طُعن فقالوا له: أوصنا. فقال: «**عليكم بكتابِ اللَّه، فإنَّكم لن تضِلُّوا ما اتبعتُمُوه**»[٢].

إن القرآن هو أعظم أداة للتغيير الحقيقي -بإذن الله- وينبغي أن يكون للمؤمن كما أوصى نصر بن يحيى بن أبي كثير: «اجعَلِ القرآنَ مَفْزَعَكَ الذي تَلجأ إليه، وحِصنَكَ الذي به تَعتصِم، وكهْفَكَ الذي إليه تأوي، ودَليلَكَ الذي به تهتدِي، وشعارَكَ ودِثارَك، ومُتهَجَّدكَ وسَبِيلَك، وإذا التبسَتْ عليك الطُّرقُ، وصِرتَ في ضيقٍ مِن أمرِك، يضيق بها صدرك، فارجع إلى عجب القرآن الذي لا حَيْرةَ فيه، فقِفْ على دلائلِه مِن الترغيبِ والترهيب، والوعدِ والتَّشويق إلى ما ندَبَ اللهُ إليه المؤمنين مِن الطاعة وترك المعصية؛ فإنَّك تخرُج مِن حَيْرتِك، وترجع عن جَهالتِك، وتأنَسُ بعد وَحْشتِك، وتقوى بعد ضَعفِك، فليكُن دليلَك دون المخلوقين، تفُز مع الفائزين»[٣].

القرآن يُغيِّر أيَّ إنسان

لقد كان التغيير القرآني للصحابة من أكبر الدلائل على قدرة القرآن -بإذن الله- على التعامل مع أي إنسان مهما كان طغيانه وفسقه وفجوره، لذلك فإن مَن يتعامل

(١) الاكتفاء بما تضمنه مغازي رسول الله ﷺ والثلاثة الخلفاء (٢/ ٣٤).

(٢) رواه أحمد في المسند (١/ ٤٣١ برقم: ٣٦٢).

(٣) ذكره ابن عبد الهادي في كتاب «هداية الإنسان للاستغناء بالقرآن» (ص: ٤٩٨ -رسالة دكتوراه- الجامعة الإسلامية).

مع القرآن تلاوةً وتعليمًا دون أن يظهر عليه أثر ذلك التغيير؛ فإنه يقينًا لم يدخل إلى دائرة تأثير المعجزة القرآنية، ولم تسرِ روحُه في كيانِه.

يقول مالك بن دينار: «يا حملة القرآن، ماذا زرع القرآن في قلوبكم؟ فإن القرآن ربيع المؤمن كما أن الغيث ربيع الأرض، فإن الله ينزل الغيث من السماء إلى الأرض فيصيب الحُش فتكون فيه الحبة، فلا يمنعها نتن موضعها بأن تهتز وتخضر وتحسن، فيا حملة القرآن، ماذا زرع القرآن في قلوبكم؟ أين أصحاب سورة؟ أين أصحاب سورتين؟ ماذا عملتم فيهما؟»(١).

وكان شميط بن عجلان يقول: إن المؤمن اتخذ كتاب الله مرآة، فمرة ينظر إلى ما نعتَ اللهُ به المؤمنين، ومرة ينظر إلى ما نعتَ اللهُ به المُغترّين، ومرة ينظر إلى الجنة وما وعدَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ فيها، ومرة ينظر إلى النار وما وعدَ اللهُ فيها، تلقاه دائمًا حزينًا كالسهم المرمي به شوقًا إلى ما شوقه الله إليه، وهربًا مما خوفه الله عَزَّوَجَلَّ منه(٢).

ولعل من أهم علامات التغيير التي تحدث لصاحب القرآن: **علاقته بالمال،** وزهده فيه، وعدم الحرص على تكثيره.. يقول كرز بن وبرة الحارثي: لا يكون العبد قارئًا حتى يكون زاهدًا في الدرهم(٣).

ومنها كذلك: انضباطه واستقامته.. قال رسول الله ﷺ: «**أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِخَيْرِ النَّاسِ، وَشَرِّ النَّاسِ؟ إِنَّ مِنْ خَيْرِ النَّاسِ رَجُلًا عَمِلَ فِي سَبِيلِ اللهِ عَلَى ظَهْرِ فَرَسِهِ أَوْ**

(١) حلية الأولياء (٢/ ٣٥٨، ٣٥٩).

(٢) صفة الصفوة (٣/ ٣٤٤).

(٣) سير أعلام النبلاء (٦/ ٨٦).

عَلَى ظَهْرِ بَعِيرِهِ أَوْ عَلَى قَدَمَيْهِ، حَتَّى يَأْتِيَهُ الْمَوْتُ، وَإِنَّ مِنْ شَرِّ النَّاسِ رَجُلًا فَاجِرًا جَرِيئًا يَقْرَأُ كِتَابَ اللهِ لَا يَرْعَوِي[١] إِلَى شَيْءٍ مِنْهُ»[٢].

مقارنة

عندما سألت نفسي: أين أنا من هذا كله؟

أين أنا من التغيير الحقيقي الشامل الذي يحدثه القرآن في ذات من يتصل به؟

فجاءتني الإجابة بعد عناء ومراوغة: بأن المسافة كبيرة بين حالي وواقعي وبين الشخصية التي يصنعها القرآن بإذن الله، وذلك في جوانب كثيرة من حياتي يمتنع القلم عن ذكرها.

وأسألك أنت أخي كذلك..

- كيف هي المسافة بينك وبين أخلاق القرآن؟
- هل هي قريبة أم بعيدة؟
- كيف هي علاقتك بالمال؟ ألا يستبد بك الفرح إذا زاد والحزن إذا نقص؟!
- هل تتهم نفسك بصورة دائمة وتستصغرها ولا ترضى عنها؟!
- هل تخفض جناحك للمسلمين وتتواضع معهم بغير تكلف؟!
- هل تسعى دومًا لتمكين دين الله في الأرض؟!
- كيف هي علاقتك بربك؟ هل مقامه وقدره عظيم في نفسك؟ هل هو الأسبق إلى قلبك عند تعرضك للشدائد؟ وهل تحب الخلوة به؟ وتأنس بمناجاته؟!

---

(١) يرعوي: ينزجر.

(٢) رواه أحمد في المسند (١٧/ ٤٢١ برقم: ١١٣١٩)، والنسائي (٦/ ١١ برقم: ٣١٠٦)، والحاكم (٢/ ٧٧ برقم: ٢٣٨٠)، وصححه، ووافقه الذهبي.

■ هل..؟ هل..؟

أحسبك -أخي- في حيرة من أمرك.. تحاول إثبات وجود بعض مظاهر التغيير الإيجابي في ذاتك، لكنك تلحظ فيها مظاهر سلبية عديدة، لذلك يصعب عليك الاعتراف بالحقيقة التي مفادها أننا في واد، والقرآن في واد آخر.

نعم، سيجد الكثير منا صعوبة بالغة في الاعتراف والإقرار بهذه الحقيقة لأنه قد رتب أمرَه على أنه من أهل القرآن الموعودين بالشـرف وعلو المنزلة عند الله عَزَّوَجَلَّ لمجرد مداومته على قراءة هذا الكتاب، أو لحفظه له -بعضه أو كله- ومن ثَم فلا ضير إن تم التقصير في الواجبات أو الوقوع في الآثام، فالقرآن سيشفع لنا عند الله جل شأنه، وسيتجاوز سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ عنا من أجل خدمتنا لكتابه.

أخي: كأني أشعر بتلك المقاومة التي تضطرم داخلك وتدفعك لعدم قبول حقيقة أننا لسنا من أهل القرآن.

.. كأني أسمعك وأنت تتمتم وتقول: كيف لا أكون من أهل القرآن وأنا أداوم على تلاوته يوميًا، وأحفظ بعضه، وقد أؤم الناس به، وأعلمه لغيري في بعض الأحيان؟! فإن لم أكن من أهل القرآن فمن يكون؟

.. أشعر باجتهادك في محاولة إثبات ظهور بعض العلامات عليك للخروج من هذا المأزق، مثل الشعور ببعض السكينة عند قراءة القرآن، أو سماحة الوجه، أو البركة في الرزق.

الاختبارات الكاشفة

للأسف -أخي- هذه هي الحقيقة: **أننا لسنا بعدُ من أهل القرآن..!!!**

بل إن المسافة التي تفصلنا عنه: كبيرة .. كبيرة.

فإن لم تحتل هذه الحقيقة موقعها الصحيح من نفسك، فما عليك إلا أن تقوم بإجراء هذا الاختبار:

اختبر نفسك عند القراءة في أي موضوع، سواءً كان في جريدة أو كتاب أو غيره، وتأمل ما يحدث لك عندما يأتي في سياق الكلام آية أو بضع آيات قرآنية يستشهد بها الكاتب للتدليل على كلامه.. هل ستقرؤها مثلما تقرأ باقي الكلام من حيث الاهتمام ومحاولة الفهم وربطها بما سبق من فقرات أم أنك ستمر عليها بالقراءة السريعة؟ أم ستتجاوزها بعينيك وتقفز إلى الفقرة التي تليها؟!

قُم -أخي- بإجراء هذا الاختبار عدة مرات، وسجِّل ما يحدث لك، وساعتها ستعرف الحقيقة، وستتأكد أننا نهتم بكلام البشر أكثر من اهتمامنا بكلام الله، وليس أدل على ذلك من تلك الصعوبة التي نواجهها ونحن نُكرِهُ أنفسَنا على قراءة الآيات القرآنية التي تتضمنها صفحات أي كتاب أو مقال نطَّلعُ عليه، وفي كثير من الأحيان نتجاوزُها، وبخاصة إذا كانت طويلة، وإنا لله وإنا إليه راجعون: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ﴾ [الجاثية: ٦].

.. ومن المُبكيات أن تجد بعض المؤلفين يستحث القارئ أن يصبر على قراءة الآيات التي يتضمنها كتابه، وألا يملَّ منها لأنها ذات صلة بالوحدة الموضوعية لمادة الكتاب، فهذا صاحب الظلال رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول في بدايات كتابه «مقوِّمات التصوُّر الإسلامي»: «فقارئ هذا البحث لا بد له أن يدرس النصوص القرآنية المطوَّلة فيه باعتبارها هي الأصل.. إنها لم تجئ هنا للاستشهاد.. إنما جاءت للتحدث هي بذاتها عن الحقيقة، وعبارتنا حولها هي العنصر الإضافي. ولا بد أن يصبر على تملي هذه

النصوص كلمة كلمة، فلا يتخطَّاها حتى لو كان ممَّن يحفظون القرآن من قبل»[١].

وفي كتابه «صحيح السيرة النبوية» يُلِح «محمد رزق الطرهوني» على هذا الطلب فيقول تحت عنوان «ملحوظة مهمة»: «آملُ من القارئ الكريم أن يصبر على تلاوة ما يأتيه في هذا الجزء وما يليه من آيات القرآن، وتدبر معانيها، واستشعار ما تُعطي من أحاسيس، ولمح لتوقيت نزولها وما يسبقه وما يتبعه، فإنني لم أذكرها استزادة في حجم الكتاب، بل هي أساس في مادة السيرة، بل إن محاجَّة النبي ﷺ لمشركي مكة وما قاله لدعوتهم إلى الله يكاد يكون جميعه في القرآن فقط».

ويستطرد قائلًا: «هذه نُبذة سريعة آثرتُ طرحها؛ لما لمسته من حاجة القرَّاء إلى لفت انتباههم إليها، حتى لا يمرُّوا على الآيات مرورًا سريعًا، أو يملَّوا من كثرة سياقها..»[٢].

اختبار ثانٍ

فإذا أردت اختبارًا ثانيًا يُشعرُك بالقدر الحقيقي للقرآن في قلوبنا، وبالمسافة الكبيرة التي تفصلنا عنه؛ فتخيَّل نفسَك وقد اعتراك شعور بالاحتياج إلى موعظة ترقِّقُ قلبَك، فذهبتَ إلى مكتبتِك، ووقفتَ تتأمل ما فيها من كتب الرقائق والمواعظ، فهل ستختار القرآن ليقوم بهذه الوظيفة، أم ستختار كتابًا آخر؟!

الإجابة عندك...

لقد كان الجيل الأول يُدرك أن من أهم أسباب ضلال اليهود والنصارى هو انشغالهم بكتب علمائهم على حساب التوراة والإنجيل، لذلك كانوا حريصين

---

(١) مقومات التصور الإسلامي (ص: ٤٠).

(٢) صحيح السيرة النبوية المسماة بالسيرة الذهبية للشيخ محمد بن رزق الطرهوني (٢/ ٣، ٤).

على ربط الأجيال الجديدة بالقرآن، وكانوا يتألمون أشدَّ الألم عندما يجدون من ينتظر ويهتم لسماع كلامهم أكثر من انتظاره لسماع القرآن، ولقد حدث لسلمان الفارسي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ موقف يؤكد هذا المعنى:

فقد سمع الناس بالمدائن أن سلمان في المسجد فأتوه، فجعلوا يثوبون إليه حتى اجتمع نحوٌ من ألف، فقام فجعل يقول: اجلسوا اجلسوا، فلما جلسوا فتح سورة يوسف يقرؤها فجعلوا يتصدَّعون ويذهبون حتى بقي في نحوٍ من مائة، فغضِبَ، وقال: «الزُّخْرُفَ مِنَ القَوْلِ أرَدْتُمْ، ثُمَّ قَرَأْتُ عَلَيْكُمْ كِتابَ اللَّهِ فَذَهَبْتُمْ؟!»(١).

اختبار الفاتحة

أما الاختبار الثالث فهو متاح لك أن تقوم به في أي وقت تشعر فيه بألم أو مرض، وذلك بأن تقرأ على موضع الألم أو المرض سورة الفاتحة.

ولقد قام رجلٌ مِن أصحابِ رسولِ الله ﷺ بقراءتها على رجلٍ قد لُدِغَ بعقرب فبرئ..

عن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال:

نزلنا منزلًا فأتتنا امرأة فقالت: إن سيد الحي سليم(٢)، لُدِغ، فهل فيكم من راق؟ فقام معها رجل منا، ما كنا نظنه يُحسن رُقية، فرقاه بفاتحة الكتاب، فبرَأ، فأعطوه غنمًا وسقونا لبنًا، فقلنا: أكنت تُحسن رقية؟ فقال: ما رقيته إلا بفاتحة الكتاب، قال: فقلت: لا تحركوها (يعني الغنم) حتى نأتي النبي ﷺ، فأتينا النبي ﷺ فذكرنا له

---

(١) حلية الأولياء (١/ ٢٠٣).

(٢) سليم: أي لُدغ من عقرب ونحوه، يسمون الملدوغ بذلك تفاؤلًا بشفائه.

ذلك، فقال: «**مَا كَانَ يُدْرِيهِ أَنَّهَا رُقْيَةٌ؟ اقْسِمُوا، وَاضْرِبُوا لِي بِسَهْمٍ مَعَكُمْ**»[١].

قُم أخي بإجراء هذا الاختبار عشرات المرات وانظر بنفسِك إلى النتيجة.

فإن قلت: إن ما حدث للصحابي حالة خاصة لا ينبغي القياس عليها، جاءك الرد من الإمام ابن القيم حيث يقول: «فما تضمَّنته الفاتحة من إخلاص العبودية والثناء على الله، وتفويض الأمر كله إليه، والاستعانة به، والتوكل عليه، وسؤاله مجامع النعم كلها، وهي الهداية التي تجلب النعم، وتدفع النقم؛ من أعظم الأدوية الشافية الكافية، ولقد مرَّ بي وقت بمكة سقِمت فيه، وفقدتُّ الطبيب والدواء فكنت أتعالج بها، آخذ شربة من ماء زمزم وأقرؤها عليه مرارًا، ثم أشربه؛ فوجدت بذلك البُرء التام، ثم صرت أعتمد ذلك عند كثير من الأوجاع، فأنتفع بها غاية الانتفاع»[٢].

ويوضح الإمام الزركشي شروط الاستشفاء بالقرآن فيقول: «لن ينتفع به إلا من أخلص لله قلبه ونيته، وتدبر الكتاب في عقله وسمعه، وعمَّر به قلبه، وأعمل به جوارحه، وجعله سميره في ليله ونهاره، وتمسك به، وتدبره، هنالك تأتيه الحقائق من كل جانب، وإن لم يكن بهذه الصفة كان فعله مكذبًا لقوله»[٣].

ومن الاختبارات كذلك

أننا حين نبحث في موضوع (ما) فإننا نفكر فيه، ونقرأ ما كُتب عنه حتى تتضح الفكرة أمامنا، ثم نعود إلى القرآن فنستشهد بآياته على ما قررنا من رأي وفصلنا من حكم، ولا نبدأ عملنا بقراءة القرآن فنبحث عما نسأل، ونستفهمه فيما لا نفهم حتى

---

(١) رواه البخاري (٦/ ١٨٧ برقم: ٥٠٠٧)، ومسلم (٤/ ١٧٢٨ برقم: ٢٢٠١)، واللفظ له.

(٢) زاد المعاد في هدي خير العباد لابن القيم (٤/ ١٧٨).

(٣) البرهان في علوم القرآن للزركشي (١/ ٤٣٦).

نستقي منه تصورنا.

والدليل على ذلك أن الكتب التي نكتبها أو نقرؤها لا يعدو القرآن فيها أن يكون دليلًا أو شاهدًا، لا صلب الموضوع، بحيث لو أزلته من البحث لما كان الكلام ينقصه سوى بعض الأدلة، حتى إن أبناءنا في المدارس بعد أن ينتهوا من كتابة مواضيع الإنشاء يتكلفون وضع آية أو آيتين في أول الموضوع أو آخره بهدف استكماله من الناحية الشكلية.

أما أن يكون القرآن هو حلبة البحث وموضوع المادة، والدليل والمدلول؛ بحيث لو زال لاختل المعنى ولم يتضح المراد منه فلا تجد هذا بيننا، **وإنا لله وإنا إليه راجعون**.

.. نعم، نحن محرومون

هل تأكدت -أخي- بأن القرآن في واد ونحن في وادٍ آخر؟

هل تأكدت أننا محرومون من الانتفاع به، وأننا لم ندخل إلى دائرة تأثيره الحقيقية؟

أشعر بك وأنت تتمتم قائلًا: لقد اقتنعت عقليًا بما ورد في هذه الصفحات، ولكني لا أشعر بهذا الحرمان، ولا أحس بتأنيب الضمير تجاه القرآن.

أحس بصدقك وأنت تكشف حقيقة علاقتك بالقرآن، فما ذكرته أحسُّه في نفسي، فنحن لا نشعر بأن هناك مشكلة حقيقية في علاقتنا بالقرآن، وقد يعتبر البعض أننا في هذه الصفحات نُضخِّم الموضوع ونعطيه أكبر من حجمه.

أخطر صور الحرمان

إن أخطَر وأشدَّ صور الحرمان؛ تلك التي تتلبس بنا في علاقتنا بالقرآن، وهي

عدم الشعور بالحرمان، وإنها -بلا شك- لمن أشد العقوبات التي نُعاقب بها.

فنحن لا نستشعر الحرمان، بل نظن أننا من أهل القرآن وحملة رايته:

﴿وَيَحۡسَبُونَ أَنَّهُمۡ عَلَىٰ شَيۡءٍۚ﴾ [المجادلة: ١٨].

الفصل الثاني

لماذا حُرِمْنا الانتفاع بالقرآن؟!

لماذا حُرِمنا الانتفاع بالقرآن؟

القرآن.. ذلك الكتابُ المقدَّس، والمعجزةُ الفذَّة؛ له منزلة عظيمة عند الله -جل شأنه-، وهو ما يستدعي منا التعامل معه بمهابةٍ وإجلالٍ وتقدير، وإن لم نفعل فالعقوبات تنتظرنا، والتي تبدأ بالحرمان من الانتفاع الحقيقي به، وتنتهي برفعِه من الصدور والمصاحف كما سيأتي بيانه.

ونبدأ -بعون الله- الحديث عن قدر القرآن حتى ندرك حجم التقصير الذي وقعنا فيه تجاهه، وندرك كذلك أسباب حرماننا من الانتفاع به في التغيير.

قدرُ القرآنِ عند اللَّهِ عزوجل

القرآن الكريم له عند الله منزلة عظيمة، ولقد أخبرنا -جل شأنه- عن ذلك فقال: ﴿وَإِنَّهُۥ فِيٓ أُمِّ ٱلۡكِتَٰبِ لَدَيۡنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ [الزخرف: ٤].

قال قتادة: أي ذو مكانة عظيمة وشرف وفضل[١].

ولقد أخبرنا سبحانه في كتابه عن بعض صفات القرآن ليعظم قدره ومهابته لدينا.

أخبرنا أنه كريم: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ۝٧٥ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ ۝٧٦ إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٌ كَرِيمٌ ۝٧٧ فِي كِتَٰبٍ مَّكۡنُونٍ ۝٧٨﴾ [الواقعة: ٧٥ - ٧٨].

فالقرآن الحكيم يخاطب كل إنسان بما يناسبه ويؤثر فيه كائنًا من كان[٢].

---

(١) تفسير ابن كثير (٧/ ٢١٨).

(٢) عظمة القرآن للدوسري (ص: ١٨٥).

وأنه ذو مجد: ﴿قٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ﴾ [ق: ١] فوصفه بالمجيد يدل على بلوغ النهاية.. وسيع المعاني وعظيمها، كثير الوجوه، كثير البركات.. متناه في الشرف والكرم والبركة(١).

وهو ذو شرف: ﴿صٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ذِي ٱلذِّكۡرِ﴾ [ص: ١].

﴿لَقَدۡ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ كِتَٰبٗا فِيهِ ذِكۡرُكُمۡۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠].

قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: فيه ذكركم: أي شرفكم(٢).

وأخبرنا أنه عظيم: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَٰكَ سَبۡعٗا مِّنَ ٱلۡمَثَانِي وَٱلۡقُرۡءَانَ ٱلۡعَظِيمَ﴾ [الحجر: ٨٧]، فالقرآن هو النعمة العظمى، التي كل نعمة وإن عظمت فهي بالنسبة إليه حقيرة ضئيلة(٣).

وأنه لا حديث يشبهه في حُسنه: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا﴾ [الزمر: ٢٣].

وأخبرنا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى **أنه أحسن القصص:** ﴿نَحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ أَحۡسَنَ ٱلۡقَصَصِ بِمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ﴾ [يوسف: ٣].

وأخبرنا أنه لا تنفد معانيه وعجائبه: ﴿قُل لَّوۡ كَانَ ٱلۡبَحۡرُ مِدَادٗا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّي لَنَفِدَ ٱلۡبَحۡرُ قَبۡلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّي وَلَوۡ جِئۡنَا بِمِثۡلِهِۦ مَدَدٗا﴾ [الكهف: ١٠٩].

يقول المحاسبي في حديثه عن قدر القرآن:

لقد سمَّى اللهُ عَزَّوَجَلَّ نفسه فقال: ﴿عَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ [الشورى: ٥١].

---

(١) المصدر السابق (ص: ١٩٣).

(٢) ذكره ابن كثير في تفسيره (٣/ ١٦٦)، ورواه أبو بكر بن أبي عاصم في كتاب السنة (٢/ ٦٣٣ برقم: ١٤٩٨)، والبيهقي في شعب الإيمان (٣/ ١٦٣ برقم: ١٥٠٢).

(٣) عظمة القرآن للدوسري (ص: ١٩٦).

وسمَّى كلامَه فقال: ﴿ وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴾ [الزخرف: ٤].

ووصفه بالبركة: ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ ﴾ [ص: ٢٩].

وسمَّاه: برهانًا، ونورًا، ورحمةً، وموعظةً، وبيانًا، وحقًّا، وبصائر، وهدًى، وفرقانًا، وشفاءً لما في الصدور(١).

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴾ [النساء: ١٧٤].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [يونس: ٥٧].

﴿ هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ [الجاثية: ٢٠].

وسمَّاه سبحانه: ﴿ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ﴾ [الشورى: ٥٢]: فهو للقلوب بمنزلة الروح للأبدان، حيث يحييها حياة أبدية، وتنوين (روحًا) للتعظيم، أي روحًا عظيمة(٢).

القرآن في عيون السنة

فإذا ما انتقلنا إلى السُّنة لوجدنا أحاديث عديدة تخبرنا عن قدر القرآن عند الله عَزَّوَجَلَّ.

فمن أقواله ﷺ: «**إِنَّكُمْ لَنْ تَرْجِعُوا إِلَى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ بِشَيْءٍ أَفْضَلَ مِمَّا خَرَجَ مِنْهُ**» يعني القرآن (٣).

(١) فهم القرآن للحارث المحاسبي (ص: ٢٨٢).

(٢) روح المعاني للألوسي (١٨/ ٣٠٨)، نقلًا عن عظمة القرآن للدوسري (ص: ١٧٠).

(٣) رواه أحمد في الزهد (برقم: ١٩٠)، واللفظ له، والترمذي (٥/ ١٧٧ برقم: ٢٩١٢)، والحاكم في المستدرك (١/ ٧٤١ برقم: ٢٠٣٩).

وقال: «**مَا مِنْ كَلَامٍ أَعْظَمُ عِنْدَ اللهِ مِنْ كَلَامِهِ، وَمَا رَدَّ الْعِبَادُ إِلَى اللهِ كَلَامًا أَحَبُّ إِلَيْهِ مِنْ كَلَامِهِ**»(١).

وقال: «**وَفَضْلُ كَلَامِ اللهِ عَلَى سَائِرِ الْكَلَامِ كَفَضْلِ اللهِ عَلَى خَلْقِهِ**»(٢).

وقال: «**الْقُرْآنُ أَحَبُّ إِلَى اللهِ مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ**»(٣).

وقال: «**للهُ أَشَدُّ أَذَنًا إِلَى الرَّجُلِ حَسَنِ الصَّوْتِ بِالْقُرْآنِ مِنْ صَاحِبِ الْقَيْنَةِ إِلَى قَيْنَتِهِ**»(٤).

وعن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إِنَّ هَذا القُرْآنَ مَأْدُبَةُ اللَّهِ فَمَن دَخَلَ فِيهِ فَهُوَ آمِنٌ»(٥). وقال: «إِنَّ كُلَّ مُؤَدِّبٍ يُحِبُّ أَنْ يُؤْتى أَدَبُهُ، وإِنَّ أَدَبَ اللَّهِ القُرْآنُ»(٦).

قدر القرآن عند الملائكة

عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، يبلغ به النبي ﷺ، قالَ: «**إِذَا قَضَى اللهُ الْأَمْرَ فِي السَّمَاءِ، ضَرَبَتِ الْمَلَائِكَةُ بِأَجْنِحَتِهَا خُضْعَانًا لِقَوْلِهِ، كَأَنَّهُ سِلْسِلَةٌ عَلَى صَفْوَانٍ، فَإِذَا: ﴿فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ﴾**»(٧) [سبأ: ٢٣].

---

(١) رواه الدارمي (٤/ ٢١١٠ برقم: ٣٣٩٦).

(٢) رواه الترمذي (٥/ ١٨٤ برقم: ٢٩٢٦) عن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وقال: حسن غريب.

(٣) رواه الدارمي في سننه (٤/ ٢١١٥ برقم: ٣٤٠١).

(٤) رواه أحمد في المسند (٣٩/ ٣٧٢ برقم: ٢٣٩٤٧)، وابن ماجه (٢/ ٣٦٥ برقم: ١٣٤٠)، وابن حبان (٣/ ٣١ برقم: ٧٥٤)، والحاكم (١/ ٧٦٠ برقم: ٢٠٩٧)، وحسنه ابن كثير في التفسير (١/ ٥٩)، والبوصيري في مصباح الزجاجة (١/ ١٥٨).

(٥) رواه ابن المبارك في الزهد (برقم: ٧٨٧).

(٦) رواه القاسم بن سلام في فضائل القرآن (ص: ٥٠)، وأحمد بن حنبل في الزهد (برقم: ٩٠٥).

(٧) رواه البخاري (٩/ ١٤١ برقم: ٧٤٨١).

وعن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إِذَا تَكَلَّمَ اللهُ تَعَالَى بِالْوَحْيِ سَمِعَ أَهْلُ السَّمَاءِ لِلسَّمَاءِ صَلْصَلَةً كَجَرِّ السِّلْسِلَةِ عَلَى الصَّفَا، فَيُصْعَقُونَ، فَلَا يَزَالُونَ كَذَلِكَ حَتَّى يَأْتِيَهُمْ جِبْرِيلُ** عَلَيْهِ السَّلَامُ **حَتَّى إِذَا جَاءَهُمْ جِبْرِيلُ فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ، قَالَ: فَيَقُولُونَ: يَا جِبْرِيلُ، مَاذَا قَالَ رَبُّكَ؟ فَيَقُولُ: الْحَقَّ، فَيَقُولُونَ: الْحَقَّ، الْحَقَّ**»(١).

فهذا كان حال الملائكة عند سماع الوحي في السماء، لذلك لا نستغرب حالهم واشتياقهم إلى سماعه في الأرض..

إن الملائكة تدرك قدر القرآن العظيم، وأنه كلام الله عَزَّ وَجَلَّ، لذلك فهي تتلمس أماكن قراءته فتدنو من قارئه، وتقترب منه حتى يصل الأمر بأن يضع الملك فاه إلى فم القارئ -إن كان مستاكًا- وهذا ما أخبرنا به رسول الله ﷺ: «**إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا تَسَوَّكَ، ثُمَّ قَامَ يُصَلِّي قَامَ الْمَلَكُ خَلْفَهُ، فَتَسَمَّعَ لِقِرَاءَتِهِ فَيَدْنُو مِنْهُ حَتَّى يَضَعَ فَاهُ عَلَى فِيهِ فَمَا يَخْرُجُ مِنْ فِيهِ شَيْءٌ مِنَ الْقُرْآنِ، إِلَّا صَارَ فِي جَوْفِ الْمَلَكِ، فَطَهِّرُوا أَفْوَاهَكُمْ لِلْقُرْآنِ**»(٢).

وما من بيت من بيوت الله يُقرأ فيه القرآن، وتُتدارس معانيه إلا حفت الملائكة المكان.. يقول ﷺ: «**وَمَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ فِي بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ اللهِ يَتْلُونَ كِتَابَ اللهِ، وَيَتَدَارَسُونَهُ بَيْنَهُمْ إِلَّا نَزَلَتْ عَلَيْهِمُ السَّكِينَةُ، وَغَشِيَتْهُمُ الرَّحْمَةُ، وَحَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ، وَذَكَرَهُمُ اللهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ**»(٣).

وتحكي لنا السيرة أن «أسيد بن حضير» رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بينما هو ليلة يقرأ في مربده، إذ جالت فرسه، فقرأ، ثم جالت أخرى، فقرأ، ثم جالت أيضًا.

---

(١) رواه أبو داود (٧/ ١١٧ برقم: ٤٧٣٨)، وابن حبان (١/ ٢٢٤ برقم: ٣٧).

(٢) رواه البزار في المسند (٢/ ٢١٤ برقم: ٦٠٣).

(٣) رواه مسلم (٤/ ٢٠٧٤ برقم: ٢٦٩٩).

قال أسيد: فخشيت أن تطأ يحيى، فقمت إليها، فإذا مثل الظلة فوق رأسي فيها أمثال السرج، عرجت في الجو حتى ما أراها، قال: فغدوت على رسول الله ﷺ، فقلت: يا رسول الله بينما أنا البارحة من جوف الليل أقرأ في مربدي، إذ جالت فرسي.

فقال رسول الله ﷺ: «**اقْرَأ ابْنَ حُضَيْرٍ**» قال: فقرأت، ثم جالت أيضًا.

فقال رسول الله ﷺ: «**اقْرَأ ابْنَ حُضَيْرٍ**» قال: فقرأت، ثم جالت أيضًا.

فقال رسول الله ﷺ: «**اقْرَأ ابْنَ حُضَيْرٍ**» قال: فانصرفت، وكان يحيى قريبًا منها، خشيت أن تطأه، فرأيت مثل الظلة فيها أمثال السرج، عرجت في الجو حتى ما أراها.

فقال رسول الله ﷺ: «**تِلْكَ الْمَلَائِكَةُ كَانَتْ تَسْتَمِعُ لَكَ، وَلَوْ قَرَأْتَ لَأَصْبَحَتْ يَرَاهَا النَّاسُ مَا تَسْتَتِرُ مِنْهُمْ**»[1].

«والملاحظ من خلال الحديث أن أثر القرآن على الملائكة عظيم، فقد نزلت من السماء وصنعت مثل الظلة كأنها في هدوء واستقرار تستمع لقراءة القرآن من أُسيد»[2].

ويتوالى نزول الملائكة شهودًا للقرآن، يقول رسول الله ﷺ: «**تَجْتَمِعُ مَلَائِكَةُ اللَّيْلِ وَمَلَائِكَةُ النَّهَارِ فِي صَلَاةِ الْفَجْرِ**» ويقول أبو هريرة: اقرأوا إن شئتم: ﴿**وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِۖ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا**﴾[3] [الإسراء: ٧٨].

حالُ رسولِ الله ﷺ عند تلقيه القرآن العظيم

ومما يساعدنا -بإذن الله- على إدراك قدر القرآن العظيم هو التعرف على

---

(١) رواه مسلم (١/ ٥٤٨ برقم: ٧٩٦).

(٢) الإعجاز التأثيري (ص: ٤٢٨).

(٣) رواه البخاري (١/ ١٣١ برقم: ٦٤٨)، ومسلم (١/ ٤٥٠ برقم: ٦٤٩).

حاله ﷺ عند تلقيه الوحي، وكيف كانت معاناته ومكابدته وهو يستمع إليه، وذلك من ثقله الشديد.

فمن تلك الصور أنه **كان** ﷺ **يأتيه الوحي مثل صلصلة الجرس، وهو أشده عليه، فيفصم عنه وقد وعى ما قال.**

وتقول السيدة عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «وَلَقَدْ رَأَيْتُهُ يَنْزِلُ عَلَيْهِ الوَحْىُ فِي اليَوْمِ الشَّدِيدِ البَرْدِ، فَيَفْصِمُ عَنْهُ وإِنَّ جَبِينَهُ لَيَتَفَصَّدُ عَرَقًا»[1].

وعن زيد بن ثابت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «كَانَ إذا نَزَلَ الوَحْيُ عَلى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ثَقُلَ لِذَلِكَ وتَحَدَّرَ جَبِينُهُ عَرَقًا كَأَنَّهُ الجُمانُ وإِنْ كَانَ فِي البَرْدِ»[2].

وكان أثر ذلك الثقل يمتد إلى غيره، فعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: أن النبي ﷺ **كَانَ إِذا أُوحِيَ إِلَيْهِ وهُوَ عَلى ناقَتِهِ وضَعَتْ جِرانَها، فَلَمْ تَسْتَطِعْ أَنْ تَتَحَرَّكْ، وتَلَتْ قَوْلَ اللَّهِ** عَزَّوَجَلَّ: ﴿**إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا**﴾[3].

وَعَنْ زَيْدِ بْنِ ثابِتٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «كُنْتُ أَكْتُبُ الوَحْيَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وكانَ إذا نَزَلَ عَلَيْهِ أَخَذَتْهُ بُرَحاءُ شَدِيدَةٌ، وعَرِقَ عَرَقًا شَدِيدًا مِثْلَ الجُمانِ، ثُمَّ سُرِّيَ عَنْهُ، فَكُنْتُ أَدْخُلُ عَلَيْهِ بِقِطْعَةِ الكَتِفِ أَوْ كِسْرَةٍ، فَأَكْتُبُ وهُوَ يُمْلِي عَلَيَّ، فَما أَفْرُغُ حَتّى تَكادَ رِجْلِي تَنْكَسِرُ مِن ثِقَلِ القُرْآنِ، وحَتَّى أَقُولَ: لا أَمْشِي عَلى رِجْلِي أَبَدًا، فَإذا

---

(١) رواه البخاري (١/ ٦ برقم: ٢)، ومسلم (٤/ ١٨١٦ برقم: ٢٣٣٣)، والصلصلة: صوت الرعد، أو الحديد إذا حرك، وهذا هو المراد هنا لوروده في روايات أخرى للحديث كما في مشكل الحديث لابن فورك (١/ ٤٥٠)، والفائق في غريب الحديث للزمخشري (٢/ ٣١٠).

(٢) رواه الطبراني في الأوسط (٦/ ٨٨ برقم: ٥٨٨٠)، وأبو نعيم في دلائل النبوة (برقم: ١٧٤)، واللفظ له.

(٣) رواه أحمد في المسند (٤١/ ٣٦٢ برقم: ٢٤٨٦٨)، والحاكم في المستدرك (٢/ ٥٤٩ برقم: ٣٨٦٥)، واللفظ له، وصححه، ووافقه الذهبي، وجران الناقة: باطن عنقها، يقال: ألقت جرانها إذا بركت ومدت عنقها إلى الأرض [من لسان العرب ١٣/ ٨٦].

فَرَغْتُ قالَ: «اقْرَأْهُ»، فأَقْرَؤُهُ، فَإِنْ كانَ فِيهِ سَقْطٌ أقامَهُ، ثُمَّ أخْرُجُ بِهِ إلى النَّاسِ»[١].

وعن سهل بن سعد الساعدي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: رَأَيْتُ مَرْوانَ بْنَ الحَكَمِ فِي المَسْجِدِ، فَأَقْبَلْتُ حَتَّى جَلَسْتُ إلى جَنْبِهِ، فَأَخْبَرَنا أَنَّ زَيْدَ بْنَ ثابِتٍ أَخْبَرَهُ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أملى عَلَيْهِ: ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [النساء: ٩٥]، فَجاءَهُ ابْنُ أُمِّ مَكْتُومٍ وهْوَ يُمِلُّها[٢] عَلَيَّ، قالَ: يا رَسُولَ اللَّهِ، واللَّهِ لَوْ أَسْتَطِيعُ الجِهادَ لَجاهَدْتُ، وكانَ أَعْمى، «فَأَنْزَلَ اللَّهُ على رَسُولِهِ ﷺ، وفَخِذُهُ على فَخِذِي، فَثَقُلَتْ عَلَيَّ حَتَّى خِفْتُ أَنْ تَرُضَّ[٣] فَخِذِي، ثُمَّ سُرِّيَ عَنْهُ[٤]»، فَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿غَيْرُ أُوْلِى ٱلضَّرَرِ﴾[٥] [النساء: ٩٥].

ومما أورده الطرهوني في صحيح السيرة النبوية:

كان رسول الله ﷺ يُعالج من التنزيل شِدَّة[٦].

وكان ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد فيُفصِم عنه، وإن جبينَه ليتفصَّدُ عَرقًا[٧].

وكانت تأخذه البُرحاء[٨] ويتحدر[٩] منه مثل الجمان [١٠] من العرق في يوم

---

(١) رواه الطبراني في الأوسط (٢/ ٢٥٧ برقم: ١٩١٣)، قال الهيثمي في مجمع الزوائد (١/ ١٥٢): رجاله موثقون.

(٢) يملها أي: يمليها أي يقرؤها عليه ليكتبها.

(٣) ترض: من الرض وهو الدق والجرش.

(٤) سري عنه: كشف وأزيل ما يجده من ثقل الوحي.

(٥) صحيح البخاري (٦/ ٤٧ برقم: ٤٥٩٢).

(٦) رواه البخاري (١/ ٨ برقم: ٥).

(٧) رواه البخاري (١/ ٦ برقم: ٢)، ويتفصد بمعنى يسيل.

(٨) البرحاء: الحمى.

(٩) التحدُّر: نزول العرق.

(١٠) الجمان: اللؤلؤ. وتشبيه عرقه ﷺ عند نزول الوحي باللؤلؤ في كبر حجمه، كناية عن شدة ما كان يكابد.

شات[١]. وكان يتربد[٢] جسده ووجهه ويمسك عمن حوله ولا يكلمه أحد[٣].

ويكرب[٤] وينكس رأسه، وكان يُعرف ذلك منه[٥].

ويدوم بصره، مفتوحة عيناه، ويفرغ سمعه وقلبه لِما يأتيه من الله[٦].

وكان ربما نزل عليه الوحي وفَخِذُه على فَخِذِ غيره فتكاد ترضَّها[٧].

قدر القرآن عند رسول الله ﷺ

كان رسول الله ﷺ يُدرك قدر القرآن الذي أكرم الله البشرية به، فكان يقول: **«مَا مِنَ الأَنْبِيَاءِ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا قَدْ أُعْطِيَ مِنَ الآيَاتِ مَا مِثْلُهُ آمَنَ عَلَيْهِ الْبَشَرُ، وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيتُهُ وَحْيًا أَوْحَاهُ اللهُ إِلَيَّ، فَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ تَابِعًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ»**[٨]..

وكان شديد الحرص على تبليغه، فقد كان يعرض نفسه على الناس في الحج ويقول: **«هَلْ مِنْ رَجُلٍ يَحْمِلُنِي إِلَى قَوْمِهِ فَإِنَّ قُرَيْشًا قَدْ مَنَعُونِي أَنْ أُبَلِّغَ كَلَامَ رَبِّي»**[٩].

---

(١) رواه البخاري (٣/ ١٧٣ برقم: ٢٦٦١)، ومسلم (٤/ ٢١٢٩ برقم: ٢٧٧٠).

(٢) يتربد: أي يتلون.

(٣) رواه أبو داود الطيالسي (٤/ ٣٨٨ برقم: ٢٧٨٩) عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وأصله في البخاري (٦/ ١٠٠ برقم: ٤٧٤٧)، وله شاهد عند مسلم (٣/ ١٣١٦ برقم: ١٦٩٠) عن عبادة بن الصامت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٤) يكرب: يأخذ بنفسه ويشتد عليه.

(٥) رواه مسلم (٤/ ١٨١٦ برقم: ٢٣٣٣، ٢٣٣٤).

(٦) رواه أبو يعلى (٣/ ١٥٦ برقم: ١٥٨٣)، وابن حبان (١١/ ١١ برقم: ٤٧١٢)، والطبراني في الكبير (١٨/ ٣٣٤)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٥/ ٢٨٠): رجاله ثقات.

(٧) رواه البخاري (٤/ ٢٥ برقم: ٢٨٣٢)، ورضّ العظام: دقّها، ورَضَّه رضّا كَسَره.

(٨) رواه البخاري (٦/ ١٨٢ برقم: ٤٩٨١)، ومسلم (١/ ١٣٤ برقم: ١٥٢).

(٩) رواه أحمد في المسند (٢٣/ ٣٧٠ برقم: ١٥١٩٢)، وابن ماجه (١/ ١٣٩ برقم: ٢٠١)، وأبو داود (٧/ ١١٥ برقم: ٤٧٣٤)، والترمذي (٥/ ١٨٤ برقم: ٢٩٢٥)، وقال: حسن صحيح، والحاكم (٢/ ٦٦٩ برقم: ٤٢٢٠)، وصححه، وقال الذهبي: على شرط البخاري ومسلم.

وكان ﷺ شديد الغيرة على القرآن، عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: «يا معشر المسلمين، كيف تسألون أهل الكتاب وكتابكم الذي أنزل على نبيه ﷺ أحدث الأخبار بالله تقرؤونه لم يُشَبْ؟ وقد حدثكم الله أن أهل الكتاب بدلوا ما كتب الله وغيّروا بأيديهم الكتاب فقالوا: «هذا من عند الله. ليشتروا به ثمنًا قليلاً» أفلا ينهاكم بما جاء من العلم عن مساءلتهم؟»(١).

وكان ﷺ يغضب ويشتد غضبه عندما يجد اختلافًا بين الناس في القرآن: عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: لقد جلست أنا وأخي مجلسًا ما أحب أن لي به حُمر النَّعم، أقبلت أنا وأخي، وإذا مشيخة من صحابة رسول الله ﷺ جلوس عند باب من أبوابه، فكرهنا أن نفرق بينهم فجلسنا حَجَرة(٢) إذ ذكروا آية من القرآن فتماروا فيها حتى ارتفعت أصواتهم، فخرج رسول الله ﷺ مغضبًا قد احمر وجهه يرميهم بالتراب ويقول: «**مَهْلًا يا قَوْمُ، بِهَذَا أُهْلِكَتِ الأُمَمُ مِنْ قَبْلِكُمْ بِاخْتِلَافِهِمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ، وَضَرْبِهِمُ الْكُتُبَ بَعْضَهَا بِبَعْضٍ، إِنَّ الْقُرْآنَ لَمْ يَنْزِلْ يُكَذِّبُ بَعْضُهُ بَعْضًا بَلْ يُصَدِّقُ بَعْضُهُ بَعْضًا فَمَا عَرَفْتُمْ مِنْهُ فَاعْمَلُوا بِهِ، وَمَا جَهِلْتُمْ مِنْهُ فَرُدُّوهُ إِلَى عَالِمِهِ**»(٣).

وعن جندب بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**اقْرَءُوا الْقُرْآنَ مَا ائْتَلَفَتْ عَلَيْهِ قُلُوبُكُمْ، فَإِذَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ فَقُومُوا**»(٤).

وكان ﷺ في كثير من خطب الجمعة يكتفي بقراءة القرآن.. فعن أبي بن كعب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ قرأ يوم الجمعة براءة وهو قائم يُذكِّر بأيام الله(٥).

---

(١) رواه البخاري (٣/ ١٨١ برقم: ٢٦٨٥).

(٢) أي: على ناحية.

(٣) رواه أحمد في المسند (١١/ ٣٠٥ برقم: ٦٧٠٢) عن عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٤) رواه البخاري (٦/ ١٩٥ برقم: ٥٠٦٠)، ومسلم (٤/ ٢٠٥٣ برقم: ٢٦٦٧)، واللفظ له.

(٥) رواه عبد الله بن الإمام أحمد في زياداته على المسند (٣٥/ ٢٠٨ برقم: ٢١٢٨٧)، وصححه =

وعن أم هشام بنت حارثة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: ما أخذت ﴿قٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ﴾ [ق: ١] إلا عن لسان رسول الله ﷺ يقرؤها كل يوم جمعة على المنبر إذا خطب الناس(١).

وعن جابر بن سمرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «**كُنتُ أصلي مَع رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فكَانَت صلاتُه قَصدًا، وخُطبتُه قَصدًا**».

وفي رواية قال: «**كانت للنَّبي ﷺ خُطبتَان يجلس بينهما، يَقرأُ القُرآنَ، ويُذَكِّرُ النَّاسَ**»(٢).

لقد بلغ حرص الرسول ﷺ على القرآن أن جعله وصيته.

عن طلحة بن مصرف قال: قلت لعبد الله بن أبي أوفى: هل أوصى رسول الله ﷺ؟ فقال: لا. قلت: كيف كتب على المسلمين الوصية أو أمروا بالوصية؟ قال: «**أوْصَى بكتَابِ اللَّه**»(٣).

وكان دائم التحفيز لأصحابه أن يتعلموا آيات القرآن فكان يقول: «**أَيُّكُمْ يُحِبُّ أَنْ يَغْدُو كُلَّ يَوْمٍ إِلَى بُطْحَانَ، أَوْ إِلَى الْعَقِيقِ، فَيَأْتِي مِنْهُ بِنَاقَتَيْنِ كَوْمَاوَيْنِ(٤) فِي غَيْرِ إِثْمٍ، وَلَا قَطْعَ رَحِمٍ؟**»، فقلنا: يا رسول الله نحب ذلك، قال: «**أَفَلَا يَغْدُو أَحَدُكُمْ إِلَى الْمَسْجِدِ فَيَعْلَمُ، أَوْ يَقْرَأُ آيَتَيْنِ مِنْ كِتَابِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، خَيْرٌ لَهُ مِنْ نَاقَتَيْنِ، وَثَلَاثٌ خَيْرٌ لَهُ مِنْ ثَلَاثٍ، وَأَرْبَعٌ خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَرْبَعٍ، وَمِنْ أَعْدَادِهِنَّ مِنَ الإِبْلِ**»(٥).

= الضياء المقدسي في المختارة (٣/ ٣٤٤ برقم: ١١٣٩).

(١) رواه مسلم (٢/ ٥٩٥ برقم: ٨٧٣).

(٢) رواه مسلم (٢/ ٥٨٩، ٥٩١ برقم: ٨٦٢، ٨٦٦).

(٣) رواه البخاري (٤/ ٣ برقم: ٢٧٤٠)، ومسلم (٣/ ١٢٥٦برقم: ١٦٣٤).

(٤) كوماوين: الناقة الكوماء: عظيمة السنام.

(٥) رواه مسلم (١/ ٥٥٢ برقم: ٨٠٣).

وكان يحفزهم كذلك على تعليم غيرهم، فمن أقواله ﷺ: «**مَنْ عَلَّمَ آيَةً مِنْ كِتَابِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ كَانَ لَهُ ثَوَابُهَا مَا تُلِيَتْ**»(١).

الجزاء من جنس العمل

لقد اختص الله -جل شأنه- الأمة الإسلامية بأعظم نعمة، وأكمل وأتم رسالة، وأكبر معجزة؛ فقل لي بربك: أليس من المنطقي أن نتعامل معها بما يليق بقدرها؟!

أليس من الواجب والقرآن بهذا القدر أن نُقبل عليه بشغف واهتمام شديدين واحترام وتوقير عظيمين، وأن نهيئ أنفسنا للقائه، وأن نصغي لخطابه إصغاءً شديدًا، وأن نستمع إليه بهيئة التلقي للتنفيذ.

فإن كنا لا نفعل ذلك، ولا نقدره حق قدره، بل ولا عُشر معشار قدره، فما هي دلالة هذا التعامل؟ ألا يعكس عدم اهتمامنا به، وعدم احترامنا وتوقيرنا له؟!

ولكن هل ينتهي الأمر عند ذلك؟

للأسف لا، فالجزاء من جنس العمل: ﴿**فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ**﴾ [الصافات: ٨٧].

فلقد أكرم الله عَزَّوَجَلَّ هذه الأمة بأعظم معجزة، وأعظم رسالة، وتولى بنفسه حفظها، وأعلى شأنها: ﴿**إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ**﴾ [الحجر: ٩]، فإن لم يتعامل المسلمون مع القرآن بما يستحق؛ كان العقاب الفوري منه سبحانه بإبعادنا عن دائرة تأثير معجزته وعن الانتفاع بها، وبصرف روح القرآن عن ألفاظه عندما نقرؤها أو نستمع إليها، فتصير كالجسد بعد خروج الروح منه.

وكلما تمادينا في عدم احترام القرآن وتوقيره زادت العقوبة، وتباعدت المسافة

---

(١) ذكره المتقي الهندي في كنز العمال (١٠/ ١٧١)، جمع الجوامع المعروف بـ «الجامع الكبير» (٩/ ٥٥٢).

بيننا وبينه، وهكذا، فالقرآن كتاب عزيز، يعامل الناس بقدر تعاملهم معه، فهو يُغلق منافذ أنواره وفيوضاته أمام المعرض عنه، والمستهين به.

.. نعم، هناك فارق كبير بين من يعرض عن القرآن غفلة وتكاسلًا، وبين من يعرض عنه استهانة وتكذيبًا، ولكن لأن النتيجة في الحالتين واحدة، وهي عدم الانتفاع بالآيات فإنه لا ينبغي لأحد أن يأمن على نفسه العقوبات التي توعد بها الله جل شأنه أولئك المعرضين عن كتابه.

وهناك العديد من الآيات القرآنية التي تقرر هذا المعنى:

منها قوله تعالى: ﴿ **وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ۚ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا** ﴾ [الكهف: ٥٧].

فالآية تخبرنا بأنه من ذُكِّر بآيات ربه فأعرض عن تنفيذ مقتضى هذه التذكرة ولم يتخذ خطوات عملية للقيام بها؛ فإن الجزاء سيكون حجابًا على قلبه ووقرًا وثقلًا في أذنه يمنعه من فهم الآيات بعد ذلك.

ويؤكد هذا المعنى قوله تعالى: ﴿ **وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا (٤٥) وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا** ﴾ [الإسراء: ٤٥، ٤٦].

ثم تذكر الآية التالية لهذه الآية السبب في هذه العقوبة -عقوبة عدم فهم الآيات- ﴿ **نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِۦٓ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ** ﴾ [الإسراء: ٤٧].

أي كانوا يستمعون دون اهتمام: ﴿ **وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ** ﴾ بل كانوا يتناجون فيما بينهم ويتركون الإنصات للخطاب القرآني فكان الجزاء: ﴿ **وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا** ﴾ [الإسراء: ٤٦].

قال السري لأصحابه: «أتدرون ما هذا الحجاب؟ حجاب الغيرة، ولا أحد أغير من الله»[١].

وقال: «لمَّا أعرضَ الناسُ عن سماعِ القرآن حُرِموا الانتفاع به».

وقال قتادة: «الحجاب المستور أكنَّة على قلوبهم أن يفقهوه، وأن ينتفعوا به، أطاعوا الشيطان فاستحوذ عليهم»[٢].

وقال البقاعي في نظم الدرر: وقرًا: أي ثقلًا، فهم لا يسمعون حق السمع، ولا يعون حق الوعي[٣].

وفي سورة التوبة قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ نَّظَرَ بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٍ هَلۡ يَرَىٰكُم مِّنۡ أَحَدٖ ثُمَّ ٱنصَرَفُواْۚ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَفۡقَهُونَ﴾[التوبة: ١٢٧].

فهؤلاء الذين ذكرتهم الآية عندما لم يهتموا بالقرآن، ولم ينتبهوا له، ولم يعطوه سمعهم، وكان كل همهم الانصراف دون أن يراهم أحد؛ كانت العقوبة: صرف الله قلوبهم عن فهم القرآن.

ويتضح هذا المعنى أكثر وأكثر في قوله تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٞ وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارٗا﴾[الإسراء: ٨٢].

فالظلم هو وضع الشيء في غير مكانه، فعندما لا يقوم القارئ أو المستمع للقرآن بالتعامل معه بالطريقة اللائقة به فإن الجزاء من جنس العمل، وسيزداد خسرانًا.. قال قتادة: ما جالس أحد القرآن إلا قام بزيادة أو نقصان قضاء قضاه الله عَزَّوَجَلَّ[٤].

---

(١) مدارج السالكين (٣/ ٤٣).

(٢) تفسير الطبري (١٧/ ٤٥٧).

(٣) نظم الدرر للبقاعي (٤/ ٤٨٣).

(٤) تفسير القرطبي (١٠/ ٣٢١).

لا فرق في ذلك بين مُكذِّب كافرٍ به، وبين غافلٍ مُعرض عنه، كما يقول ابن باديس رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «نزول الآيات في الكافرين، لا يمنع من تطبيقها على من شاركهم في مثل الحال الذي أنكرته عليهم من المؤمنين، لأن الوصف المذموم مذموم، سواء أكان المتصف به مؤمنًا أم كان كافرًا. فالذين تتلى عليهم الآيات القرآنية، والأحاديث النبوية، وتوضح لهم الدلائل الشرعية، وهم لها معرضون، وعن تدبرها غافلون، وبها يتهاونون، يزدادون بكل مرة إثمًا بإعراضهم وغفلتهم وتهاونهم، فيخسرون بقدر ما يفوتهم من الهداية على حسب حالتهم، وإذا لم يكن كخسار الكافرين، فهو كخسار المعرضين، الغافلين، المتهاونين، وكفى به خسارًا يتنزه عنه المؤمنون ويأباه الكافرون»[١].

فالقرآن جعله الله عَزَّوَجَلَّ سببًا لزيادة الإيمان، والشفاء والهداية وتغيير من يُحسن الإقبال عليه، وجعله الله كذلك سببًا لعقاب من يعامله بجفاء وعدم احترام وتوقير؛ بالذلة والهوان وقسوة القلب.

وفي سورة الأعراف قوله تعالى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُواْ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٤٦].

قال سفيان بن عيينة: أنزِعُ عنهم فهمَ القرآن، وأصرفُهم عن آياتي[٢].

وقال: أحرمُهم فهمَ القرآن.

وقال ابن كثير في تفسيره لهذه الآية: أي سأمنع فهم الحجج الدالة على عظمتي

---

(١) تفسير ابن باديس (ص: ١٤٦).

(٢) تفسير الطبري (١٣/ ١١٢)، وابن أبي حاتم (٥/ ١٥٦٧)، والرواية التي بعدها: ذكرها الثعلبي في تفسيره (١/ ٩١٨).

وشريعتي وأحكامي قلوب المتكبرين عن طاعتي ويتكبرون على الناس بغير حق، أي كما استكبروا بغير حق أذلهم الله بالجهل كما قال تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام: ١١٠]، وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾(١) [الصف: ٥].

ويقول صاحب «معارج التفكر ودقائق التدبر» في تفسير قوله تعالى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ [الأعراف: ١٤٦].

هذه العبارة تدل على سنة من سنن الله الدائمة في عباده، وهي إحدى أنظمة التكوين للنفس الإنسانية.

أي سأحوِّل وأرد عن إدراك آياتي، أو عن الاستجابة لما توجه له، الذين يتكبرون متعاظمين على نظرائهم من خلق الله تكبرًا بدوافع نفسية باطلة(٢).

وفي سورة فصلت قوله تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ءَا۬عْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا هُدًى وَشِفَآءٌ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٤].

فالقرآن للذين آمنوا به وتعاملوا معه تعاملًا صحيحًا: هدى وشفاء، أما من لم يتعامل معه بالتقدير والمهابة فسيكون عليه كما يكون للأعجمي.. لا يفهم منه شيئًا، وسيشعر عند استماعه وكأنه يناديه من مكان بعيد بسبب الوقر الذي في أذنيه.

يقول السعدي في تفسيره: والمقصود أن الذين لا يؤمنون بالقرآن؛ لا ينتفعون بهداه، ولا يبصرون بنوره، ولا يستفيدون منه خيرًا، لأنهم سدوا على أنفسهم أبواب الهدى(٣).

(١) تفسير ابن كثير (٢/ ٢٢٨).

(٢) معارج التفكر ودقائق التدبر لعبد الرحمن حسن حبنكة (٤/ ٥٥٣).

(٣) تيسير الكريم الرحمن (ص: ٧٥١).

فإن قلت: ولكننا جميعًا نؤمن بالقرآن، ومن ثم فلسنا المعنيين بهذه الآية، فهي موجهة لمن لا يؤمنون بالقرآن!!

جاء الجواب: إن الإيمان بالقرآن درجات، فالكثير من المسلمين يؤمن ويصدق بأنه الكتاب المنزل من عند الله على محمد ﷺ، المتعبَّد بتلاوته، لكنهم لا يؤمنون بقدْرِه الحقيقي، وأنه القادر بإذن الله على تغيير المرء تغييرًا جذريًا ليكون من بعده صالحًا مصلحًا، هاديًا مهديًا، ولو كانوا كذلك لانكبوا عليه وتفرغوا له، ليهتدوا بهديه، ويستشفوا بشفائه، بإذن الله.

..هذا الإيمان المحدود يحرم صاحبه من هداية وشفاء القرآن، ويقربه من المخاطبين بهذه الآية.

ولعلنا بذلك ندرك معنى قول الإمام البخاري في قوله تعالى ﴿ لَّا يَمَسُّهُۥٓ ﴾: لا يجدُ طعمَه ونفعَه إلا مَن آمن بالقرآن[١].

وقول مالك بن دينار: أقسم لكم، لا يؤمن عبد بهذا القرآن إلا صدع قلبه[٢].

حبُّ الدنيا وتركُ الجهاد مِن أسبابِ الحرمان من القرآن

ولئن كان عدم الإيمان بالقدر الحقيقي للقرآن سببًا محوريًا يستدعي الحرمان من أنواره، وهدايته، وشفائه بإذن الله؛ فإن حب الدنيا واستبدال الإيمان بها بالإيمان بالآخرة -أيضًا- من أهم أسباب استدعاء عقوبة الحرمان من القرآن...

فبقدر ما ينشغل قلب المرء بالدنيا يضعف إيمانه بالآخرة حتى يجعل الله بينه وبين القرآن حجابًا مستورًا...

---

(١) صحيح البخاري (٩/ ١٥٥) في كتاب التوحيد باب قل فأتوا بالتوراة فاتلوها.

(٢) الدر المنثور للسيوطي (٦/ ٢٩٨).

حجابًا يحرمه نور القرآن وأثره المزلزل.

﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴾ [الإسراء: ٤٥].

.. نعم، قد يقرأ آيات القرآن ويفهمها ويتأثر بألفاظها لكنه لا ينتفع بها، ولا يحدث له التغيير المرجو منها كما حدث مع جيل الصحابة رضوان الله عليهم...

ومما يؤكد هذا المعنى أننا نجد أكثر من آية في القرآن تربط بين الإيمان الحق بالقرآن وحُسن الانتفاع به، وبين الإيمان بالآخرة: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴾ [الأنعام: ٩٢].

وكذلك فإن ترك الجهاد سبب آخر يستدعي تلك العقوبات.

ومن الآيات التي تشير إلى هذا المعنى قوله تعالى:

﴿ وَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَجَٰهِدُوا۟ مَعَ رَسُولِهِ ٱسْتَـْٔذَنَكَ أُو۟لُوا۟ ٱلطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا۟ ذَرْنَا نَكُن مَّعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴿٨٦﴾ رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٨٧﴾ ﴾ [التوبة: ٨٦، ٨٧].

فالله عَزَّوَجَلَّ أمر عباده أن ينصروه على عدوه وعدوهم، ووعدهم إن فعلوا ذلك أن ينصرهم ويكرمهم: ﴿ لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ جَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾ [التوبة: ٨٨].

وإن لم يفعلوا؛ غضب عليهم، وعاقبهم، ومن صور هذا العقاب: الحرمان من فهم القرآن... ﴿وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٨٧﴾ ﴾ [التوبة: ٨٧].

وفي السُّنة

تؤكد السُّنة في العديد من أحاديث النبي ﷺ على أن الله عَزَّوَجَلَّ يجازي الناس على قدر علاقتهم بالقرآن، فالجزاء من جنس العمل.

يقول رسول الله ﷺ: «**اقْرَؤُوا سُورَةَ الْبَقَرَةِ، فَإِنَّ أَخْذَهَا بَرَكَةٌ، وَتَرْكَهَا حَسْرَةٌ**»(١).

ويقول ﷺ: «**الطُّهُورُ شَطْرُ الإِيمَانِ، وَالْحَمْدُ للهِ تَمْلَأُ الْمِيزَانَ، وَسُبْحَانَ اللهِ وَالْحَمْدُ للهِ تَمْلآنِ أَوْ تَمْلَأُ مَا بَيْنَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ، وَالصَّلَاةُ نُورٌ، وَالصَّدَقَةُ بُرْهَانٌ، وَالصَّبْرُ ضِيَاءٌ، وَالْقُرْآنُ حُجَّةٌ لَكَ أَوْ عَلَيْكَ..**»(٢).

فالقرآن إما أن يُحاجّ عن المرء أمام الله عَزَّوَجَلَّ، فيشهد له، وإما أن يكون خصمه فيشهد عليه.. قال ﷺ: «**الْقُرْآنُ مُشَفَّعٌ، وَمَاحِلٌ (٣) مُصَدَّقٌ، مَنْ جَعَلَهُ إِمَامَهُ قَادَهُ إِلَى الْجَنَّةِ، وَمَنْ جَعَلَهُ خَلْفَ ظَهْرِهِ سَاقَهُ إِلَى النَّارِ**»(٤).

وفي هذا المعنى يقول أبو موسى الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ للقرَّاء:

«إِنَّ هَذا القُرْآنَ كائِنٌ لَكَمْ ذِكْرى، وكائِنٌ لَكَمْ أَجْرًا، أَوْ كانَ عَلَيْكُمْ وِزْرًا، فاتَّبِعُوا القُرْآنَ، ولا يَتَّبِعْكُمُ القُرْآنُ، فَإِنَّهُ مَن يَتَّبِعِ القُرْآنَ يَهْبِطْ بِهِ عَلَى رِياضِ الجَنَّةِ، وَمَن يَتَّبِعْهُ القُرْآنُ يَزُخُّ فِي قَفَاهُ فَيَقْذِفُهُ فِي جَهَنَّمَ»(٥).

---

(١) رواه مسلم (١/ ٥٥٣ برقم: ٨٠٤).

(٢) رواه مسلم (١/ ٢٠٣ برقم: ٢٢٣).

(٣) ماحل: قال ابن الأثير: أي خَصْم مُجادل مُصدَّق.

(٤) رواه ابن حبان في صحيحه (١/ ٣٣١ برقم: ١٢٤).

(٥) رواه ابن أبي شيبة في المصنف (٦/ ١٢٦ برقم: ٣٠٠١٤).

وقال ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «يَجِيءُ الْقُرْآنُ يَوْمَ القِيامَةِ فَيَشْفَعُ لِصَاحِبِهِ فَيَكُونُ قائِدًا إلى الجَنَّةِ، ويَشْهَدُ عَلَيْهِ؛ فَيَكُونُ سائِقًا لَهُ إلى النَّارِ»(١).

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: سمعت رسول الله ﷺ قال: **«يُمَثَّلُ القُرْآنُ يَوْمَ القِيامَةِ رَجُلًا، فَيُؤْتى بِالرَّجُلِ قَدْ حَمَلَهُ فَخالَفَ أَمْرَهُ، فَيَتَمَثَّلُ خَصْمًا لَهُ فَيَقُولُ: يا رَبِّ حَمَّلْتَهُ إِيَّايَ فَشَرُّ حامِلٍ تَعَدَّى حُدُودِي، وضَيَّعَ فَرائِضِي، ورَكِبَ مَعْصِيَتِي، وتَرَكَ طاعَتِي، فَما يَزالُ يَقْذِفُ عَلَيْهِ بِالحُجَجِ حَتَّى يُقالَ: فَشَأْنُكَ بِهِ فَيَأْخُذُ بِيَدِهِ، فَما يُرْسِلُهُ حَتَّى يَكُبَّهُ عَلى مَنخِرِهِ فِي النَّارِ، ويُؤْتى بِرَجُلٍ صالِحٍ قَدْ كانَ حَمَلَهُ، وحَفِظَ أَمْرَهُ، فَيَتَمَثَّلُ خَصْمًا لَهُ دُونَهُ فَيَقُولُ: يا رَبِّ حَمَّلْتَهُ إِيَّايَ فَخَيْرُ حامِلٍ، حَفِظَ حُدُودِي، وعَمِلَ بِفَرائِضِي، واجْتَنَبَ مَعْصِيَتِي، واتَّبَعَ طاعَتِي، فَما يَزالُ يَقْذِفُ لَهُ بِالحُجَجِ حَتَّى يُقالَ: شَأْنُكَ بِهِ، فَيَأْخُذُ بِيَدِهِ فَما يُرْسِلُهُ حَتَّى يُلْبِسَهُ حُلَّةَ الإِسْتَبْرَقِ، ويَعْقِدَ عَلَيْهِ تاجَ المُلْكِ، ويَسْقِيَهُ كَأْسَ الخَمْرِ»**(٢).

ويخبرنا الرسول ﷺ عن الأثر الذي يتركه القرآن فيمن يتعامل معه، فإما أن يرفعه -إن أحسن التعامل معه- وإما أن يَخفضه إن حدث العكس.. يقول ﷺ: **«إِنَّ اللَّهَ يَرْفَعُ بِهَذَا الْكِتابِ أَقْوامًا، وَيَضَعُ بِهِ آخَرِينَ»**(٣).

ويوصينا ﷺ بتعاهد القرآن وعدم هجره حتى لا يذهب ويبتعد عنا.. قال ﷺ: **«تَعاهَدُوا الْقُرْآنَ، فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَهُوَ أَشَدُّ تَفَصِّيًا مِنَ الإِبِلِ فِي عُقُلِها»**(٤).

---

(١) رواه الدارمي (٤/ ٢٠٩٤ برقم: ٣٣٦٨)، وابن أبي شيبة في المصنف (٦/ ١٣١ برقم: ٣٠٠٥٣).

(٢) رواه ابن أبي شيبة في المصنف (٦/ ١٢٩ برقم: ٣٠٠٤٤)، وحسنه ابن حجر في المطالب العالية (١٤/ ٣٨٢).

(٣) رواه مسلم (١/ ٥٥٩ برقم: ٨١٧).

(٤) رواه البخاري (٦/ ١٩٣ برقم: ٥٠٣٣)، ومسلم (١/ ٥٤٥ برقم: ٧٩١) عن أبي موسى الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وتفصِّيًا: أي ذهابًا وابتعادًا، وعقلها: العقال هو الحبل الذي تُربط به الدَّابَّة.

إن القرآن الكريم -كما يقول عبد الكريم الخطيب- لا يُقبل إلا على من يُقبل عليه، ولا يمنح خيره وبركته إلا لمن يعرف قدره، ويطرق بابه في أدب وولاء وخشوع(١).

وعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أن رسول الله ﷺ قام يصلي في ليلة من الليالي.. فلم يزل يبكي حتى بل حجره قالت ثم بكى فلم يزل يبكي حتى بل لحيته قالت ثم بكى فلم يزل يبكي حتى بل الأرض فجاء بلال يؤذنه بالصلاة فلما رآه يبكي قال يا رسول الله لم تبكي وقد غفر الله لك ما تقدم وما تأخر قال: «**أَفَلَا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا لَقَدْ نَزَلَتْ عَلَيَّ اللَّيْلَةَ آيَةٌ وَيْلٌ لِمَنْ قَرَأَهَا وَلَمْ يَتَفَكَرْ فِيهَا: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَأَيَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾**»(٢) [آل عمران: ١٩٠].

فإن كنت أخي القارئ لا تزال في شك من عقاب الله عَزَّوَجَلَّ لنا ولأمتنا كلما تعاملنا مع القرآن تعاملًا خاطئًا، ولم نقدره حق قدره؛ فاقرأ معي الأسطر القادمة.

---

(١) نقلًا عن مقالات الإسلاميين في رمضان لمحمد موسى الشريف (ص: ٤٤٤).

(٢) رواه ابن حبان في صحيحه (٢/ ٣٨٦ برقم: ٦٢٠).

أليست آياتُ القرآنِ من آياتِ الله؟

أمرنا الله عَزَّوَجَلَّ أن نعبده: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

وأن تكون هذه العبادة بالغيب: ﴿مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ﴾ [ق: ٣٣].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ [الملك: ١٢].

ولصعوبة ذلك، فلقد أرسل عَزَّوَجَلَّ لنا علامات ودلائل تدل عليه سبحانه وتعرفنا به، ونستدل من خلالها على أسمائه وصفاته وعلى ما وعد به في الآخرة.

هذه العلامات والدلائل التي تدل على الله تُسمى آيات وتملأ الكون كله، فالسماء والأرض وما فيهن، وتعاقب الليل والنهار، وأحداث الحياة كلها تدل على الله عَزَّوَجَلَّ، وهو سبحانه يريد منا حُسن التعامل معها، والتفكر فيها، والاعتبار من وجودها: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾﴾ [البقرة: ١٦٤].

فالآيات لها وظيفة مهمة وخطيرة في إنشاء وبناء الإيمان بالله عَزَّوَجَلَّ، ولقد ذمّ سبحانه من أعرض عن آياته، وظلم بها، بأن يضعها في غير موضعها، سواء كان هذا الإعراض منشؤه التكذيب، أو الغفلة، وبلا شك فإن هناك فارقًا كبيرًا بين الغافل المتكاسل وبين المكذب المستهزئ، ولكن لأن النتيجة المترتبة عليهما واحدة،

وهي عدم الانتفاع بالآيات؛ فقد شملهما الذم، ونطمع في رحمة الله بألا يتساويا في درجة العقوبة.

وإليك -أخي القارئ- بعض الآيات القرآنية التي تؤكد ذلك:

يقول تعالى: ﴿فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٣٦﴾﴾ [الأعراف: ١٣٦].

فالتكذيب والغفلة يؤديان للإعراض وعدم الانتفاع بالآيات، ومِن ثَم يكون ذلك سببًا لاستدعاء العقوبة الإلهية.

ويقول جل شأنه: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِىَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلْغَىِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٤٦﴾﴾ [الأعراف: ١٤٦].

فالغفلة عن آيات الله خطيرة؛ لأنها تؤدي بالشخص لنفس نتيجة التكذيب، ألا وهي الظلم بالآيات.

إن الظلم الذي يقع بآيات الله إنما يكون بعدم الانتفاع بها، فيؤدي ذلك إلى وضعها في غير موضعها الذي أراده الله لها، مما يستدعي العقوبة الإلهية.

تأمل قوله تعالى: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ﴿٤٦﴾﴾ [الأنعام: ٤٦]، ويصدفون: أي يعرضون.

ثم اربط هذه الآية بقوله تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا ۗ سَنَجْزِى ٱلَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ ءَايَٰتِنَا سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْدِفُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [الأنعام: ١٥٧].

فالآية الأخيرة تخبرنا بأنه لا يوجد ظلم يُضاهي التكذيب بآيات الله والإعراض عنها، وأن جزاء المعرض عن آيات الله لا بد وأن يكون متناسبًا مع هذا الإعراض.

إن الظلم بالآيات شديد عند الله.. تأمل معي هذا التهديد الرهيب:

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ (٢٢)﴾ [السجدة: ٢٢].

العتاب الإلهي

إن الآيات التي يرسلها الله لعباده لا تعد ولا تُحصى، كل ذلك ليتعرفوا عليه سبحانه فيعبدوه ويوقروه ويسبحوه بكرة وأصيلًا، ولكن الناس لم تتعامل مع الآيات بما ينبغي لهم أن يتعاملوا به، فأعرضوا عنها إما بسبب الغفلة -وهو السبب الغالب- أو بالتكذيب، فكان العتاب الإلهي من الرب العظيم الذي لا يريد لعباده إلا الخير.

.. يريد منهم أن يعرفوه فيعبدوه فيدخلهم الجنة، ولكنهم أعرضوا عنه وعن آياته، يقول سبحانه معاتبًا عباده:

﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ آيَةٍ مِّنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ [الأنعام: ٤].

﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ﴾ [يونس: ٩٢].

﴿وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ [يوسف: ١٠٥].

الخسارة العظيمة والعقوبات المتوقعة

إن الخسارة التي يخسرها العبد نتيجة عدم انتفاعه بآيات الله شديدة، فلئن كان أشد الظلم هو الظلم بالآيات، فمن المتوقع أن تكون أشد الخسارة، وأشد العقوبة

على من يقع في ذلك: ﴿ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾ ﴾ [الأعراف: ٩].

﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ۚ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٢٧﴾ ﴾

[طه: ١٢٤- ١٢٦].

فإن كان الأمر كذلك فلا ينبغي علينا أن نستغرب أي عقوبة تقع على من يظلم بآيات الله وذلك حين لا يتم الانتفاع بها على الوجه الذي أراده الله لها.

أليست آيات القرآن هي آيات الله أيضًا؟

فإن كان التعامل غير الصحيح مع آيات الله له خطورته وعواقبه الوخيمة، فلماذا نستثني القرآن من ذلك؟

أليست آيات القرآن أيضًا هي آيات الله؟ ومِن ثَمَّ ينطبق عليها ما ينطبق على الآيات الكونية، ويجري على من يُسيء التعامل معها مثل ما يجري على من يفعل الشيء نفسه مع الآيات الكونية؟

لنترك القرآن العظيم يجيب عن هذا التساؤل:

يقول تعالى:

﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ ﴾

[الحديد: ٩].

﴿ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ ﴾ [آل عمران: ١٠١].

﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [الجمعة: ٢].

﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا ﴾ [الأنفال: ٢].

فالقرآن يحتوي على آيات الله وينطبق عليه كل ما قيل آنفًا من ضرورة الانتفاع بها، وذم من يغفل ويُعرض عنها، وينطبق عليه كذلك العقوبات المتوقعة لمن يظلم بآياته.

ومما يؤكد هذا المعنى قوله تعالى: ﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا ۚ بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٥ ﴾ [الجمعة: ٥].

فالآية تخبرنا بأن الذي يُحمَّل كتاب الله ثم لم يحمله على حقيقته، كمثل الحمار يحمل أسفارًا، فالحمار يستوي عنده أن يحمل كُتبًا تحوي علومًا مهمة، أو أن يحمل تِبنًا وعلفًا، فهو لا يدري -في الحالتين- ماذا يحمل.

وفي المقابل نجد في الآيات التي ذكرت صفات عباد الرحمن أنهم: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّواْ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ۝٧٣ ﴾ [الفرقان: ٧٣].

فلا بد من التعامل الصحيح مع آيات القرآن وإلا كانت العقوبات الإلهية في انتظارنا، والتي -للأسف- وقع علينا الكثير منها.

كتب حذيفة المرعشي إلى أخيه يوسف بن أسباط: بلغني أنك بعت دينك بحبتين، وقفت على صاحب لبن فقلت: بكم هذا؟ فقال: هو لك بسدس، فقلت: لا،

بثُمن، فقال: هو لك، وكان يعرفك.. اكشف عن رأسك قناع الغافلين، وانتبه من رقدة الموتى، واعلم أنه من قرأ القرآن ثم آثر الدنيا؛ لم آمن أن يكون بآيات الله من المستهزئين(١).

آياتُ القرآنِ هي أعظمُ آياتِ الله

إن آيات القرآن العظيم ليست فقط جزءًا من آيات الله التي أتاحها لعباده كي يعرفوه ويعبدوه؛ بل هي أعظم آيات الله شأنًا وقدرًا، ويؤكد هذا الأمر قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾﴾ [العنكبوت: ٥٠، ٥١].

وقوله: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا يَأْتِينَا بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّهِۦٓ ۚ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٣٣﴾﴾ [طه: ١٣٣].

معنى ذلك أن العقوبات التي توقع على من يظلم بآيات الله بصفة عامة ستكون أشد على من يفعل ذلك مع القرآن لعلو شأنه وعظم آياته: ﴿أَوْ تَقُولُوا۟ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ ۚ فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ ۚ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا ۗ سَنَجْزِى ٱلَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ ءَايَٰتِنَا سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْدِفُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [الأنعام: ١٥٧].

جاء في تفسير «أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن» للشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ عند قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ۚ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ [الكهف: ٥٧]:

---

(١) أخلاق حملة القرآن للآجري (ص: ٣٩).

ذكر جَلَّوَعَلَا في هذه الآية الكريمة: أنه لا أحد أظلم، أي: أكثر ظلمًا لنفسه ممن ذُكر، أي: وُعظ بآيات ربه، وهي هذا القرآن العظيم، فأعرض عنها أي: تولى وصد عنها.

ويستطرد قائلاً: وفي مواضع أخرى من القرآن بيان أشياء من النتائج السيئة، والعواقب الوخيمة الناشئة من الإعراض عن التذكرة.

فمن نتائجه السيئة: ما ذكرناه هنا من أن صاحبه من أعظم الناس ظلمًا.

ومن نتائجه السيئة: جعل الأكنة على القلوب حتى لا تفقه الحق، وعدم الاهتداء أبدًا، كما قال سبحانه هنا مُبينًا بعض ما ينشأ من العواقب السيئة: ﴿**إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۖ وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا ﴿٥٧﴾**﴾ [الكهف: ٥٧].

ومنها: انتقام الله جَلَّوَعَلَا من المُعرض عن التذكرة، كما قال تعالى: ﴿**وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ ۚ إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ**﴾ [السجدة: ٢٢].

ومنها: كون المعرض كالحمار كما قال تعالى: ﴿**فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴿٥٠﴾**﴾ [المدثر: ٤٩، ٥٠].

ومنها: الإنذار بصاعقة مثل صاعقة عاد وثمود كما قال تعالى: ﴿**فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾**﴾ [فصلت: ١٣].

ومنها: سلكه العذاب الصعد كما قال تعالى: ﴿**وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ﴿١٧﴾**﴾ [الجن: ١٧].

ومنها: تقييض القرناء من الشياطين، كما قال تعالى: ﴿**وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾**﴾ [الزخرف: ٣٦].

إلى غير ذلك من النتائج السيئة، والعواقب الوخيمة الناشئة عن الإعراض عن التذكير بآيات الله جَلَّ وَعَلَا[(١)].

اختبار عملي وكاشف لعقوبة عدم الانتفاع بالآيات

لعلك -أخي القارئ- لا تزال تُسقط هذا الكلام على أناس آخرين، وتعتبر أننا في منأى عن هذه العقوبات، على اعتبار أننا لا نكذب بآيات الله بل نغفل عنها -غالبًا- والفارق كبير بين الحالتين!!

..نعم، هناك فارق كبير بين الحالتين، ونأمل في سعة رحمة الله ألا يعاملنا كالمكذبين؛ ولكنَّ هذا لا ينفي أن هناك عقوبات متوقعة للغافلين قد تكون مختلفة في درجاتها وشدتها عن المكذبين، لكنها تؤدي في النهاية إلى عدم الانتفاع بآيات الله.

ولك أن تتأكد -مثلما تأكدت- من أننا نُعاقَب بالحرمان من الانتفاع بآيات الله، بأن تراقب حالك وقت حدوث الكسوف والخسوف للشمس والقمر، فهما آيتان يرسلهما الله لنا ليخوفنا بهما، كما قال ﷺ: «**إِنَّ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ آيَتَانِ مِنْ آيَاتِ اللهِ، يُخَوِّفُ اللهُ بِهِمَا عِبَادَهُ، وَإِنَّهُمَا لَا يَنْكَسِفَانِ لِمَوْتِ أَحَدٍ مِنَ النَّاسِ، فَإِذَا رَأَيْتُمْ مِنْهَا شَيْئًا فَصَلُّوا، وَادْعُوا اللهَ حَتَّى يُكْشَفَ مَا بِكُمْ**»[(٢)].

هل بالفعل تشعر -أخي- بالخوف الحقيقي عندما يحدث الكسوف أو الخسوف؟! أم أن أقصى ما تفعله هو الذهاب إلى الصلاة من باب إحياء السنة.

.. وعلينا كذلك مراقبة أحوالنا عند هبوب الريح، هل نفعل مثلما كان يفعل

---

(١) أضواء البيان للشنقيطي (٣/ ٤٠٩).

(٢) رواه البخاري (٢/ ٣٤ برقم: ١٠٤١)، ومسلم (٢/ ٦٢٨ برقم: ٩١١) واللفظ له.

رسول الله ﷺ وصحابته من أفعال تعكس خوفهم من احتمالية أن يكون ذلك مقدمة عذاب يصيبهم؟!

كان رسول الله ﷺ إذا كان يوم الريح والغيم، عُرف ذلك في وجهه، وأقبل وأدبر، فإذا مطرت سُر به، وذهب عنه ذلك، قالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: فسألته، فقال: «**إِنِّي خَشِيتُ أَنْ يَكُونَ عَذَابًا سُلِّطَ عَلَى أُمَّتِي**»(١).

وعن عبيد الله بن أبي النضر قال: حدثني أبي أنها كانت ظلمة على عهد أنس، حتى كان النهار مثل الليل، قال: فأتيته بعدما انجلت، فقلت: يا أبا حمزة، هل كان يصيبكم هذا على عهد رسول الله ﷺ؟ قال: معاذ الله! إن كانت الريح لتشتد، فنبتدر إلى المسجد أينا يدخله أولاً(٢).

.. إننا -أخي- محرومون من الانتفاع بآيات الله بسبب غفلتنا عنها، أما بخصوص القرآن -ذلك الكتاب العظيم الذي يحوي أعظم آيات الله- فإننا نُعاقَب كذلك بعدم الانتفاع الحقيقي به وذلك من خلال تخفيفه في قلوبنا وعلى ألسنتنا.. وهذا ما سنتعرف عليه -بعون الله- في الصفحات القادمة.

---

(١) رواه البخاري (٤/ ١٠٩ برقم: ٣٢٠٦)، ومسلم (٢/ ٦١٦ برقم: ٨٩٩) واللفظ له.
(٢) شعب الإيمان للبيهقي (٢/ ٣١٢ برقم: ٩٦٥).

الفصل الثالث

صور وأشكال العقوبات

صور وأشكال العقوبة

قد يقرأ الكثيرون الكلام السابق ولا يتفاعلون معه كما ينبغي، وسبب ذلك هو عدم الشعور بأن هناك مشكلة مع القرآن.. فالقرآن حاضر بحُفَّاظه ومصاحفه..

.. حاضر من خلال أصوات قرائه المنتشرة في الإذاعات والفضائيات..

.. حاضر في الحفلات والمناسبات..

.. حاضر في الكتاتيب ومدارس التحفيظ والكليات المتخصصة القائمة على شؤونه..

لكل هذا وغيره؛ فإنه من المتوقع ألا يتفاعل الكثيرون مع ما سبق، وهذا هو أخطر ما في الموضوع، فالشعور بالخطر هو وقود العزائم، وموقظ النائم، وما دمنا لا نستشعر بخطر تجاه عدم انتفاعنا بالقرآن، فلن تقوى عزائمنا أو تشتد رغبتنا في العودة إليه.

فما السبب في ذلك؟!

الجواب في الصفحات السابقة التي تحدثت عن العقوبات المتوقعة لكل من ظلم بآيات الله، أو بمعنى آخر: فإن عدم الشعور بالحرمان من القرآن -في حد ذاته- عقوبة من الله عَزَّوَجَلَّ.. سببها الرئيس هو تعاملنا الخاطئ مع آياته، وعدم اكتراثنا بذلك.

ولقد تواكب مع عقوبة عدم الشعور بالحرمان تجاه القرآن عقوبة أخرى غاية في الخطورة ألا وهي: عدم الإحساس بثقل القرآن: ﴿**إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا**﴾ [المزمل: ٥] أو بمعنى آخر: «**تخفيف القرآن**».

ونعني بتخفيف القرآن: أي تخفيف قدره وضَعْف هيبته في قلوبنا، ولقد تنبأ

بذلك رسول الله ﷺ فقال: «**سَيَخْرُجُ أَقْوَامٌ مِنْ أُمَّتِي يَشْرَبُونَ الْقُرْآنَ كَشُرْبِهِمُ اللَّبَنَ**»(١).

وعن عقبة بن عامر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ: «**سَيَخْرُجُ أَقْوَامٌ مِنْ أُمَّتِي يَشْرَبُونَ الْقُرْآنَ كَشُرْبِهِمُ الْمَاءَ**»(٢).

ويوضح المعنى كذلك قول عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «كنا صدر هذه الأمة، وكان الرجل من أصحاب رسول الله ﷺ ما معه إلا السورة من القرآن أو شبه ذلك، وكان القرآن ثقيلًا عليهم، ورُزِقوا العمل به، وإن آخر هذه الأمة **يُخفَّف عليهم القرآن** حتى يقرأه الصبي والأعجمي فلا يعملون به»(٣).

القول الثقيل

لقد قال الله عَزَّوَجَلَّ لرسوله ﷺ في شأن القرآن: ﴿**إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا**﴾ [المزمل: ٥].

فالقرآن ثقيل بما يحمل من روح من أمر الله، ومن قوة تأثيرية مُزلزلة، فهو ثقيل بأثره على القلب وبما تحمله كلماته من معان هادية.. ثقيل بما توجه إليه آياته من أعمال.

يقول عبد الرحمن حسن حبنكة -رَحِمَهُ اللَّهُ-: فالمعنى الذي ينبغي المصير إليه لثقل القول القرآني، هو غزارة معانيه، مع قلة ألفاظه، وثقل جواهر المعاني التي يشتمل عليها.. إن آية واحدة مؤلفة من بضع كلمات يُستخرج منها معانٍ يحتاج

---

(١) رواه الطبراني في الكبير (١٧/ ٢٩٧).

(٢) رواه الفريابي في فضائل القرآن (برقم: ١٠٩)، وله شاهد من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعًا عند الطبراني في الأوسط (١/ ٢٥١ برقم: ٨٢٥).

(٣) أخلاق حملة القرآن للآجري (برقم: ٣٢).

شرحها وبيانها مئات الكلمات، ويظل فيها وفر عظيم، وهذا من ثقلها... وقد وصف الله عَزَّوَجَلَّ السحاب المليء بما ينفع الناس من غيث بأنها سحاب ثِقال[١]، وكذلك آيات القرآن؛ تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها، فتخرج معاني جديدة في كل زمان ومكان، ولكل إنسان يتدبرها.. فهي غيث نافع يتفاوت قدر العباد في الاستفادة منه.

ولقد مر علينا كيف كان حاله ﷺ عند تلقيه الوحي، مما يدل على هذا الثقل، وعندما تعامل الجيل الأول مع القرآن على حقيقته؛ استشعروا ثقله.

يقول صاحب الظلال في هذا المعنى: إن لهذا القرآن لثقلًا وسلطانًا وأثرًا مُزلزِلًا لا يثبت له شيء يتلقاه بحقيقته، والذين أحسوا شيئًا من مَس القرآن في كيانهم يتذوقون هذه الحقيقة[٢].

وعندما لا يتم التعامل مع القرآن على هذا الأساس فإن العقوبة الخطيرة التي ستنال من يفعل ذلك هو نزع مهابته من قلبه، ومِن ثَم يتم التعامل معه على أنه كلام كغيره، فإذا ما تم التعامل معه على أنه يساوي في المهابة والتقدير والاحترام غيره من الكتب وكلام الآخرين؛ تتصاعد العقوبة وتكون في صورة تخفيفه على الألسنة والآذان، فيؤدي ذلك إلى قراءته بسرعة دون فهم ولا تفكر، ومن ثم تقِل وتَضْعُف هيبته في القلوب أكثر وأكثر.

.. إن من أهم ما يميز القرآن هو الروح التي يبثها في قارئه: ﴿**وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا**﴾ [الشورى: ٥٢].

هذه الروح هي من أهم أسباب ثِقَلِه وأثره المُزلزِل في كينونة الإنسان، ومن ثم

---

(١) معارج التفكر (١/ ١٦٣).

(٢) في ظلال القرآن (ص: ٣٥٣٢) بتصرف يسير.

يزداد الإيمان ويحدث التغيير بإذن الله.

فإذا ما ابتعدت الروح عن ألفاظ القرآن أصبحت تلك الألفاظ كغيرها من ألفاظ اللغة العربية، وفقدت تأثيرها المتفرد المزلزل، واقتصر هذا التأثير على وقع بلاغتها وأساليبها ونظمها وجرسها في نفس المستمع.

وابتعاد روح القرآن عن ألفاظه هي العقوبة المتوقعة لهجره، وترك التعامل الصحيح معه.. وتستمر العقوبات بعد ابتعاد الروح حتى تصبح الألفاظ الأخرى في الكتب والقصص والشعر أكثر أهمية وتقديرًا عند المرء من ألفاظ القرآن، وإنا لله وإنا إليه راجعون: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾ [نوح: ١٣].

معنى تخفيف القرآن

فالمقصد من تخفيف القرآن أي: تخفيف مهابته وقدره وقيمته من القلوب، فيدخل إليه الشخص وهو غير عابئ أو مهتم بالانتفاع به، لا يستشعر الحاجة إليه، فتكون العقوبة: أن يُفتح له القرآن أكثر، فتنساب ألفاظه سريعًا على لسانه دون انتفاع بها، وكلما قرأ القرآن بغير اهتمام زادت العقوبة، وهكذا حتى صار بيننا وبين القرآن بون كبير دون أن ندري.

هل فُتحَ القرآن؟

من الألفاظ التي وردت في أقوال الصحابة التي تعكس طريقة الحرمان من القرآن: لفظ «**فتح القرآن**»، والذي قد يكون قريبًا ومرادفًا للفظ «**تخفيف القرآن**»، يقول معاذ بن جبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أيها الناس ستكون فتن يكثر فيها المال، **ويُفتح فيها القرآن**، فيقرأه المؤمن والمنافق، والمرأة والرجل، والصغير والكبير».

قال يزيد بن عميرة: كان معاذ بن جبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لا يجلس مجلسًا للذكر حين

يجلس إلا قال: الله حكم قسط، هلك المرتابون، وقال يومًا: إن من ورائكم فتنًا، يكثر فيها المال، **ويُفتح فيها القرآن**، حتى يأخذه المؤمن والمنافق، والرجل والمرأة، والصغير والكبير، والعبد والحر، فيوشك قائل أن يقول: ما للناس لا يتَّبعوني وقد قرأتُ القرآن؟ ما هم بمتبعيَّ حتَّى أبتدعَ لهم غيرَه، فإيَّاكم وما ابتُدعَ، فإن ما ابتُدِعَ ضلالةٌ، وأُحذركم زيغةَ الحكيم، فإن الشيطان قد يقول كلمة الضلالة على لسان الحكيم، وقد يقول المنافقُ كلمةَ الحق، قال: قلت لمعاذ: ما يُدريني -يرحمك الله- أن الحكيمَ قد يقول كلمةَ الضلالةِ، وأن المنافقَ قد يقول كلمةَ الحق؟ قال: بلى، اجتَنِبْ من كلام الحكيم المُشتهِرَاتِ التي يُقال لها ما هذه، ولا يَثْنِيَنَّكَ ذلك عنه، فإنه لعله أن يُراجِعَ، وتَلَقَّ الحقَّ إذا سمعتَه فإن على الحقِّ نورًا[١].

.. إن للقرآن قدرًا عظيمًا، وينبغي أن يتم التعامل معه باحترام وهيبة وتقدير، فإن لم يحدث هذا تكون العقوبة بتخفيف قدره في النفوس، فتزول هيبته، ويفتح للجميع، فبعدما كان محاطًا بجلال الهيبة والروعة، وبعدما كان الدخول إليه يحتاج إلى استعداد وتهيئة.. ينعكس الحال، فيكون فتحه وهتك ستار هيبته وجلاله مدعاة لدخول أي فرد إليه، وبأي حال يكون عليها، غير عابئ به أو مدرك لقيمته، فيقرؤه كما يقرأ أي كلام آخر، فيكون ذلك سببًا لمزيد من التخفيف والفتح حتى يصبح غيره من الكلام أكثر قيمة وقدرًا منه في نفس القارئ وقلبه.

ولعلنا بذلك ندرك مغزى قول معاذ بن جبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وهو يتحدث عن فتح القرآن فيقرأه الرجل والمرأة، والمؤمن والمنافق، والصغير والكبير، فهو بذلك يشير إلى أن القرآن سيصبح سواء لجميع أصناف الناس، فلا فارق بين الصغير

(١) رواه أبو داود (٧/ ٢٠ برقم: ٤٦١١)، والحاكم في المستدرك (٤/ ٥٠٧ برقم: ٨٤٢٢) وقال: صحيح على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي.

الذي لا يعقل وبين الكبير، ولا فارق بين المنافق والمؤمن، فلقد فتحت ستر هيبته وإجلاله، ومن ثم فلن يجد أحد في نفسه بأسًا، إذا ما قرأه في أي وضع.

ونضرب لذلك مثالًا يقرب المعنى إلى الأذهان بإذن الله:

لو تخيلنا مديرًا لمدرسة (ما) له هيبة في نفوس جميع أفراد مدرسته من مدرسين وعمال وطلاب، وكان الكل يهابه ويقدره ويوقره، ولا يدخل عليه أحد بسهولة؛ بل لا بد من استئذان واستعداد خاص، ولو دخل هذا المدير قاعة من القاعات لصمت الجميع، ولو مر على جمع من الطلاب يلعبون لتوقفوا عن اللعب حتى ينصرف.

فإذا ما مرت عدة أعوام وعلمت بعدها أن الجميع يدخل عليه حجرته في أي وقت وبلا استئذان يستوي في ذلك الطالب صغير السن مع العامل مع المدرس مع الحارس.. يدخلون عليه دون إخباره ويجلسون في مكتبه، ويعبثون في محتوياته ويتركونه دون استئذانه.. وإذا علمت أنه إذا مر بجمع من الطلاب يلعبون فإنهم يستمرون في لعبهم غير عابئين بوجوده.. فماذا تشخص تلك الحالة؟ ألا توافقني أنها تعني سقوط هيبته في نفوسهم؟!! وهذا للأسف ما حدث للقرآن!!

قال أبو العالية:

لَيأتي على الناس زمان تخرب صدورهم من القرآن، وتبلى كما تبلى ثيابهم، وتهافت لا يجدون له حلاوة ولا لذاذة إن قصروا عما أمروا به قالوا: إن الله غفور رحيم، وإن عملوا بما نهوا عنه قالوا: سيغفر لنا إنا لم نشرك بالله شيئًا [1].

وكتب ميمون بن مهران إلى يونس بن عبيد قال: عليك بكتاب الله؛ فإن الناس

(١) رواه أحمد بن حنبل في الزهد (برقم: ١٧٤١)، وابن أبي الدنيا في العقوبات (برقم: ٣٤١) واللفظ له.

قد بَهُوا[(١)] به، واختاروا عليه الأحاديث: أحاديث الرجال[(٢)].

وكان ميمون بن مهران يقول: إن هذا القرآن قد أخلق في صدور كثير من الناس فالتَمَسُوا ما سواه من الأحاديث[(٣)].

وخلاصة القول: إننا جميعًا حين تهاونا في التعامل مع القرآن فلم نقدره حق قدره، ولم نهتم به، ولم نحترمه؛ كانت العقوبة الإلهية أن حُرمنا الانتفاع به، وكانت العقوبة الأشد والأخطر والتي تجعلنا لا نستشعر عقوبة حرمان الانتفاع به هي: **فتح القرآن.**

فلقد فُتح لنا القرآن، وأصبح قولًا خفيفًا على ألسنتنا غير محاط بالجلال والهيبة في قلوبنا، فتسابقنا لقراءته وحفظه، وأصبحت آياته تُبَثّ ليل نهار.. فظننا بذلك أننا من أهله، ومِن ثَم؛ فنحن لا نشعر بوجود أي مشكلة تجاهه، ولا نجد أي رغبة في التغيير الحقيقي لطريقة تعاملنا معه.

الفارق بين تخفيف القرآن وتيسيره للذكر

قد يسأل سائل أليست الانسيابية والسهولة والسرعة في قراءة القرآن دليلًا على تيسيره للذكر كما أخبرنا الله عَزَّوَجَلَّ بقوله: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ﴾؟!

[القمر: ١٧].

لا يا أخي؛ فإن تيسير القرآن للذكر تشمل معاني أخرى مثل أنه ميسر للقراءة في كل مكان وزمان، وأنه يخاطب كل المستويات في كل العصور، يخاطب الأمي

---

(١) بَهُوا به: أَنِسوا به حتى خرجت هيبته من قلوبهم، وخرج إعظامه منها.

(٢) رواه أبو عبيد القاسم بن سلام في فضائل القرآن (ص: ٧٩).

(٣) جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر (٢/ ١٢٠٣).

والعالم، والرجل والمرأة، والشاب والشيخ.

ومعناه كذلك أن من رحمة الله عَزَّوَجَلَّ بعباده أن يسر لهم كلامه، فالقرآن كلام الله عَزَّوَجَلَّ، تحمل ألفاظه روحًا من أمر الله، وهذه نعمة عظيمة لم تتيسر لأمة من قبل، وفي هذا المعنى يقول عبد الله بن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا: لولا أن يسَّره على لسان الآدميين ما استطاع أحد أن يتكلم بكلام الله(١).

ويقول القرطبي في التذكار

ولولا أنه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ جعل في قلوب عباده من القوة على حمله ما جعله ليتدبروه وليعتبروه وليتذكروا ما فيه من طاعته وعبادته وأداء حقوقه وفرائضه لضعفت ولاندكت بثقله أو لتضعضعت له وأنى تطيقه وهو يقول تعالى جده وقوله الحق: ﴿ **لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ** ﴾ [الحشر: ١٢] ، فأين قوة القلوب من قوة الجبال؟

ولكن الله تعالى رزق عباده من القوة على حمله ما شاء أن يرزقهم فضلاً منه ورحمة(٢).

أما تخفيف القرآن فمعناه: تخفيف مهابته في القلوب حتى تضيع شيئًا فشيئًا، فلا يُهتم أو يُعبأ به.. يذهب الناس لتلاوته بلا اشتهاء ولا شغف.. يقرءونه فلا يجدون له حلاوة.. يُتلى فلا يُصغى إليه، وإن فُهمت بعض آياته فيتم صرف معانيها لأناس آخرين.

---

(١) رواه البيهقي في الأسماء والصفات (٢/ ٨ برقم: ٥٧٢).

(٢) التذكار في أفضل الأذكار (ص: ٣٣).

وهذا ما عناه الصحابي الجليل معاذ بن جبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حين قال: **سيَبْلَى[١] القرآن في صدور أقوام كما يبلى الثوب، فيتهافت[٢]، يقرءونه لا يجدون له شهوة ولا لذة**[٣].

وهذا الأثر يُشخص حالنا مع القرآن، فهو الآن يُقرأ بلا شهوة نحوه قَبل الإقبال عليه، ولا لذة وقت قراءته.

يقول أبو عبد الرحمن السُّلَمي: إنما أخذنا القرآن عن قوم أخبرونا أنهم كانوا إذا تعلموا عشر آيات لم يجاوزوهن إلى العشر الأخرى حتى يعلموا ما فيهن من العمل، قال: فتعلمنا العلم والعمل جميعًا، وإنه سيرث القرآن بعدنا قوم يشربونه شرب الماء لا يجاوز هذا، وأشار بيده إلى حَنَكِه[٤].

والمقصد بشربهم القرآن كشرب الماء أي سرعتهم في التعامل معه، وعدم تقديره حق قدره، والتعامل معه كما يتم التعامل مع الماء حيث الشرب السريع..

ويمكننا -أخي القارئ- أن نُقرِّب إلى أذهاننا مفهوم ثقل القرآن عندما نتعرف على حال الصحابة -رضوان الله عليهم- عند نزول قوله تعالى: ﴿**لِّلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۗ وَإِن تُبْدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُۖ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٖ قَدِيرٌ**﴾ [البقرة: ٢٨٤] وكيف اشتد ذلك عليهم فذهبوا إلى الرسول ﷺ، فجثوا على الركب، وقالوا: يا رسول الله كُلِّفنا من الأعمال ما نطيق: الصلاة والصيام والجهاد والصدقة، وقد أنزلت عليك هذه الآية، ولا نطيقها.

---

(١) يبلى: من بلى الثوب من كثرة استعماله حتى صار قديمًا لا قيمة له (لسان العرب: ١٤/ ٨٣).

(٢) التهافت: أي الصوت العالي الجافي أو الصوت الشديد (لسان العرب: ٢/ ١٠٤).

(٣) رواه الدارمي (٤/ ٢١٠٧ برقم: ٣٣٨٩).

(٤) فضائل القرآن للفريابي (ص: ٢٤١ برقم: ١٦٩).

فقال رسول الله ﷺ: «**أَتُرِيدُونَ أَنْ تَقُولُوا كَمَا قَالَ أَهْلُ الْكِتَابَيْنِ مِنْ قَبْلِكُمْ: سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا؟ بَلْ قُولُوا:** ﴿**سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ**﴾» قالوا: سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير، فلما اقترأها القوم، ذلَّت[١] بها ألسنتهم، فأنزل الله في إثرها: ﴿**ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ**﴾[٢] [البقرة: ٢٨٥].

تأمل أخي قول الراوي: ذلت بها ألسنتهم؛ أي أنهم كانوا يستثقلونها، ولا يستطيعون نطقها بسهولة لعظم ما جاء فيها وخطورته.

غياب الصورة الذهنية

قد لا يجد البعض في نفسه -بعد قراءة الصفحات السابقة- أي انزعاج أو ضيق مما آل إليه الأمر مع القرآن، ولعل من أسباب ذلك هو غياب الصورة الذهنية عن شكل التأثير الفذ والمتفرد والمزلزل للقرآن في كينونة الإنسان، ومن ثم لا يوجد في الأذهان شيء يقارَن به أو يُقاس عليه تعاملنا الحالي معه وأثره علينا.

لا يمكننا مقارنة التأثير الناتج عن قراءتنا وسماعنا لآياته مع ما ينبغي أن يكون هذا التأثير لعدم وجود صورة في أذهاننا يمكننا استحضارها عند عقد هذه المقارنة؛ لذلك لا ننزعج مما ورد عن عقوبات وقعت علينا وعلى من قبلنا وحرمتنا من روح القرآن وأثره المزلزل.

---

(١) ذلَّت بها ألسنتهم: أي سهلت عليهم. وعليه قول الله تعالى: ﴿فَٱسۡلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلٗاۚ﴾ [النحل: ٦٩]، وقوله تعالى: ﴿وَذُلِّلَتۡ قُطُوفُهَا تَذۡلِيلٗا﴾ [الإنسان: ١٤].

(٢) رواه مسلم (١/ ١١٥ برقم: ١٢٥).

وإليك -أخي القارئ- مثلًا يوضح هذا المعنى أكثر وأكثر بإذن الله.

هب أن أناسًا كانوا يركبون سفينة.. رجالًا ونساءً، أطفالًا وصغارًا، ثم جاءت أمواج عاتية حطمت السفينة وألقت بهم على جزيرة وسط البحر، وبدأ هؤلاء في ترتيب أمورهم المعيشية لكنهم لم يجدوا على الجزيرة شيئًا يأكلونه فما كان منهم بعد شعورهم بالجوع الشديد إلا أن يأكلوا ورق الشجر، واستمروا على ذلك وبدأ أطفالهم الرضع يكبرون شيئًا فشيئًا، وبدأوا يتكلمون ويفهمون حديث من حولهم، وكان آباؤهم يتذاكرون ألوان الأطعمة التي كانوا يتناولونها في ديارهم كالأرز والشواء والفواكه، وكان الأطفال يسمعون هذه الكلمات ولا يجدون في أذهانهم صورة متخيلة لها، لأنهم لم يذوقوها أو يروها قبل ذلك، ومن ثم فهم لا يتفاعلون بأي شكل من الأشكال مع حكايات آبائهم عن هذه الأمور، ولا يدركون سر الحسرة التي يجدها آباؤهم ويبدونها على فقدانهم لها.

هذا مثال تقريبي لحالنا مع القرآن، فلقد كان للقرآن عند الجيل الأول صورة ذهنية بأثره المزلزل وأنواره وقوله الثقيل، لذلك كانوا شديدي الحرص على تبليغ من بعدهم ضرورة الانشغال بالقرآن والتمسك به حتى لا يُحرموا من معجزته.

ومضت الأجيال ولم يُلتَفت إلى وصايا الصحابة، وتم التعامل الخاطئ مع القرآن، فكانت العقوبات: رُفعت روحه وبقيت ألفاظه، فنشأت أجيال لا تعرف شيئًا عن القرآن إلا كونه ألفاظًا تقرأ فلا يجدون شهوة تدفعهم لقراءته، ولا حلاوة يلتذون بها عند تلك القراءة.

.. لا يرتجُّون، ولا يتزلزلون معها.

نسوا أمر روح القرآن، واهتموا بألفاظه كما نُسِيَ الطعام واقتُنِعَ بورق الشجر..

وجدوا كل من حولهم مثلهم فظنوا أن هذا هو المطلوب عمله مع القرآن ولا شيء غيره، واعتبروا أن التأثر الناشئ عن التفاعل مع جرس القرآن ونغمه ومعانيه هو التأثر الذي تحدث عنه القرآن، ومن ثم تجدهم لا يتفاعلون مع هذا الطرح الذي يُطرح في هذه الأسطر.

الصمم والعمى

كذلك حين لا نؤمن بالقرآن.. بقَدْره وأثره.. ولا نقدِّر القرآن قدره فإن ذلك يستدعي عقوبة أخرى في غاية الخطورة، وهي: أن يُلقي اللهُ عَزَّوَجَلَّ الصَّمَمَ على آذاننا، والعَمَى على أبصارِنا، فنقرؤه أو نستمع إليه ولا نعقله، ولا يصلنا أثره، ولا نهتدي به؛ فلقد أنزل اللهُ عَزَّوَجَلَّ القرآنَ لنتفكر فيه: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٤٤] والتفكر الصحيح يقود إلى التذكر، وكلما تعرَّض العقل أكثر للقرآن وزاد تفكره فيه تفتَّحت نوافذُه شيئًا فشيئًا، وزادت مساحة التذكر ليعود شيء من أثرها على القلب فيرسخ فيه وهو ما يطلق عليه «التدبر» وهذه هي حقيقة عمل القرآن مع القلب: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص: ٢٩].

يقول الإمام ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ **في تفسير قوله تعالى:** ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ [محمد: ٢٤]:

«وكأن القلب بمنزلة الباب المرتج الذي قد ضُرب عليه قفل فإنه ما لم يُفتح القفل لا يمكن فتح الباب والوصول إلى ما وراءه وكذلك ما لم يُرفع الختم والقفل عن القلب لم يدخل الإيمان والقرآن»(١).

(١) شفاء العليل لابن القيم (ص: ٢٠٢).

ويقول في موضع آخر: «فلو رُفعت الأقفال عن القلوب لباشرتها حقائقُ القرآن، واستنارت فيها مصابيحُ الإيمان»(١).

ومما ينبغي الانتباه إليه أن من الوسائل المعينة لفتح أقفال القلوب: التفكر في آيات الله مرة بعد أخرى: ﴿ **هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا ۚ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ** ﴾ [غافر: ١٣].

ولقد وصف الله عَزَّوَجَلَّ عباد الرحمن بأنهم: ﴿**إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا۟ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا** ﴾ [الفرقان: ٧٣].

وفي المقابل: فحين نظلم بآيات الله بالغفلة عنها وعدم العمل بما تدعونا إليه فإننا نستدعي بذلك عقوبات خطيرة.. قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿**وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ** ﴾ [يوسف: ١٠٥].

ويقول تعالى: ﴿**وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ** ﴾ [يونس: ١٠٠].

ومن معاني الرجس: الشك، والعقاب، والغضب.

ولأن الجزاء من جنس العمل فالذي لا يتفكر في القرآن ولا يتعظ به ومن ثم يقطع الطريق نحو تدبره بتعطيل سمعه وبصره وعقله وقلبه عن الانتفاع بالقرآن؛ فإن العقوبة المباشرة لذلك هي: أن يلقي الله على سمعه الوقر والصمم، وعلى بصره الغشاوة والعمى، وعلى قلبه الختم ويغلفها بالأكنة ويغلقها بالأقفال: ﴿**إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا** ﴾ [الكهف: ٥٧].

إن إعمال العقل والتفكر الدائم في آيات الله وما يقود إليه من تذكر واتعاظ من

(١) التفسير القيم (ص: ٢٠٠).

علامات الإيمان، ومن ثم فإن الذي لا يفعل ذلك فيغفل عنها ويجحدها يعاقب بالصمم والعمى، وكيف لا وهو لا يريد الإيمان؟! ﴿وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ۖ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنفال: ٢٣].

ويؤكد ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٨٠﴾ وَمَآ أَنتَ بِهَـٰدِى ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَـٰلَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨١﴾﴾ [النمل: ٨٠، ٨١].

ولنتأمل هذه الآيات، ونقرأ ما فيها من وعيد شديد لمن يسمع ولا يسمع.. يسمع بأذنه ولكنه لا يُقْرِن هذا السماع بالتفكر وما يقود إليه من تذكر واتعاظ وعمل.. فيجعل الله على سمعه الصمم، والوقر، ويجعله من شر الدواب عنده والعياذ بالله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوْا۟ عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٢١﴾ ۞ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [الأنفال: ٢٠ – ٢٢].

الحرمان المُخيف

ومع كل هذه العقوبات التي وقعت علينا، إلا أن هناك عقوبة أشد أخبرنا بها رسول الله ﷺ .. إنها الحرمان المخيف والمرعب والذي لم يحدث حتى الآن وندعو الله أن يوقظ قلوبنا ويعيد لها هيبة القرآن حتى لا يحدث لنا هذا الحرمان.. ألا وهو: «**رفع القرآن من المصاحف والقلوب**» والذي سيحدث في آخر الزمان كما تنبأ بذلك الرسول ﷺ.

هل سيُرفع القرآن؟!

عندما يستمر التعامل الخاطئ مع القرآن، ويستمر الظلم بآياته؛ فإن نهاية مخيفة ومفزعة تنتظر الأمة في آخر الزمان، ألا وهي رفع القرآن من المصاحف والصدور،

فيصبح الناس يومًا (ما) فيفتح أحدهم المصحف فيجده فارغًا من آيات القرآن، فيصيبه الفزع، فيخبر من حوله فيتأكدوا من صحة قوله، ويحاول بعضهم النطق بآيات القرآن فلا يتذكر منها شيئًا.

فإن كنت -أخي القارئ- في شك من إمكانية حدوث ذلك فاقرأ هذه الأحاديث والآثار.. اقرأها بتركيز وإمعان.

جاء في سلسلة الأحاديث الصحيحة للألباني تحت عنوان: تدارسوا القرآن قبل رفعه قوله ﷺ: «**يَدْرُسُ الْإِسْلَامُ كَمَا يَدْرُسُ وَشْيُ الثَّوْبِ، حَتَّى لَا يُدْرَى مَا صِيَامٌ وَلَا صَلَاةٌ وَلَا نُسُكٌ وَلَا صَدَقَةٌ، وَلَيُسَرَّى عَلَى كِتَابِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي لَيْلَةٍ، فَلَا يَبْقَى فِي الْأَرْضِ مِنْهُ آيَةٌ، وَتَبْقَى طَوَائِفُ مِنَ النَّاسِ: الشَّيْخُ الْكَبِيرُ وَالْعَجُوزُ؛ يَقُولُونَ: أَدْرَكْنَا آبَاءَنَا عَلَى هَذِهِ الْكَلِمَةِ (لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ) فَنَحْنُ نَقُولُهَا**»[١].

يقول ناصر الدين الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ في تعليقه على هذا الحديث: وفي الحديث إشارة إلى عظمة القرآن، وأن وجوده بين المسلمين هو السبب لبقاء دينهم ورسوخ بنيانه، وما ذلك إلا بتدارسه وتدبره وتفهمه، ولذلك تعهد الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى بحفظه إلى أن يأذن الله برفعه[٢].

نسخ القرآن ورفعه

وإليك -أخي القارئ- حديث آخر يؤكد نفس المعنى عن أبي قلابة قال: قال رسول الله ﷺ، وذكر شيئًا فقال: «**ذَلِكَ أَوَانُ يُنْسَخُ الْقُرْآنُ**» فقال رجل كالأعرابي:

---

(١) رواه ابن ماجه (٥/ ١٧٣ برقم: ٤٠٤٩) وصححه البوصيري في مصباح الزجاجة (٤/ ١٩٤)، والألباني في السلسلة الصحيحة (٨٧)، ورواه الحاكم في المستدرك (٤/ ٥٨٧ برقم: ٨٦٣٦)، وصححه، ووافقه الذهبي.

(٢) سلسلة الأحاديث الصحيحة (١/ ١٧٣ برقم: ٨٧).

يا رسول الله ما ينسخ القرآن؟ أو: كيف يُنسخ القرآن؟ قال ﷺ: «**وَيْحَكَ، يَذْهَبُ أَصْحَابُهُ، وَيَبْقَى رِجَالٌ كَأَنَّهُمُ النَّعَامُ**»، فضرب رسول الله ﷺ إحدى يديه على الأخرى، فمدها يشير بهما، فقال الناس: يا رسول الله أوَلَا نتعلمه ونعلمه أبناءنا ونساءنا؟ فقال رسول الله ﷺ: «**قَدْ قَرَأَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى، قَدْ قَرَأَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى**»(١).

وعن حذيفة وأبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا قالا: قال رسول الله ﷺ: «**يُسْرَى عَلَى كِتَابِ اللهِ لَيْلًا، فَيُصْبِحُ النَّاسُ لَيْسَ آيَةٌ وَلَا حَرْفٌ فِي جَوْفِ مُسْلِمٍ إِلَّا نُسِخَتْ**»(٢).

وإن أدري.. أقريب ما توعدون؟ أم يجعل له ربي أمدًا؟!

مما يلفت الانتباه أن رسول الله ﷺ عندما كان يتحدث أمام صحابته عن رفع القرآن فإنه لم يكن يحدثهم بطريقة توحي لهم بأن هذا سيحدث آخر الزمان، بل كان يوجه الخطاب لهم على أنهم المعنيون به، كقوله الذي مر علينا: «**مَا هَذِهِ الْكُتُبُ الَّتِي بَلَغَنِي أَنَّكُمْ تَكْتُبُونَهَا؟ أَكِتَابٌ مَعَ كِتَابِ اللهِ؟ يُوشِكُ أَنْ يَغْضَبَ اللهُ لِكِتَابِهِ فَيُسْرَى عَلَيْهِ لَيْلًا، فَلَا يُتْرَكُ فِي وَرَقَةٍ وَلَا قَلْبٍ مِنْهُ حَرْفًا إِلَّا ذَهَبَ بِهِ**»(٣).

مع أن هناك العديد من الأدلة التي تشير إلى أن رفع القرآن سيحدث في الغالب في آخر الزمان، لكنه ﷺ وهو أعلم الخلق بالله، يعلم أنه سبحانه لا موجب ولا ملزم له في قضائه، وأنه: ﴿**وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا**﴾ [الكهف: ٢٦]، ويعلم كذلك قدر القرآن عند ربه، ومن ثم فإن التهاون أو الظلم بآياته قد يستدعي في أي وقت العقوبات التي قرَّرها سبحانه في كتابه لمَن أعرض عنه، ومن هذه العقوبات: رفع

(١) الزهد لابن المبارك (ص: ٢٧٧)، وهو مرسل صحيح الإسناد إلى أبي قلابة، ومعنى نسخ القرآن أي: محوه.

(٢) رواه الديلمي في مسند الفردوس (برقم: ٨٨٤٨).

(٣) رواه الطبراني في الأوسط (٧/ ٢٨٧ برقم: ٧٥١٤).

القرآن.. ألم يقل سبحانه: ﴿ وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ﴾ ؟!

[الإسراء: ٨٦].

ألم يُلقِّنه سبحانه ما يقول للناس في شأن توقيت تنفيذ ما وعد به عباده؟ ﴿ قُلْ إِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ مَا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي أَمَدًا ﴿٢٥﴾ عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ ﴾ [الجن: ٢٥، ٢٦].

من هنا يتضح لنا أن أمر رفع القرآن ليس بعيدًا أن يحدث في أي وقت، وذلك عندما يزداد امتهان الناس له، فيقع عليهم القول من الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ ﴾ [النمل: ٨٢].

قال قتادة: وجب الغضب عليهم، وقيل: حق العذاب عليهم.

قال ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وقع القول عليهم: يكون بموت العلماء وذهاب العلم ورفع القرآن.

وقد جمع الضياء المقدسي جزءًا سمَّاه «**اختصاص القرآن بعوده إلى الرحيم الرحمن**» ذكر فيه ما أُثر عن الصحابة والسلف من أن القرآن كلام الله منه بدأ وإليه يعود.

وقال ابن تيمية: أما هذا القول فهو المأثور الثابت عن السلف مثل ما نقله عمرو بن دينار قال: «أدركت الناس منذ سبعين سنة يقولون: الله الخالق وما سواه مخلوق، إلا القرآن فإنه كلام الله غير مخلوق منه بدأ وإليه يعود» وقد جمع غير واحد ما في ذلك من الآثار عن النبي والصحابة والتابعين كالحافظ أبي الفضل بن ناصر والحافظ أبي عبد الله المقدسي.

وأما معناه: فإن قولهم:... «إليه يعود»: فإنه يسرى به في آخر الزمان من المصاحف والصدور فلا يبقى في الصدور منه كلمة ولا في المصاحف منه حرف(١).

إليك هذا الدليل

والذي يؤكد أكثر وأكثر إمكانية حدوث ذلك، هو أنه قد وقع رفع معنوي لبعض من آثار القرآن في عهد الرسول ﷺ، ولقد تمثل هذا الأمر في نقص الخشوع، واعتبر ﷺ هذا النقص دليلًا على عدم تعامل المسلمين الصحيح مع القرآن، وهذا من شأنه أن يدفعنا للخوف الشديد على أنفسنا وعلى مستقبل القرآن معنا، كيف لا وحالنا يبتعد كثيرًا كثيرًا عن الحال الذي رآه الرسول ﷺ يوم أن قال هذا الحديث: عن أبي الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كنا مع رسول الله ﷺ فشخص ببصره إلى السماء ثم قال: «**هَذَا أَوَانٌ يُخْتَلَسُ الْعِلْمُ مِنَ النَّاسِ حَتَّى لَا يَقْدِرُوا مِنْهُ عَلَى شَيْءٍ**» فقال زياد بن لبيد الأنصاري: يا رسول الله، وكيف يُختلس منا وقد قرأنا القرآن؟ فوالله لنقرأنه ولنُقرئنه نساءنا وأبناءنا، فقال ﷺ: «**ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ يَا زِيَادُ، إِنْ كُنْتُ لَأَعُدُّكَ مِنْ فُقَهَاءِ أَهْلِ الْمَدِينَةِ، هَذِهِ التَّوْرَاةُ وَالْإِنْجِيلُ عِنْدَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى، فَمَاذَا تُغْنِي عَنْهُمْ؟!**».

قال جبير بن نفير راوي الحديث عن أبي الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: فلقيت عبادة بن الصامت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قلت: ألا تسمع ما يقول أخوك أبو الدرداء؟ فأخبرته بالذي قال، قال: صدق أبو الدرداء، إن شئت لأحدثنك بأول علم يُرفع من الناس: الخشوع، يوشك أن تدخل مسجد جماعة فلا ترى فيه رجلًا خاشعًا(٢).

---

(١) مجموع الفتاوى (٣/ ١٧٤).

(٢) رواه الدارمي (١/ ٣٣٣ برقم: ٢٩٦)، والترمذي (٥/ ٣١ برقم: ٢٦٥٣)، وقال: حديث حسن غريب، والحاكم (١/ ١٩٧ برقم: ٣٣٨)، وصححه ووافقه الذهبي.

وفي حديث أخرجه ابن أبي شيبة عن زياد بن لبيد رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: «.. وذاك عند أوان ذهاب العلم» قال: قلت: يا رسول الله كيف يذهب العلم ونحن نقرأ القرآن، ونقرئه أبناءنا، ويقرئه أبناؤنا أبناءهم إلى يوم القيامة. قال: «**ثَكَلَتْكَ أُمُّكَ يَا زِيَادُ، إِنْ كُنْتُ لَأَرَاكَ مِنْ أَفْقَهِ رَجُلٍ بِالْمَدِينَةِ، أَوَلَيْسَ هَذِهِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى يَقْرَءُون التَّوْرَاةَ وَالإِنْجِيلَ، لَا يَعْمَلُونَ بِشَيْءٍ مِمَّا فِيهِمَا؟**»(١).

وهل نشعر بروح القرآن في ألفاظه؟!

إن رفع الخشوع معناه رفع أثر القرآن من القلوب، ولئن كان قد حدث شيء يسير منه في أواخر عصر النبوة، فلقد تطور الأمر بعد ذلك حتى وصلنا إلى ما وصلنا إليه من الغياب شبه الكامل لأثر القرآن في الحياة، وهذا يعني أن روح القرآن قد ابتعدت عن ألفاظه بالنسبة لنا.

..نعم، إن ابتعاد روح القرآن عنا ليس أبديًا، فلو تضافرت الجهود وحسُنت النيات واشتدت العزائم لعادت تلك الروح مرة أخرى للألفاظ حين ننطقها أو نسمعها، ولعاد أثرها المزلزل في القلوب.

وإن لم نفعل فستستمر العقوبات والتي ستنتهي برفع الألفاظ من المصاحف والصدور.

أكثروا تلاوة القرآن قبل أن يُرفع

إن أمر رفع القرآن ليس بعيدًا عن أي زمان، ولقد كان الصحابة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ يدركون ذلك جيدًا، وكانوا يخافون ويخوفون من إمكانية ذلك، فهذا عبد الله بن مسعود

---

(١) رواه ابن أبي شيبة (٦/ ١٤٥ برقم: ٣٠١٩٩)، وأحمد (٢٩/ ١٧ برقم: ١٧٤٧٣)، وابن ماجه (٥/ ١٧٢ برقم: ٤٠٤٨).

رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول: أكثروا تلاوة القرآن قبل أن يُرفع، قالوا: هذه المصاحف تُرفع فكيف بما في صدور الرجال؟ قال: يُسرى عليه ليلًا، فيصبحون منه فقراء، وينسون قول لا إله إلا الله، ويقعون في قول الجاهلية وأشعارهم، وذلك حين يقع عليهم القول[(١)].

عن شداد بن مَعقِل عن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ **قال:**

«أول ما تفقدون من دينكم الأمانة، وآخر ما تفقدون منه الصلاة، وسيصلي قوم ولا دين لهم، وإن هذا القرآن الذي بين أظهركم كأنه قد نُزع منكم» قال: قلت: كيف يا عبد الله وقد أثبته الله في قلوبنا؟ قال: «يُسرى عليه في ليلة فترفع المصاحف، ويُنزع ما في القلوب، ثم تلا: ﴿ وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ﴾[(٢)] [الإسراء: ٨٦].

وكان يقول: «كيف أنتم إذا أسري على كتاب الله فذُهب به؟ قال: يا أبا عبد الرحمن، كيف بما في أجواف الرجال؟ قال: يبعث الله ريحًا طيبة فتكفت كل مؤمن[(٣)].

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ **قال:** يُرسل الله تعالى ريحًا من اليمن، ألين من الزبد، وأحلى من العسل، فلا تترك رجلًا في قلبه آية من القرآن إلا ذهبت بها[(٤)].

---

(١) رواه الدارمي في السنن (٤/ ٢١٠٥ برقم: ٣٣٨٤)، واللفظ له، والبيهقي في شعب الإيمان (٣/ ٣٩٧).

(٢) رواه ابن أبي شيبة في المصنف (٧/ ٥٠٥ برقم: ٣٧٥٨٥)، والحاكم في المستدرك (٤/ ٥٩٤ برقم: ٨٥٣٨) وقال: صحيح الإسناد ووافقه الذهبي.

(٣) رواه ابن أبي شيبة (٦/ ١٤٤ برقم: ٣٠١٩٢) بإسناد صحيح.

(٤) رواه نعيم بن حماد في الفتن (٢/ ٥٩٨) بإسناد صحيح.

ملاحظة مهمة: ذكر العلماء أن ما أخبر به الصحابة من أمور الغيبيات وما لا محل للاجتهاد فيه، يُحمل على أنهم سمعوه؛ فيأخذ حكم المرفوع. بشروطه المعروفة عند أهل العلم.

عن شمر بن عطية قال: يُسرى على القرآن في ليلة فيقوم المتهجدون في ساعاتهم فلا يقدرون على شيء، فيفزعون إلى مصاحفهم فلا يقدرون عليها، فيخرجون بعضهم إلى بعض فيلتقون فيُخبر بعضهم بعضًا بما لقوا[(١)].

وعن الليث بن سعد قال: إنما يرفع القرآن حين يُقبل الناس على الكتب، ويكبون عليها ويتركون القرآن[(٢)].

أُتلى ولا يُعمل بي

أخي: إن الأمر جد لا هزل فيه.. الأمر خطير خطير..!

عن عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: لا تقوم الساعة حتى يرجع القرآن من حيث نزل، له دَويٌّ حول العرش كدوي النحل، فيقول الرب: مالك؟ فيقول: يا رب أُتلى ولا يُعمل بي، أُتلى ولا يُعمل بي، أُتلى ولا يُعمل بي[(٣)].

تدرج الحرمان

إن الحرمان من القرآن يكون تدريجيًا، يبدأ بالحرمان من روحه ومِن ثم حلاوته وأثره المزلزل في تغيير الشخص، وينتهي بالحرمان من ألفاظه.

يقول حذيفة بن اليمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**يُوشِكُ أَنْ يَدْرُسَ الإِسْلامُ كَما يَدْرُسُ وشْيُ الثَّوْبِ، ويَقْرَأُ النّاسُ القُرْآنَ لا يَجِدُونَ لَهُ حَلاوَةً، فَيَبِيتُونَ لَيْلَةً ويُصْبِحُونَ وقَدْ أُسْرِيَ بِالقُرْآنِ... حَتَّى يُنْتَزَعَ مِن قَلْبِ شَيْخٍ كَبِيرٍوعَجُوزٍ كَبِيرَةٍ، فَلا يَعْرِفُونَ وقْتَ صَلاةٍ ولا**

(١) عزاه السيوطي في الدر المنثور (٦/ ٣١٨) إلى ابن أبي داود وابن أبي حاتم.

(٢) مختصر قيام الليل (ص: ١٧٩).

(٣) فضائل القرآن للمستغفري (١/ ٢٩٢).

صِيامٍ ولا نُسُكٍ، حَتَّى يَقُولَ القائِلُ مِنهم: إنَّا سَمِعْنا النّاسَ يَقُولُونَ: لا إلَهَ إلَّا اللَّهُ»[(١)].

وإذا أردت -أخي- مزيدًا من الأدلة التي تؤكد هذا الأمر الخطير فعليك بكتاب «اختصاص القرآن بعَوده إلى الرحمن الرحيم» للحافظ محمد بن عبد الواحد، المعروف بالضياء المقدسي.

هل تأكدت من إمكانية رفع القرآن؟

أخي القارئ: لعلك الآن تأكدت من إمكانية رفع القرآن بعد أن مرت عليك أحاديث رسول الله ﷺ، وأقوال الصحابة والسلف التي تؤكد أن القرآن سيُرفع في آخر الزمان حين يُهجر العمل به، فماذا علينا أن نفعل تجاه هذه الكارثة المتوقعة؟

هل سنقف مكتوفي الأيدي انتظارًا لها؟

أم سنسارع بالعودة الحقيقية إلى القرآن، والتعامل معه بطريقة صحيحة يكسوها الاحترام والهيبة؛ عسى ذلك أن يُذهب غضب الله عَزَّوَجَلَّ لكتابه؟!

---

(١) رواه الخطيب في تاريخ بغداد (٢/ ٢٩٠).

الفصل الرابع

ماذا نخسر
بعدم انتفاعنا بالقرآن؟!

ماذا نخسر بعدم انتفاعنا بالقرآن؟

لعل البعض حين يقرأ الصفحات السابقة يتساءل فيقول: إننا نُهمل أشياء كثيرة، فلماذا التركيز الشديد على القرآن دون غيره؟ ما الذي يضيرنا من عدم الانتفاع به؟

الجواب عن هذه التساؤلات لا تسعه هذه الصفحات، ولكننا -بإذن الله- سنتحدث باختصار عن أهم أشكال الخسارة التي يخسرها الفرد ومِن ثَم الأمة، والتي يقف على رأسها: **عدم إمكانية حدوث التغيير الحقيقي**، فالله عَزَّوَجَلَّ أخبرنا في كتابه بأنه لن يغير حالنا من المرض والضعف والمهانة التي نعاني منها إلى الصحة والقوة والعزة إلا إذا غيرنا ما بأنفسنا: ﴿**إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ**﴾ [الرعد: ١١].

وتغيير ما بالنفس ينبغي أن يشمل مكونات الإنسان الأربعة:

- **تغيير ما بالعقل** من مفاهيم وتصورات ومعتقدات خاطئة وإعادة تشكيله من جديد وفق التصور الإسلامي الصحيح.
- **وتغيير ما بالقلب** من غلبة الهوى وحب الدنيا، وتمكين نور الإيمان منه حتى يصلح حاله ويصير قلبًا سليمًا.
- **وتغيير النفس** بتزكيتها وتطهيرها من أي مظهر من مظاهر تضخمها وسيطرتها على القلب، وعلاجها من الشح المجبولة عليه، وإلجام نزواتها في التطلع نحو التصدر والعلو في الأرض، ونهيها عن الفساد والإفساد.
- **وأما بخصوص البدن**، فالتغيير يشمل ضبط حركته وتعويده على القيام بالعمل الصالح الذي يرضي الله مع بذل الجهد الدائم في سبيل إعلاء كلمته.

ولكي ندرك صعوبة -إن لم يكن استحالة- إجراء عملية التغيير الحقيقي والشامل لمكونات الإنسان الأربعة بدون القرآن؛ علينا أن نتعرف على تأثير البيئة الأولى على تكوين الشخصية، ودورها في جعل عملية التغيير بعد ذلك أمرًا يكاد يكون مستحيلًا، ولأهمية هذه المسألة سنتناولها -بإذن الله- بشيء من التفصيل في الأسطر القادمة.

البداية

عندما يولد الطفل -أي طفل- فإنه يولد وهو لا يعلم شيئًا عن الحياة، ولا توجد لديه تصورات أو علم مسبق، فالمحتوى التكويني الذي يحدد ملامح شخصيته يكاد يكون فارغًا: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا﴾ [النحل: ٧٨].

لا يعرف الضار من النافع.. ولا الخطأ من الصواب.. ليس لديه مقياس يقيس به الأمور.

يشعر بالعطش فيبكي ويصرخ، وبعد مجهود منه في البكاء والصراخ تُحضر أمه الشيء الذي يُذهِب عطشه بينما لا يجد أباه يفعل ذلك، بل إذا أراد الشرب يقول شيئًا محددًا مختلفًا عن البكاء فيجد أن أمه تأتيه بمثل ما شربه، فيزداد شغفه ورغبته في التعرف على ما قاله ليفعل مثله.

.. قد ينام على سريره بجوار النافذة فيستيقظ بسبب الهواء المتسرب منها فيبكي ويصرخ، دون أن يعرف أحد سبب بكائه وصراخه، ثم يأتي أبوه فيقول شيئًا ما، فتقوم أمه مباشرة بغلق النافذة، ليحدث له - نتيجة تكرار مثل هذه المواقف - انبهار شديد بأبويه، ويعتبر أنهما الباب الأعظم للولوج إلى العالم، فيُسلم لهما قياده، ويأخذ منهما كل شيء.. يأخذ منهما الطقوس واللغة -أيًّا كانا- ويأخذ منهما طريقة تعاملهما مع الأشياء المختلفة، فما يُقدِّسونه يُقدِّسه، وما يُحقرونه يُحقِّره.

يأخذ منهما المفاهيم والتصورات المختلفة عن مفردات الحياة، ويأخذ منهما كذلك الأخلاق، حسنها وسيئها، فعلى سبيل المثال:

يجد أباه حريصًا على المال، مدققًا في حساب كل شيء، فهو يُقِيم الدنيا ولا يُقعِدها إذا ضاع منه شيء ولو كان يسيرًا، فيوقن أن هذا هو الصواب في التعامل مع المال وأن عليه أن يفعل ذلك.

فإذا كان الأب كريمًا يُنفق على الفقير والمحتاج.. سمحًا في بيعه وشرائه، فإن الرسالة التي ستصل إليه سيكون مفادها أنه ينبغي أن نتعامل هكذا مع المال.

وإذا ما وجد أباه يُكثر الحديث عن نفسه، وإنجازاته، وتاريخه، وتاريخ أسرته أو قبيلته، فهذا هو الصواب -في نظره- ومِن ثَمَّ ينبغي عليه أن يكون كذلك، وبخاصة أنه قد شاهده يمارس هذه الأفعال عشرات بل مئات المرات، فتوضع هذه التصورات عن التعامل مع المال أو النفس في المكان المُخصص لها في المحتوى التكويني لشخصيته، لتُشكل بعد ذلك مُنطلقًا أساسيًّا لسلوكه وبخاصة في أفعاله التلقائية.

التوأمان

لو افترضنا أن رجلًا من بلد ما قد تزوج امرأة من بلد آخر، وحملت الزوجة وأنجبت ذكرين توأمين، ثم حدثت بعد الولادة بعض المشكلات بين الزوجين تمَّ على إثرها الانفصال، فاتفقا على أن يأخذ كل واحد منهما طفلًا من التوأمين، وانقطعت الصلة بينهما بعد أن ذهبت المرأة إلى بلدها، وبعد عشر سنوات تقابل الطفلان، فماذا تتوقع منهما؟ هل سيكونان متشابهين في الطباع والسلوك والاهتمامات كما هما متشابهان في الشكل؟

.. يقينًا لن يكونا كذلك لاختلاف المصدر الأول والأساس للتلقي عند كل منهما، فسنوات العمر الأولى هي أهم سنوات التكوين عند الإنسان، ففيها تمتلئ فراغات المحتوى التكويني والتي تحدد ملامح شخصية الفرد، ومعتقداته، ومقدساته وتصوراته لمفردات الحياة، وكيفية التعامل مع المال، والنفس،

والآخرين،... إلخ.

وكلما امتلأ المحتوى التكويني قلَّ انبهار الطفل بمن أمامه، فانبهاره الشديد في البداية كان بسبب وجود الفراغ في المحتوى التكويني لشخصيته، ولكن بمرور الوقت تمتلئ الفراغات شيئًا فشيئًا، ومِن ثَمَّ يصبح لديه رصيد خاص به من تصورات وطرائق في التعامل مع معطيات الحياة المختلفة، فإذا ما رأى شخصًا يفعل شيئًا آخر غير الذي تكوَّن وشبَّ عليه تجاه أمر (ما) فإنه لا ينبهر به ولا يأخذه عنه، وهكذا يقلّ تدريجيًّا استعداده للتلقي من الآخرين مهما كانوا يحملون من قيم عظيمة.

وكلما تقدم في العمر أكثر رسخ وتجذَّر المحتوى التكويني لشخصيته في جوانبها المختلفة من تصورات ومعتقدات تجاه نفسه وتجاه الآخرين، لتصبح إمكانية التغيير في البنية الأساسية لشخصيته أمرًا غاية في الصعوبة، فالأماكن التي تتطلب التغيير قد رسخت فيها المفاهيم والمعتقدات والتصورات الخاطئة وأصبحت كالصخور -أو أشد- في صلابتها، ومِن ثَمَّ فإن أي جهد يُبذَل في اتجاه التغيير -وإن كان جُهدًا مؤثرًا- إلا أن تأثيره سيكون محدودًا، وغايته أن يستقبله بعقله المدرك فيقتنع به، دون أن يدخل هذا الاقتناع لعمق شخصيته، ومحتواه التكويني فتصبح تلك القناعة كالطلاء على الصخر.. يُغير لونه ولا يُغير أبدًا طبيعته، وتتجلى تلك الحقيقة تمامًا عند المحكَّات العملية، والممارسات الحياتية التلقائية حيث يسقط فيها هذا الطلاء الخارجي بسهولة، وتبقى الشخصية على ما تكونت عليه.

وينشأُ ناشئُ الفتيانِ منَّا ... على ما كان عوَّده أبوه

ويؤكد هذا المعنى قول رسول الله ﷺ: «**مَا مِنْ مَوْلُودٍ إِلَّا يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ**

فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ أَوْ يُمَجِّسَانِهِ»(١).

هكذا يقرر الحديث أن الأبوين هما اللذان يشكلان -إلى حد كبير- ملامح شخصية ابنهما ومعتقداته: فيبقيانه على فطرته مسلمًا أو يطغيان عليها بأن يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه.

كما يجعلانه متواضعًا أو متكبرًا.. كريمًا أو بخيلًا.. رفيقًا أو غليظًا، وهذا أمرٌ يشهد به الجميع، ومن أمثلة ذلك تلك الكلمات التي استقبلت بها بنو إسرائيل مريم الصديقة عندما دخلت عليهم وهي تحمل عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿**يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا**﴾ [مريم: ٢٨].

فإذا أضفنا إلى هذا العامل -المؤثر غاية التأثير- العوامل الأخرى التي تتفتح عين الطفل عليها وتشكِّل موردًا إضافيًّا لتشكيل محتواه التكويني، والتي يأتي على رأسها وسائل الإعلام -وبخاصة المرئية- والمدرسة، والبيئة المحيطة من أقارب وجيران وأصدقاء؛ لزاد تأكدنا أن الشخصية التي يتعامل معها الموجهون التربويون والتي تجاوزت سن المراهقة قد تم تشكيل أغلب مكوناتها الأساسية بأمور مختلطة في التصورات والعقائد والقيم، وأن هذه الأمور يزداد تجذرها ورسوخها كلما تقدم العمر ومارسها المرء مئات وآلاف المرات.

هل هي دعوة لليأس؟

لو فكرنا في هذا الأمر لوجدنا أنه من الصعب النجاح في عملية التغيير الداخلي للأفراد مهما بُذِل فيها من مجهود، وذلك بسبب اكتمال -أو شبه اكتمال- المحتوى التكويني عندهم، وعدم وجود فراغات أساسية في تكوين الشخصية يُمكن للتربية

---

(١) رواه البخاري (٢/ ٩٤ برقم: ١٣٥٨) ومسلم (٤/ ٢٠٤٧ برقم: ٢٦٥٨).

الصحيحة أن تملأها، ولو وُجِدت لكانت ضئيلة النسبة ضيقة المساحة بحيث لا تتسع لكي تحل بداخلها قناعات ومبادئ أخرى.

لو فكرنا في هذا كله لخلصنا بأن أمر إعادة بناء الشخصية المسلمة غاية في الصعوبة إن لم يكن مستحيلًا.

ولعل إدراك أبعاد وخطورة هذه المسألة يجيب على تساؤلات الكثيرين عن عدم ظهور الثمار الإيجابية للأعمال التربوية التي تهدف إلى تغيير الفرد على الرغم من الجهد الكبير المبذول فيها.

..ويجيب كذلك على تساؤلهم: **لماذا ينكشف المستوى الحقيقي للفرد عند تعرضه لبعض المحكات العملية، كأن يُمسَّ رزقه، أو يواجه نقدًا أو نصحًا من غيره، أو يتعرض لفتن الدنيا واختباراتها؟!**

والجدير بالذكر أن هناك نماذج طيبة صالحة مصلحة موجودة -بفضل الله- في الأمة وبين العاملين في حقل الدعوة والتربية، ولكنها **أولًا**: قليلة، **وثانيًا**: أن بنيتها الأساسية وتكوينها الصحيح في البيئة الأولى له دور كبير في وصولها لهذا المستوى بفضل الله، **وثالثًا**: اهتمامهم الشديد والمستمر بتربية أنفسهم، وتزكيتها وتعاهدها بالتطهير والعلاج.

علينا أن نتساءل:

كيف تتزلزل الصخور المُتجذِّرة في محتوانا التكويني وتتحطم، ويُعاد بناؤها من جديد على أساس العبودية لله عَزَّوَجَلَّ، ومعاني الإسلام الصحيحة؟

يقينًا.. يوجد حل

على الرغم من الصعوبة القصوى للتغيير الحقيقي للفرد بعيدًا عن فترة التكوين الأولى، إلا أنه (يقينًا) توجد حلول عملية وواقعية للتغلب على هذا الأمر.

ومبعث هذا اليقين عدة أمور:

أولها: أن مِن مُقتضى رحمة الله بعباده علو شأن الأمة الإسلامية وعودتها إلى مكانها الطبيعي في قيادة البشرية مرة ثانية، لاسيما بعد أن وصلت الأحوال في أغلب أنحاء الأرض إلى هذا المستوى غير المسبوق من الانحلال والضياع والبعد عن الله، ومما يؤكد هذا المعنى أن هناك نصوصًا من القرآن والسنة تُبشرنا بذلك كقوله تعالى: ﴿**وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ**﴾ [الصف: ٨]. وقوله: ﴿**هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ**﴾ [التوبة: ٣٣].

وقوله ﷺ: «**تَكُونُ النُّبُوَّةُ فِيكُمْ مَا شَاءَ اللهُ أَنْ تَكُونَ، ثُمَّ يَرْفَعُهَا إِذَا شَاءَ أَنْ يَرْفَعَهَا، ثُمَّ تَكُونُ خِلَافَةٌ عَلَى مِنْهَاجِ النُّبُوَّةِ فَتَكُونُ مَا شَاءَ اللهُ أَنْ تَكُونَ، ثُمَّ يَرْفَعُهَا إِذَا شَاءَ اللهُ أَنْ يَرْفَعَهَا، ثُمَّ تَكُونُ مُلْكًا عَاضًّا**[١] **فَيَكُونُ مَا شَاءَ اللهُ أَنْ يَكُونَ، ثُمَّ يَرْفَعُهَا إِذَا شَاءَ أَنْ يَرْفَعَهَا، ثُمَّ تَكُونُ مُلْكًا جَبْرِيَّةً فَتَكُونُ مَا شَاءَ اللهُ أَنْ تَكُونَ، ثُمَّ يَرْفَعُهَا إِذَا شَاءَ أَنْ يَرْفَعَهَا، ثُمَّ تَكُونُ خِلَافَةٌ عَلَى مِنْهَاجِ النُّبُوَّةِ، ثُمَّ سَكَتَ**»[٢].

والمتأمل للحديث من ناحية، وواقع الأمة الحالي من ناحية أخرى؛ يجد أن المرحلة القادمة -بإذن الله- هي مرحلة «**الخلافة على منهاج النبوة**».

ثانيًا: أن الله عَزَّوَجَلَّ وعدنا أن يُغير ما بنا إذا غيرنا ما بأنفسنا: ﴿**إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا**

(١) العاض: الظالم المتعسِّف.

(٢) رواه الإمام أحمد في المسند (٣٠/ ٣٥٥ برقم: ١٨٤٠٦).

بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ ﴾ [الرعد: ١١].

فما دام الله عَزَّوَجَلَّ قد ربط تغييرنا بتغيير ما بأنفسنا فمعنى ذلك أننا نقدر -بإذنه سبحانه- على القيام بهذا التغيير، وأن هناك وسائل أتاحها لنا من شأنها أن تقوم بزلزلة كل تصور ومحتوى خاطئ في البنية الأساسية للشخصية، فحاشا لله أن يُطالبنا بشيء لا نستطيع القيام به .

ثالثًا: أن جيل الصحابة كان قبل إسلامه أسوأ بمراحل من حالنا الآن، ومع ذلك فقد تغيروا -بفضل الله- تغيُّرًا جذريًّا بعد إسلامهم وسادوا الأرض في خلال سنوات معدودة، ولم يكن ذلك التغير مرتبطًا بوجود شخص رسول الله ﷺ، والدليل على ذلك أنهم انطلقوا في مشارق الأرض ومغاربها بعد وفاته يبلغون رسالة الله، ويُقيمون الحُجة على الناس، ففتح الله بهم وأزال ملك فارس والروم...

التغيير المنشود

.. إن ما حدث مع جيل الصحابة من تغيير، ومِن ثَمَّ تمكين، لا ينبغي أن نمر عليه دون الوقوف الطويل أمامه، فهو النموذج الصحيح على مر التاريخ للتغيير وللتمكين الذي يريده الله عَزَّوَجَلَّ للأمة.

فنحن لا نُريد انتصارًا وقتيًّا كما حدث مع جيل صلاح الدين، ثم انقلبت الأمور بعد وفاته فدخل أبناؤه وأشقاؤه في صراع دفع بعضهم إلى الاستعانة بالصليبيين على إخوانه.

ولا نُريد تمكينًا مرتبطًا بجيل من الموجهين التربويين -كما حدث في دولة المرابطين- والتي تأثرت تأثرًا سلبيًّا بوفاتهم وسرعان ما سقطت.

بل نُريد تمكينًا مستمرًا يربط الأفراد بالمنهج المؤثر أكثر من ربطهم بالموجهين التربويين، وليس معنى هذا التقليل من شأن الموجه التربوي، ولكن المقصد هو إعادة ترتيب العملية التربوية التي تجعل الفرد يدور في فلك المنهج المؤثر، ويدور معه الموجه التربوي فيتابعه ويتعرف على تأثير المنهج عليه، فيُقوِّم ما يستحق التقويم، ويضبط ما يستحق الضبط: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ﴾ [إبراهيم: ١].

نقطة البداية

إن نقطة البداية الصحيحة للتغلب على هذه التحديات هي الشعور الشديد بالخطر، والتقييم الصحيح للواقع، والوقوف على التحديات الحقيقية التي تواجه عملية التغيير، والبحث في جيل الصحابة عن الكيفية التي وصلوا بها إلى هذا المستوى الذي جعلهم مؤهلين لتلقي نصر الله عَزَّوَجَلَّ.

نظرة واقعية

إننا الآن أمام واقع في غاية التعقيد:

.. مؤامرات عالمية لطمس الهوية الإسلامية، وتمييع المعاني الأصيلة وإفراغها من مضمونها داخل نفوس المسلمين.

.. سماء مفتوحة، وفضائيات تبث السموم، وتضغط على الغرائز، وتدفع نحو السلبية وعبادة الذات والشهوات.

.. ارتفاع تكاليف إدارة الحياة من جهد ومال ووقت مما يستهلك الفرد، سواء كان ذلك الفرد هو القائم على العملية التربوية (الموجه التربوي)، أو المتلقي.

..الفرد الذي يُراد تغييره قد تم تكوينه في الصغر، وأصبح محتواه التكويني في البنية الأساسية شبه مكتمل، ومن ثم فإن الجزء المتاح للتلقي هو الجزء الفارغ في المحتوى التكويني، وفي الغالب تكون نسبة هذا الجزء ضئيلة للغاية، ومن ثم فلن تحقق محاولات الإصلاح أهدافها في التغيير الحقيقي لأن المساحة المتاحة أمامها لا تكفي لإحداث التغيير المطلوب.

وفي نفس الوقت فإن المحتوى التكويني قد تجذرت فيه المعتقدات والتصورات منذ الصغر وأصبحت كالصخور الصلبة التي لا يمكن أن تتغير.

..نعم، في الغالب هناك في هذا المحتوى مساحة تمتلئ بالتصورات والقيم الصحيحة التي غرسها الأبوان في أبنائهما.

هذه المساحة تختلف نسبتها من شخص لآخر بحسب درجة صلاح وإيجابية الأبوين، ومع ذلك فإن السمة الغالبة لواقعنا تؤكد ابتعادنا عن الكثير من معاني الصلاح، مما يدل على غلبة التصورات والمعتقدات الفاسدة على محتوانا التكويني.

فما الحل إذن في هذه المشكلة الضخمة؟

كيف يمكن زلزلة كل معتقد وتصور خاطئ، واستبدال الصحيح به، لاسيما أن هذه الزلزلة تحتاج إلى قوة جبارة خارقة تحطم الصخور الرواسي، وتعيد بناء المحتوى التكويني على الأساس الإسلامي الصحيح؟

معنى ذلك أن البحث عن الحل ينبغي أن يكون في اتجاه التفكير في إمكانية إيجاد مثل هذه القوة الجبارة المزلزلة.

وهنا تبرز أهمية التذكير بحقيقة أن الله عَزَّوَجَلَّ عندما طالبنا بتغيير ما بأنفسنا،

فلقد طالبنا وهو يعلم سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ بأن وسائل التغيير متاحة أمامنا.

طَالَبَنا اللهُ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ بالتغيير، وهو العليم الخبير بالتحديات والصعوبات التي تواجهنا: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤].

فيقينًا أن تلك القوة الخارقة الجبارة موجودة.

.. نعم، قد نكون غافلين عنها، غير منتبهين لها كحالنا مع كثير من آيات الله: ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ [يوسف: ١٠٥]، لكنها موجودة.. يقينًا موجودة.

عناصر العملية التربوية

من المفترض أن العملية التربوية تتكون من ثلاثة عناصر رئيسة تهدف إلى تغيير الفرد (المُتلقي) هذه العناصر هي: الموجه التربوي، والمنهج، والبيئة أو الوسط المحيط بالفرد.

هذه العناصر الثلاثة تعمل عملها في السنوات الأولى للطفل ويكون بطلَها الأبوان (الموجِّه التربوي) -كما أسلفنا- وكلما زاد العمر يقل الانبهار بالأشخاص، وذلك لامتلاء المحتوى التكويني بالمعتقدات والتصورات التي استقبلها الفرد من أبويه ومن الوسط المحيط به.

فإذا ما تجاوز الفرد مرحلة المراهقة فإن أمر تغييره من الصعوبة بمكان لأن محتواه التكويني شبه مكتمل، بل قد بدأ في التصلب والرسوخ.

لذلك فلو تربَّى فردٌ ما على الشُّح والحرص على المال من خلال نشأته الأولى والوسط المحيط به؛ فإن من الصعب تغيير تعامله مع المال بعد سن المراهقة، حتى ولو قام على أمر تربيته أفضل المربين -إلا من رحم الله- لأن الأمر أكبر منه بكثير، فلقد

تشرَّب الفرد حب المال والحرص عليه، وأصبح لهذا المعنى جذور عميقة في ذاته.

كل ما يمكن أن يفعله الموجه التربوي هو أن يجعله يقتنع بأهمية الإنفاق في سبيل الله، ويُحسن أداءه الشكلي في بعض المواقف، لكن تبقى الممارسة الحياتية اليومية كما هي، بل في الغالب يرى هذا الشخص في نفسه أنه غير شحيح أو حريص على المال، بل قد يعتقد عكس ذلك ويبرر تصرفاته بأنها من باب الاقتصاد في المعيشة ووضع كل درهم في مكانه الصحيح:

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾﴾ [البقرة: ١١، ١٢].

ومما يدعو للأسف أنه كلما جلس البعض لتشخيص الداء والإجابة عن السؤال الذي يتردد كثيرًا وهو: لماذا لا يتغير حال الكثير من الأفراد على الرغم من الجهد الكبير الذي يبذل معهم؟... تجد أنهم يتوجهون باللائمة على الموجه التربوي وتقصيره، وأن الحل ينبغي أن يكون في اتجاه تقويته وتأهيله.

هذا تشخيص جيد لكنه لن يجدي نفعًا بمفرده، وبدون وجود القوة الجبارة المُزلزلة.

فإن كنت في شك من هذا فما عليك إلا أن تسأل نفسك: هل من الممكن أن ينجح تلميذ في الصف الأول الابتدائي -مهما كان نبوغه- في أن يقوم بتدريس مادة الفيزياء لطلاب الدراسات العليا في كلية العلوم؟!

إنه نفس الأمر -بل أشد- عندما نطلب من شخص أيًا كان مستواه أن يؤثر في الصخور الصلبة العميقة الجذور في ذات أي فرد، ويغيرها على أساس الإسلام ومعانيه العظيمة.

.. نعم، قد يغير في المساحة الضئيلة المتبقية في محتواه التكويني، ولكن كم تبلغ نسبة هذه المساحة بالمقارنة بما تم تكوينه في بنية شخصيته الأساسية؟

ناهيك عن ندرة وجود الموجه التربوي الميداني القدوة في ظل ظروف الحياة الراهنة، ولو توفر للقليل فلن يتوفر للكثير.. ولو تم -من الناحية الافتراضية- إعداد موجهين تربويين أكفاء يستوعبون جميع الأفراد، وعادت الأمة إلى صحتها في هذه الآونة، وتحقق وعد الله لها بتغيير حالها إلى الأحسن، فماذا سيحدث بعد وفاة هؤلاء الموجهين التربويين؟

سيحدث كما حدث في المغرب بعد وفاة جيل الموجهين التربويين الذين أسسوا -بعون الله- دولة المرابطين حيث سقطت الدولة وانهارت، وكما حدث في تجارب كثيرة عندما انتفض المسلمون تجاه قضية (ما) كاحتلال بيت المقدس أيام الحملات الصليبية، فإذا ما انتهت القضية وتحررت القدس، عادت الأمة إلى ما كانت عليه، واندفعت الأجيال اللاحقة نحو الدنيا فيزداد المرض، وتدخل الأمة في دائرة الغضب الإلهي فيسلط الله عليها الذل والهوان.

فهل نريد أن نكون كذلك؟

هل نريد شحذ الهمم، واستنفار الجهود التربوية التي تحقق التغيير في جيل من الأجيال فتتحسن أحوال الأمة نسبيًا، وتُحلُّ بعض مشكلاتها، ثم تعود الأمور إلى ما كانت عليه في الجيل الثاني والثالث بعد وفاة جيل الموجهين التربويين ؟!

هذا لو افترضنا أنه يمكن للموجهين التربويين أن يحدثوا تغييرًا في أنفسهم أو في الآخرين في ظل امتلاء وتجذر محتواهم التكويني.

أم ترانا نريد تغييرًا تمليه الأحداث والقوارع التي تمر بالأمة، فإذا انجلت تلك

الأحداث عاد الناس إلى سابق عهدهم؟!

القوة المُزلزلة

إن الأمة مريضة بحب الدنيا، والشح المطاع، والهوى المتبع، والإعجاب بالنفس، ولن يصلح الله حالنا إلا إذا غيرنا ما بأنفسنا.. وأداة هذا التغيير الرئيسة هي (التربية).

ولا يمكن أن تنجح عملية التربية في أداء مهمتها بسبب وجود العوائق والتحديات التي تم ذكرها، والتي يقف على رأسها تجذر الشح المطاع والإعجاب بالنفس في ذات الفرد.

والحل الوحيد لهذه الإشكالية هو البحث عن قوة خارقة تقوم بإحداث الزلزلة في كينونة الإنسان ومحتواه التكويني.

فإن قلت: وهل توجد قوة بهذه الصفات لا نعرفها؟!

.. نعم، هناك قوة بهذه الصفات توجد بيننا ولا نعرف قدرها ولا قيمتها.. إنها قوة تأثير «القرآن» الجبارة.

.. هذه القوة لا يوجد لها مثيل على وجه الأرض، لكن الله عَزَّوَجَلَّ جعل مجال عملها الرئيس هو قلب وعقل ونفس الإنسان.

فلو سُمح لهذه القوة أن تتوجه إلى جبل لحطمته: ﴿**لَوۡ أَنزَلۡنَا هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ عَلَىٰ جَبَلٖ لَّرَأَيۡتَهُۥ خَٰشِعٗا مُّتَصَدِّعٗا مِّنۡ خَشۡيَةِ ٱللَّهِۚ**﴾ [الحشر: ٢١].

ولو سُمح لهذه القوة أن تُحرك الجبال من مكانها وتسيرها لفعلت -بإذن الله-

ولو سمح لهذه القوة أن تُقطِّعَ الأرض لقطَّعتها: ﴿**وَلَوۡ أَنَّ قُرۡءَانٗا سُيِّرَتۡ بِهِ ٱلۡجِبَالُ**

﴿أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ [الرعد: ٣١] وجواب الشرط في الآية محذوف وتقديره: لكان هذا القرآن.

فقوة القرآن العظيم لا تضاهيها قوة على وجه الأرض.. هذه القوة الجبارة المزلزلة أودعها الله فيه لكي تصبح معجزته هي أعظم معجزة نزلت من السماء..

أعظم من معجزة موسى وعيسى وصالح عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ.

قال رسول الله ﷺ: «**مَا مِنَ الأَنْبِيَاءِ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا قَدْ أُعْطِيَ مِنَ الآيَاتِ مَا مِثْلُهُ آمَنَ عَلَيْهِ الْبَشَرُ، وإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيتُهُ وَحْيًا أَوْحَاهُ اللهُ إِلَيَّ، فَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ تَابِعًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ**»[١].

وهي معجزة باقية ببقاء القرآن إلى يوم القيامة، ومجال عملها الأساس هو كينونة الإنسان.. فإذا ما تم تسليطها عليه؛ فإنها تحطم الصخور الصلبة في محتواه التكويني.. تحطم التصورات والمعتقدات الخاطئة، وتحرره من أسر أغلاله، وتعيد صياغته من جديد عبدًا صالحًا مُصلحًا.

هذا القرآن هو الذي أعاد صياغة جيل الصحابة وصنع منهم ذلك الجيل القرآني الفريد.

.. وهذا القرآن هو المرشح الأول والمتفرد الذي يمكنه -بإذن الله- بناء الأمة من جديد وإعادتها إلى صحتها وعافيتها.

وضوح وصراحة

من هنا نعلنها بوضوح وصراحة أنه لا يمكن أن يتم التغيير للفرد بصورة

---

(١) رواه البخاري (٦/ ١٨٢ برقم: ٤٩٨١)، ومسلم (١/ ١٣٤ برقم: ١٥٢).

حقيقية، وعميقة، ومتوازنة، ومتكاملة، إلا بدخول قوة القرآن إلى ذات الإنسان، وأية وسيلة أخرى -مع أهميتها- إلا أنها لا يمكنها أن تفعل ما يفعله القرآن.

وغني عن البيان أن الكلام عن القرآن يشمل السنة النبوية بالتبعية، فالسنة شارحة للقرآن، مبينة لما أُجمل فيه: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٤٤].

..نعم، يمكن للوسائل الأخرى أن تكون وسائل إضافية تؤكد معاني القرآن وتشرح تطبيقاته، ولكنها بمفردها -بدون المعجزة التأثيرية للقرآن- لا تُحدث التغيير المنشود.

أتدري أخي لماذا؟

لأن مُنزل القرآن هو الذي خلقنا ويعلم سرائرنا ومشكلاتنا وأمراضنا وما نحتاج إليه.

.. الذي أنزله هو رب العالمين، الذي يقوم على أمر تربيتنا وتعاهدنا بما يصلحنا: ﴿قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الفرقان: ٦].

يقول صاحب الظلال: إن الناس يخسرون الخسارة التي لا يعارضها شيء بالانصراف عن هذا القرآن، وإن الآية الواحدة لتصنع أحيانًا في النفس حين تستمع لها وتنصت أعاجيب من الانفعال والتأثر والاستجابة(١).

وخلاصة القول:

إنه لن يتغير الفرد ولا الأمة ولن ينصلح حالها إلا إذا دخل القرآن بقوته المزلزلة

---

(١) في ظلال القرآن (٣/ ١٤٢٠).

إلى ذات الإنسان، وتم التعامل معه باعتباره الوسيلة المتفردة للتربية.

يقول محمد رشيد رضا: فصلاح هذه الأمة لا يصلح إلا بما صلح به أولها، ولقد صلحت أنفس العرب بالقرآن الكريم؛ إذ كانوا يتلونه حق تلاوته، فرفع أنفسهم وطهر قلوبهم، وأثر فيهم تأثيرًا بالغًا، وهذّب نفوسهم، وطهر عقولهم من خرافات الوثنية المُذلة للنفوس، ورفع أخلاقها، وأعلى هممها، ووصل بقلوبهم إلى ذروة التأثير والتأثر[١].

(١) تفسير المنار، نقلًا عن الإعجاز التأثيري في القرآن (ص: ١٠١، ١٠٢).

من نتائج عدم التغيير بالقرآن

لعدم الانتفاع بالقرآن في التغيير الحقيقي للفرد نتائج سيئة، تعرفنا على طرف منها في الأسطر السابقة، وإليك -أخي القارئ- طرفًا آخر.

استمرار الفرقة بين المسلمين

عندما نبتعد عن القرآن لن يحدث التغيير الحقيقي، ومِن ثَم يستمر اختلافنا وتفرقنا، لأن أسباب الفرقة والاختلاف إما شبهات أو شهوات، إما جهل بالحق، وإما شح مطاع وهوى متبع وإعجاب المرء برأيه.. والقرآن قادر -بإذن الله- أن يغير كل هذا وأن يجمع الأمة تحت رايته، كما حدث مع الجيل الأول: ﴿ **وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا** ﴾ [آل عمران: ١٠٣].

يقول رسول الله ﷺ: «**أَبْشِرُوا أَبْشِرُوا، أَلَيْسَ تَشْهَدُونَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَنِّي رَسُولُ اللهِ؟** قالوا: نعم، قال: **فَإِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ سَبَبٌ طَرَفُهُ بِيَدِ اللهِ وَطَرَفُهُ بِأَيْدِيكُمْ، فَتَمَسَّكُوا بِهِ، فَإِنَّكُمْ لَنْ تَضِلُّوا وَلَنْ تَهْلَكُوا بَعْدَهُ أَبَدًا**»(١).

استمرار الذل والهوان

من توابع عدم التغيير من خلال القرآن استمرار حالة الذل والهوان التي تعيشها الأمة، لأن رفعتها في الدنيا مرتبطة بـ:

---

(١) رواه ابن أبي شيبة في المصنف (٦/ ١٢٥ برقم: ٣٠٠٠٦)، وابن حبان (١/ ٣٢٩ برقم: ١٢٢)، والطبراني في الكبير (٢٢/ ١٨٨) عن أبي شريح الخزاعي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

أولًا: بتمثل رسالة الإسلام في أبنائها: ﴿**وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ** ١٣٩﴾ [آل عمران: ١٣٩].

وثانيًا: بقيامها بواجبها العظيم تجاه البشرية، وهو إقامة الحق والعدل فيها والتمكين للدعاة إلى الله أن يبلغوا دعوته لجميع الناس دون ضغوط من أحد: ﴿**كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ**﴾ [آل عمران: ١١٠].

وعندما تترُك الأمة القرآن، ولا يدخل أفرادها إلى دائرة تأثيره فإنهم لن يتغيروا، ولن تتمثل فيهم صفات أصحاب الرسالة، ومِن ثَم يحدث العكس، فيُترك الجهاد في سبيل الله، ويتصارع الناس على الدنيا وعلى تحصيل أسبابها، فيحق عليها العذاب من الله عَزَّوَجَلَّ بالذل والهوان.

فعندما ننتفع بالقرآن في التغيير يرفعنا الله إلى مكان القيادة في الأرض، وعندما نتركه ستجري علينا سنَّته الصارمة بالخذلان والذل والهوان، وهذا ما أخبرنا به محمد ﷺ: «**إِنَّ اللهَ يَرْفَعُ بِهَذَا الْكِتَابِ أَقْوَامًا وَيَضَعُ بِهِ آخَرِينَ**»[١].

ضياع البشرية

إن الإسلام هو الدين الخاتم، ورسالة الله الأخيرة للناس، ولقد كلف سبحانه أمة الإسلام في كل زمان ومكان أن تقوم بتبليغه إلى جميع البشر على وجه الأرض لإقامة الحُجة عليهم، واستنقاذ كل من بداخله خير مخبوء ممن لا يمنعهم عن الإسلام إلا الجهل به.

---

(١) رواه مسلم (١/ ٥٥٩ برقم: ٨١٧).

ولقد كلف الله عَزَّوَجَلَّ أمة الإسلام كذلك بقيادة البشرية، وأن تقيم فيها ميزان الحق والعدل: ﴿حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٩٣].

﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

وعندما تترك الأمة وظيفتها فماذا تظن أن يحدث للبشرية؟! أليس الضياع والشقاء والبؤس واستعلاء الظلم والفساد؟!

فقل لي بربك أليس هذا هو الحادث الآن؟!

.. فكل يوم يمر والمسلمون في غفلة عن دينهم تخسر البشرية فيه خسارة فادحة، ويزداد شقاؤها وتعاستها، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

غياب الربانية

الربانية هي الاتصال الدائم بالله عَزَّوَجَلَّ، والتعلق التام به، فينعكس ذلك على مشاعرنا وعقولنا، فيكون سبحانه هو الأسبق لقلوبنا عند التعرض للشدائد والمضايقات.

الربانية تعني الربط الدائم لأحداث الحياة بالله عَزَّوَجَلَّ، وتعني كذلك الحضور القلبي الدائم معه سبحانه، والتعلق التام به، وهي شرط الولاية والعزة للفرد والأمة: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ فِي هَٰذَا لَبَلَاغًا لِّقَوْمٍ عَابِدِينَ ﴿١٠٦﴾﴾ [الأنبياء: ١٠٥، ١٠٦].

وأفضل وسيلة لتحقيقها هي القرآن: ﴿كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ [آل عمران: ٧٩].

يقول خباب بن الأرت رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: تقرب إلى الله عَزَّوَجَلَّ بما استطعت؛ فإنك لن تقرب إليه بشيء أحب إليه من كلامه[1].

فإن لم ننتفع بالقرآن وندخل إلى دائرة تأثيره، وإن لم تحل روحه في قلوبنا فستغيب معاني الربانية، وسيقل بشكل مفزع وجود الربانيين في الأمة، وستعلو رايات المادية، وسترتفع قيمها الفاسدة، ويزداد الانجذاب نحو الأرض والطين.

القلق والاضطراب النفسي

قال تعالى: ﴿ **وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا** ﴾ [طه: ١٢٤].

فالقرآن يجمع هَمَّ القلب، ويوجهه نحو الله، وعندما نبتعد عنه تتفرق الهموم، ويزداد الشعور بالغم، والقلق والاكتئاب.

ويحكي أحد الأصدقاء المشتغلين بالدعوة عن تجربته في هذا الأمر فيقول: لقد كنت أتحرك بالدعوة ولكنني كنت أعاني من ضغوط نفسية دفعتني للذهاب لعيادة الطب النفسي، فنصحني الطبيب المعالج بتناول أقراص مضادات الاكتئاب، ففعلت ذلك لعدة سنوات، وعندما بدأت أقترب -قليلًا- من القرآن بمعناه الحقيقي حدث تحول إيجابي في حالتي النفسية، وبفضل الله تركت تناول الدواء، ولم يحدث لي ما كان يحدث في الماضي... ولم لا وقد قال تعالى:

﴿ **يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ** ﴾ [يونس: ٥٧].

---

(١) رواه أحمد بن حنبل في الزهد (برقم: ١٩٢).

الفصل الخامس

أخطاؤنا مع القرآن

أخطاؤنا مع القرآن

القرآن الكريم له قيمة وقدر عظيم عند الله عَزَّوَجَلَّ، ولقد أكرم الله سبحانه أمة الإسلام به لكي يقوم بتغيير أبنائها، وهدايتهم للصراط المستقيم وتأهيلهم للقيام بالوظيفة المتفردة في قيادة البشرية:

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَـٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ﴾ [البقرة: ١٤٣].

وعندما لا يتعامل المسلمون مع القرآن بما يستحقه من التقدير والإجلال؛ فإن الله عَزَّوَجَلَّ سيغضب لكتابه وسيعاقب الأمة عقوبات متدرجة ومتصاعدة.. وهذا ما حدث بالفعل، ولعل أخطر تلك العقوبات: الحرمان من روحه وتأثيره البالغ على كينونة الإنسان، وقدرته -بإذن الله- على تغييره كما يحب الله ويرضى.

وأخطر من ذلك هو عدم الشعور بالحرمان تجاه القرآن، وذلك من خلال تخفيف القرآن في قلوبنا.

ومعنى تخفيف القرآن أي: إضعاف وتقليل مهابته في قلوبنا، حتى يصير كالثوب البالي الذي لا يؤبه له، ولا يُنظر إليه، ولا يُرغب فيه.

وللأسف كلما تعاملنا مع القرآن تعاملًا خاطئًا؛ زاد الحرمان، وزاد تخفيف مهابته في قلوبنا، ولو استمر الوضع على ذلك المنوال لحدثت الكارثة الكبرى برفع القرآن، وكيف لا؟ وقد أخبرنا رسول الله ﷺ بأنه سيرفع في آخر الزمان.

أخطاؤنا مع القرآن

لو تأملنا أفعالنا مع القرآن لوجدنا أننا نقوم بأعمال كثيرة خاطئة من شأنها الاستدعاء المستمر لعقوبة الحرمان.

ومن أهم تلك الأفعال الخاطئة[1]:

- الجفاء عن القرآن.
- التوجه نحو الكتب قبل القرآن.
- الإسراع في حفظ ألفاظه دون العمل بها.
- البث المستمر للقرآن دون الاستماع والإنصات إليه.
- الإسراع في قراءته دون تفكر.
- التعمق في إقامة حروفه، وإهمال العمل به.
- تلحين القرآن، وغير ذلك.

(١) بفضل الله عَزَّوَجَلَّ تم الحديث عن أسباب عدم الانتفاع بالقرآن الكريم في كتاب (تحقيق الوصال بين القلب والقرآن) وسنجتهد بعون الله عَزَّوَجَلَّ في هذه الصفحات في استكمال الموضوع من زاوية أخطائنا مع القرآن.

من أخطائنا مع القرآن:

الجفاء عن القرآن

جفا عن الشيء أي ابتعد عنه ولم يلتزمه كما قال الله تعالى في حق المتهجدين بالليل: ﴿ **تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ** ﴾ [السجدة: ١٦].

والمقصد من الجفاء عن القرآن هو البعد عنه وعدم التزامه، وذلك من خلال عدم المداومة على قراءته، ومرور الأوقات دون الالتقاء به.

ويشمل ذلك أيضًا عدم التفكر فيه؛ لأن المقصد من قراءته هو فهم المقصود من آياته والتفكر فيها ليحدث من وراء ذلك -بإذن الله- دوام التذكر والاعتبار والانتباه. وشيئًا فشيئًا يصل مدلوله إلى القلب فيرسخ فيه وبهذا يتحقق معنى التدبر، ويكون الاتباع انعكاسًا لهذا كله، فإن لم يحدث التدبر كان التذكر الناتج عن التفكر وما يؤدي إليه من انتباه واتباع يمثل الحد الأدنى المطلوب بإذن الله.

النعمة العظمى

إن القرآن المجيد هو النعمة العظمى التي اختص الله -جل شأنه- بها أمة الإسلام دون غيرها من الأمم، ليقوم أفرادها بالاهتداء بهديه والاستشفاء بشفائه، ثم ينطلقوا بعد ذلك في الأرض ليقيموا دينه فيها، ويكونوا بمثابة قادة للبشرية فيضعوا فيها ميزان الحق والعدل: ﴿ **كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ** ﴾ [آل عمران: ١١٠].

ولا يمكن لأمة الإسلام أن تقوم بهذه الوظيفة الخطيرة في الأرض إلا إذا تمثل القرآن في أبنائها خلقًا وسلوكًا، وهذا يستدعي دوام الاتصال به والاغتراف من ينابيع الهدى والإيمان المتفجرة من آياته بإذن الله.

.. هذا على مستوى الأمة؛ أما على مستوى الفرد فإن طبيعة المعركة بين الشيطان والإنسان، والتي يستخدم فيها الشيطان كل أساليب الغواية والإضلال، ويستغل جهل النفس وولعها الدائم بتحصيل الشهوات؛ تستدعي وجود مصدر فذّ ومتفرد لمواجهة هذا كله، والانتصار الدائم على النفس والهوى والشيطان وزخرف الدنيا.. وهذا ما يفعله القرآن الحكيم إذا ما داوم المرء على الاتصال به: ﴿ **قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ** ﴾ [فصلت: ٤٤].

كل هذا وغيره يؤكد لنا أهمية المداومة اليومية والمكث المتكرر مع القرآن، فلا صلاح ولا فلاح، للفرد أو الأمة دون التزود اليومي بجرعة كبيرة من القرآن.

.. من هنا ندرك بعض الحِكَم من أسرار التوجيه الإلهي للرسول ﷺ وللمؤمنين بالمداومة على تلاوة القرآن، كقوله تعالى: ﴿ **ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ** ﴾ [العنكبوت: ٤٥].

وقوله: ﴿ **وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَـٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٧﴾** ﴾ [الكهف: ٢٧].

وقوله: ﴿ **إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَـٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩١﴾ وَأَنْ أَتْلُوَا۟ ٱلْقُرْءَانَ** ﴾ [النمل: ٩١، ٩٢].

وقوله: ﴿ **إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَـٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَـٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾** ﴾ [فاطر: ٢٩].

وغني عن البيان أن معنى يتلو: يتبع، فإننا نقول: جاء فلان يتلوه فلان، أي جاء خلفه وتبعه، ويؤكد ذلك قوله تعالى: ﴿ **وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا ﴿١﴾ وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ﴿٢﴾** ﴾ [الشمس: ١، ٢].

لماذا يحافظ مريض السكر على الدواء يوميًا؟

إن مريض السكر يلزمه دائمًا أن يداوم على تناول دوائه بصورة يومية منتظمة، وذلك لتجنب ارتفاع نسبة السكر في الدم، ومِن ثَمَّ ظهور أعراض المرض ومضاعفاته عليه، كذلك القرآن؛ من الضروري أن يحافظ المرء على لقائه اليومي به، وإلا ستظهر النتائج السلبية من غفلة ونسيان لله، ومن غلبة الهوى، وقسوة القلب، وضيق الصدر، وتقوية داعي الشيطان: ﴿**وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا**﴾ [الجن: ١٧].

من هنا ندرك بعضًا من أسباب التوجيه بالمداومة على التلاوة اليومية مهما كانت الظروف من مرض أو سفر أو انشغالات، ولك أخي القارئ أن تتأكد من هذا المعنى من قوله تعالى: ﴿**إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ ۚ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ ۚ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ ۙ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ ۚ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا ۚ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌۢ**﴾ [المزمل: ٢٠].

ومما يؤكد ضرورة المداومة اليومية على قراءة القرآن، وتخصيص (وِرد) أو (قدر ما) يكون بمثابة «جرعة ثابتة»؛ ما أخبرنا به رسول الله ﷺ عن وجود مساحة زمنية محدودة لمن حالت ظروفه دون قراءة وِرده في ليلة (ما) بأن يقوم بقراءته ما بين صلاة الفجر والظهر.. يقول ﷺ: «**مَنْ نَامَ عَنْ حِزْبِهِ أَوْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ فَقَرَأَهُ فِيمَا بَيْنَ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَصَلَاةِ الظُّهْرِ كُتِبَ لَهُ كَأَنَّمَا قَرَأَهُ مِنَ اللَّيْلِ**»(١).

---

(١) رواه مسلم (١/ ٥١٥ برقم: ٧٤٧).

وهذا يدل دلالة واضحة على ضرورة التزام القرآن والمداومة على الاتصال به، وأنَّ من فاته ذلك في ليلة من الليالي لأي ظرف كان؛ فعليه أن يسعى لتحصيله في أقرب وقت.

المداومة والاتباع

إن من أهم مقتضيات تقدير القرآن: عدم هجره، وأخطر صور هجره هو هجر المداومة على تلاوته، أو بمعنى آخر: معاملته بجفاء، ونكرر بأن المقصد بتلاوته: اتباعه والسير وراء توجيهاته بالعمل والتطبيق: ﴿ **ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ** ﴾ [الأعراف: ٣].

﴿ **فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ١٥٧** ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

والمتأمل للسنة النبوية يجدها تدعو المسلمين إلى المداومة على قراءة القرآن وعدم الجفاء عنه.. يقول رسول الله ﷺ:

«**اقْرَءُوا الْقُرْآنَ فَإِنَّهُ يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ شَفِيعًا لأَصْحَابِهِ**»(١).

ويقول ﷺ: «**اقْرَءُوا الْقُرْآنَ، وَلَا تَغْلُوا فِيهِ، وَلَا تَجْفُوا عَنْهُ، وَلَا تَأْكُلُوا بِهِ، وَلَا تَسْتَكْثِرُوا بِهِ**»(٢).

وينبه الرسول ﷺ على ضرورة المداومة والتعاهد للقرآن وإلا فالعقوبة الفورية في الانتظار؛ لأن القرآن كما علمنا ربنا: ﴿ **وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٞ ٤١** ﴾ [فصلت: ٤١]،

---

(١) رواه مسلم (١/ ٥٥٣ برقم: ٨٠٤).

(٢) رواه الإمام أحمد في المسند (٢٤/ ٢٨٨ برقم: ١٥٥٢٩)، وقوله: ولا تغلوا فيه بأن تبذلوا جهدكم في قراءته وتجويده من غير تفكر كما قال في الحديث الآخر لم يفقه من قرأ القرآن في أقل من ثلاث، وقوله: لا تستكثروا به: أي لا تجعلوه سببًا للإكثار من الدنيا (المناوي في فيض القدير: ٢/ ٨٣).

فهو يعامل العبد على أساس معاملته له، فإن هجره وجفاه، ثم أراد أن يعود إليه ففي الغالب لن يجد روحه ونوره وأثره في انتظاره، وعليه أن يبذل مجهودًا كبيرًا لكي يعود الاتصال بينه وبين القرآن، وهذا ما عبر عنه قوله ﷺ: «**تَعَاهَدُوا الْقُرْآنَ فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَهُوَ أَشَدُّ تَفَصِّيًا مِنَ الإِبِلِ مِنْ عُقُلِهَا**»(١).

وقوله: «**بِئْسَمَا لأَحَدِهِمْ أَنْ يَقُولَ: نَسِيتُ آيَةَ كَيْتَ وَكَيْتَ، بَلْ نُسِّي، وَاسْتَذْكِرُوا الْقُرْآنَ، فإِنَّهُ أَشَدُّ تَفَصِّيًا مِنْ صُدُورِ الرِّجَالِ مِنَ النَّعَمِ**»(٢).

واستذكار القرآن هو المداومة على تلاوته والاجتهاد في تذكر معاني آياته، وما فتح الله على العبد منها من معان إيمانية هادية وشافية... والله أعلم.

حال المؤمن مع القرآن

حين يدرك المؤمن قيمة القرآن وقدره، ويستشعر عظيم احتياجه الدائم إليه، فإنه سيكون على اتصال مستمر به، وإن آل ذلك إلى ترك نومه وملاذِّه، ومِن ثَمَّ فمن المتوقع أن تجده يسهر معه بالليل حيث السكون والهدوء، وكلما نادته نفسه بالنوم قاومها من أجل الاستمرار مع صاحبه القرآن، فيؤدي هذا إلى شحوب وجهه من قلة الراحة، ولعلنا من خلال هذا التوصيف ندرك معنى تمثُّل القرآن لصاحبه يوم القيامة على صورة رجل شاحب، وكأنه يريه حاله الذي كان عليه في الدنيا.

عن بريدة الأسلمي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ قال: «**يَجِيءُ الْقُرْآنُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَالرَّجُلِ الشَّاحِبِ، فَيَقُولُ: أَنَا الَّذِي أَسْهَرْتُ لَيْلَكَ وَأَظْمَأْتُ نَهَارَكَ**»(٣).

---

(١) رواه البخاري (٦/ ١٩٣ برقم: ٥٠٣٣)، ومسلم (١/ ٥٤٥ برقم: ٧٩١) عن أبي موسى الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) رواه البخاري (٦/ ١٩٣ برقم: ٥٠٣٢)، ومسلم (١/ ٥٤٤ برقم: ٧٩٠) عن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) رواه أحمد في المسند (٣٨/ ٤١ برقم: ٢٢٩٥٠)، وابن ماجه (٤/ ٧٠٠ برقم: ٣٧٨١)، واللفظ له، وحسنه=

إنه لشيء رائع تلك العلاقة التي تنشأ بين من يلتزم القرآن في ليله ونهاره، وبين القرآن ذاته، والتي تظهر نتيجتها في أوقات الشدائد، وأهمها يوم القيامة.

عن أبي أمامة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: أمرنا رسول الله بتعلم القرآن، وحثنا عليه، وقال: **«إِنَّ الْقُرْآنَ يَأْتِي أَهْلَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَحْوجَ مَا كَانُوا إِلَيْهِ، فَيَقُولُ لِلْمُسْلِمِ: أَتَعْرِفُنِي؟ فَيَقُولُ: مَنْ أنتَ؟ فَيَقُولُ: أَنَا الَّذِي كُنْتُ تُحِبُّ.. وتَكْرَهُ أَنْ يُفارِقَكَ.. الَّذِي كَانَ يَسْحَبُكَ ويُدْنِيكَ، فَيَقُولُ: لَعَلَّكَ الْقُرْآنُ؟! فَيَقْدَمُ بِهِ إِلَى رَبِّهِ عَزَّوَجَلَّ، فيُعْطَى الْمُلْكَ بيَمِينِهِ، وَالْخُلْدَ بِشِمَالِهِ، وُيُوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ السَّكينَةُ، ويُنْشَرُ عَلَى أَبَوَيْهِ حُلَّتَانِ لَا يَقُومُ لَهُمَا أَهْلُ الدُّنْيَا فَيَقُولَانِ: لِأَيِّ شَيْءٍ كُسِينَا هَذه وَلَمْ تَبْلُغْهُ أَعْمَالُنَا؟! فَيَقُولُ: هَذَا بِأَخْذِ وَلَدِكُمَا الْقُرْآنَ»**(١).

تأمل قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«كَانَ يَسْحَبُكَ ويُدْنِيكَ»** وأطلق -أخي- لذهنك العنان في التفكير في معانيها...

- ■ فهو الذي كان يسحبك من فراشك ويدنيك من ربك.
- ■ وهو الذي كان يسحبك من شهواتك وغفلاتك ويدنيك إلى دوام تذكرك وتقواك.
- ■ وهو الذي كان يسحبك إلى فعل الخير، ويدنيك من ساحة البر.

وعن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا **قال:** يجيء القرآن يشفع لصاحبه، يقول: يا رب لكل عامل عُمَالة من عمله، وإني كنت أمنعه اللذة والنوم، فأكْرِمه، فيقال: ابسط يمينك،

=ابن حجر في المطالب العالية (٤/ ٦٦)، وقوله: «كالرجل الشاحب» قال السيوطي: هو المتغير اللون والجسم لعارض من العوارض كمرض أو سفر ونحوهما، وكأنه يجيء على هذه الهيئة ليكون أشبه بصاحبه في الدنيا، أو للتنبيه له على أنه كما تغير لونه في الدنيا لأجل القيام بالقرآن كذلك القرآن لأجله في السعي يوم القيامة حتى ينال صاحبه الغاية القصوى في الآخرة.

(١) رواه الطبراني في الكبير (٨/ ٣٥٠ برقم: ٨١١٩)، وابن الضريس في فضائل القرآن (ص: ٥٦).

فيُملأ من رضوان الله، ثم يُقال: ابسط شمالك، فيُملأ من رضوان الله، ويُكسى كسوة الكرامة، ويُحلى بحلية الكرامة، ويُلبس تاج الكرامة[١].

من هنا ندرك أن الذي يلتزم القرآن ولا يجفو عنه يضع نفسه في أفضل صورة يمكن أن يكون عليها المؤمن.. يقول رسول الله ﷺ: «**لَا حَسَدَ إِلَّا فِي اثْنَتَيْنِ: رَجُلٌ عَلَّمَهُ اللهُ الْقُرْآنَ فَهُوَ يَتْلُوهُ آنَاءَ اللَّيْلِ وَآنَاءَ النَّهَارِ، فَسَمِعَهُ جَارٌ لَهُ فَقَالَ: لَيْتَنِي أُوتِيتُ مِثْلَمَا أُوتِي فُلَانٌ فَعَمِلْتُ مِثْلَمَا يَعْمَلُ، وَرَجُلٌ آتَاهُ اللهُ مَالًا فَهُوَ يُهْلِكُهُ فِي الْحَقِّ، فَقَالَ رَجُلٌ: لَيْتَنِي أُوتِيتُ مِثْلَمَا أُوتِي فُلَانٌ فَعَمِلْتُ مِثْلَمَا يَعْمَلُ**»[٢].

ويكفي أن المسلم بهذه الحالة من الالتزام بالقرآن وعدم الجفاء عنه يكون ممن يحبهم الله عَزَّوَجَلَّ، فعن أبي ذر الغفاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعًا: «**ثَلَاثَةٌ يُحِبُّهُمُ اللهُ**.. وَذَكَرَ مِنْهُمْ: **وَقَوْمٌ سَارُوا لَيْلَتَهُمْ حَتَّى إِذَا كَانَ النَّوْمُ أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِمَّا يُعْدَلُ بِهِ؛ نَزَلُوا فَوَضَعُوا رُؤُوسَهُمْ، فَقَامَ يَتَمَلَّقُنِي، وَيَتْلُو آيَاتِي**»[٣].

إن الاتصال الدائم بالقرآن يعني استمرار اليقظة والتذكر والحضور القلبي مع الله.. جاء رجل إلى أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وقال: أوصني. فقال: سألتَ عما سألتُ عنه رسولَ الله ﷺ من قبلك، فقال: «**أُوصِيكَ بِتَقْوَى اللهِ؛ فَإِنَّهُ رَأْسُ كُلِّ شَيْءٍ، وَعَلَيْكَ بِالْجِهَادِ؛ فَإِنَّهُ رَهْبَانِيَّةُ الإِسْلَامِ، وَعَلَيْكَ بِذِكْرِ اللهِ وَتِلَاوَةِ الْقُرْآنِ؛ فَإِنَّهُ رُوْحُكَ فِي السَّمَاءِ، وَذِكْرٌ لَكَ فِي الأَرْضِ**»[٤].

---

(١) رواه الدارمي في السنن (٤/ ٢٠٨٨ برقم: ٣٣٥٥).

(٢) رواه البخاري (٦/ ١٩١ برقم: ٥٠٢٦).

(٣) رواه أحمد (٣٥/ ٢٨٥ برقم: ٢١٣٥٥)، والترمذي (٤/ ٦٩٨ برقم: ٢٥٦٨)، وقال: حديث صحيح، والنسائي (٣/ ٢٠٧ برقم: ١٦١٥).

(٤) رواه أحمد (١٨/ ٢٩٧ برقم: ١١٧٧٤).

أخطار الجفاء عن القرآن

عندما يصل الإنسان إلى سِن التكليف فإنه يبدأ السير في رحلة العودة إلى الله، ويشرع في أداء امتحان عبادته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بالغيب، شاء أم أبى.. تذكَّر أم نسي.. انتبه أو غفل.. صدَّق أو كذَّب.. آمن أو كفر.

ومن رحمة الله بعباده أنْ أكرمهم بالقرآن الكريم كوسيلة متفردة للإقناع والإيمان بهذه الحقيقة، والتذكير الدائم بها، والإعانة -بإذن الله- على القيام بواجباتها، لذلك كان من الضروري أن يتواصلوا معه بشكل يومي دائم حتى يحقق هدفه فيهم، ويوم أن يغفلوا عنه فإنهم يُعرِّضون أنفسهم لمخاطر جمَّة، منها على سبيل المثال لا الحصر:

أولاً: استدعاء عقوبة الغفلة والإعراض عن آيات الله

لقد خلقنا الله عَزَّوَجَلَّ لنعبده بالغيب، والعبادة تتضمن كمال الحب، وكمال الذل والافتقار إليه، والطاعة والانقياد له، والمهابة والخشية منه، ودوام التقوى والشكر.

ولا يمكن أن تتمثل فينا هذه المعاني إلا من خلال معرفة الله جل شأنه، فالمعاملة على قدر المعرفة، ولقد أتاح لنا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ الطريق السليم لمعرفته من خلال معلومات عنه جل شأنه بثها في الكون، وضمَّنها القرآن، وسمّاها بالآيات، فالنظر في تلك الآيات واستنطاقها للتعرف على الله من خلالها هو الهدف الأساس من وجودها: ﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى

تَجۡرِي فِي ٱلۡبَحۡرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٖ فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٖ وَتَصۡرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلۡمُسَخَّرِ بَيۡنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ١٦٤﴾ [البقرة: ١٦٤].

فإن قلت: ولكنه يصعب عليَّ فهم الآيات واستنطاقها، والتعرف على الله من خلالها.. فماذا أفعل؟

جاءك بفضل الله الجواب بأنه سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ أنزل كتابًا يتضمن أعظم آياته الدالة عليه، وما علينا إلا أن نداوم على قراءته والتفكر فيه حتى نصل لهدفنا المنشود..

ويكفيك تأكيدًا لهذا المعنى قوله تعالى: **﴿وَقَالُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَٰتٞ مِّن رَّبِّهِۦۖ قُلۡ إِنَّمَا ٱلۡأٓيَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٞ مُّبِينٌ ٥٠ أَوَلَمۡ يَكۡفِهِمۡ أَنَّآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحۡمَةٗ وَذِكۡرَىٰ لِقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ٥١﴾** [العنكبوت: ٥٠، ٥١].

ولأن الهدف من التفكر في الآيات هو دوام التذكر وزيادة المعرفة التي تؤدي إلى تحقيق معاني العبودية، والتي يأتي على رأسها (التقوى): كان من أهم أهداف القرآن هو تحقيق ذلك: **﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا وَصَرَّفۡنَا فِيهِ مِنَ ٱلۡوَعِيدِ لَعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ أَوۡ يُحۡدِثُ لَهُمۡ ذِكۡرٗا ١١٣﴾** [طه: ١١٣].

﴿وَلَقَدۡ ضَرَبۡنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٖ لَّعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ ٢٧ قُرۡءَانًا عَرَبِيًّا غَيۡرَ ذِي عِوَجٖ لَّعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ ٢٨﴾ [الزمر: ٢٧، ٢٨].

ولكي تتحقق أهداف تلاوة هذا الكتاب في نفس المسلم وقلبه وعقله من تذكرة وتقوى لا بد من دوام قراءته والتفكر فيه، فإن لم يفعل ذلك وضع نفسه في دائرة الغافلين، المنكبين على أنفسهم، اللاهين عن وظيفتهم الوحيدة التي من

أجلها خلقوا: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَـٰذَا غَـٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾﴾ [الأعراف: ١٧٢].

فالإعراض عن الاتصال بالقرآن يُعرِّض صاحبه لعقوبة المعرضين عن آيات الله، الغافلين عنها: ﴿فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ ۚ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا ۗ سَنَجْزِى ٱلَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ ءَايَـٰتِنَا سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْدِفُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [الأنعام: ١٥٧].

إن الأمر جد خطير: ﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴿١﴾ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٢﴾ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ ۗ﴾ [الأنبياء: ١ – ٣].

﴿أَفَمِنْ هَـٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ﴿٥٩﴾ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ﴿٦٠﴾﴾ [النجم: ٥٩، ٦٠].

من هنا يتبين لنا الأهمية القصوى للاتصال الدائم بالقرآن، والتفكر فيه، والانتفاع بآياته.. يقول رسول الله ﷺ: «**مَنْ قَامَ بِعَشْرِ آيَاتٍ لَمْ يُكْتَبْ مِنَ الْغَافِلِينَ، وَمَنْ قَامَ بِمِائَةِ آيَةٍ كُتِبَ مِنَ الْقَانِتِينَ، وَمَنْ قَامَ بِأَلْفِ آيَةٍ كُتِبَ مِنَ الْمُقَنْطِرِينَ**»(١).

ومن أخطار الجفاء عن القرآن:

ثانيًا: أنه دليل على عدم الاهتمام والتوقير للقرآن

لو أنك قابلت رجلًا ذا جاه ومكانة عظيمة بين الناس، وتعرفت عليه، وطلبت منه زيارتك في منزلك، ثم جاءك في الموعد المحدد فلم يجدك، وانتظرك طويلًا

---

(١) رواه أبو داود (٢/ ٥٤٥ برقم: ١٣٩٨)، وابن خزيمة (٢/ ١٨١ برقم: ١١٤٤)، وابن حبان (٦/ ٣١٠ برقم: ٢٥٧٢).

فلم تأت، ثم انصرف، أترى لو قابلته بعد ذلك وطلبت منه تكرار الزيارة سيفعل كما فعل من قبل؟!

وتُراه لو كان قد وجدك في المرة الأولى لكنك لم تجلس معه، ولم تُحسِن ضيافته، وانشغلت بأمور بيتك عنه، هل سيكرر تلك الزيارة؟!

هذه المواقف إذا ما حدثت بيننا على أرض الواقع؛ فإننا لن نستنكر رد فعل الرجل ذي المكانة العظيمة على تجاهلك له، فكيف بالقرآن العظيم، المجيد، ذي الشرف، أحسن الحديث، الحكمة البالغة؟!

ألا تتوقع حين نتجاهل القرآن -وهو بيننا- أن تنزل علينا العقوبات؟!

إن القرآن كتاب عزيز، ذو مكانة بالغة الشرف والعلو، فإن لم يتم الاهتمام بوجوده بالشكل الذي يليق به؛ فسيتباعد عنا، ويفلت أثره وروحه ونوره من بيننا.. يقول رسول الله ﷺ: «**إِنَّمَا مَثَلُ صَاحِبِ الْقُرْآنِ كَمَثَلِ الإِبِلِ الْمُعَقَّلَةِ، إِنْ عَاهَدَ عَلَيْهَا أَمْسَكَهَا وَإِنْ أَطْلَقَهَا ذَهَبَتْ**»(١).

ففي الحديث تشبيه بتعاهد القرآن والمداومة على قراءته والاتصال به، بربط البعير الذي يخشى منه الشرود، فكلما حدث التعاهد للقرآن، حدث الانتفاع به والوصال مع روحه، «كما أن البعير ما دام مشدودًا بالعقال فهو محفوظ وموجود، وخص الإبل بالذكر لأنها أشد الحيوان الإنسي نفورًا، وفي تحصيلها بعد استمكان نفورها صعوبة»(٢).

ويؤكد هذا المعنى قوله ﷺ: «**تَعَلَّمُوا كِتَابَ اللهِ، وَتَعَاهَدُوهُ، وَتَغَنَّوا بِهِ، فَوَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَهُوَ أَشَدُّ تَفَلُّتًا مِنَ الْمَخَاضِ فِي الْعُقُلِ**»(٣).

---

(١) رواه مسلم (١/ ٥٤٣ برقم: ٧٨٩).

(٢) منهج السلف في العناية بالقرآن لبدر بن ناصر البدر (ص: ٤٧).

(٣) رواه الإمام أحمد في المسند (٢٨/ ٥٥٤ برقم: ١٧٣١٧) عن عقبة بن عامر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ومن الأخطار كذلك:

ثالثًا: قسوة القلب

هناك معركة شرسة يخوضها الشيطان مع بني آدم ليضلهم عن سبيل الله: ﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمۡ عَدُوّٞ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّاۚ إِنَّمَا يَدۡعُواْ حِزۡبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ٦﴾ [فاطر: ٦].

ويدخل الشيطان على الإنسان من بابي الشبهات والشهوات، ويستغل جهله، وولوع نفسه بتحصيل الشهوات، وحب الاستمتاع الدائم بها؛ لتنفيذ مخططاته، وليس ذلك فحسب، بل إن الدنيا التي جعلها الله عَزَّوَجَلَّ مكانًا لاختبار الناس في عبوديتهم له بالغيب، مليئة بالزينة والزخارف المُلهية: ﴿إِنَّا جَعَلۡنَا مَا عَلَى ٱلۡأَرۡضِ زِينَةٗ لَّهَا لِنَبۡلُوَهُمۡ أَيُّهُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗا ٧﴾ [الكهف: ٧].

فإذا ما استسلم العبد لوساوس الشيطان وهوى نفسه، وافتتن بالدنيا، فإن ذلك يعرضه لقسوة قلبه تجاه حقائق الإيمان، فلا تجده ينتفع بموعظة، ولا تذكرة.

لذلك كان من الأهمية بمكان تعاهد القلب وإمداده بالإيمان بحقائق الوجود حتى يظل حيًّا نابضًا، وأفضل وسيلة لذلك هي القرآن: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡۖ﴾ [الأنفال: ٢٤].

قال قتادة في قوله تعالى: ﴿لِمَا يُحۡيِيكُمۡۖ﴾ قال: هو هذا القرآن، فيه النجاة والبقاء والحياة[1].

لقد أنزل الله لنا القرآن كدواء يشفينا ويُعيننا -بإذن الله- على استمرار حياة القلب وعدم استيلاء الهوى عليه، ومن ثَمَّ فينبغي تناول هذا الدواء كل يوم بكمية معتبرة حتى يحقق هدفه -بإذن الله- فإن فات المرء ذلك فقد عرّض نفسه لأخطار

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٢/ ٢٧٣).

جمة، ويكفي في بيان هذا الأمر قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الحديد: ١٦].

تأمل قوله تعالى: ﴿فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الحديد: ١٦] أي: طال عليهم الزمن بلا تذكير فنتج عن ذلك قسوة قلوبهم.

ويؤكد الصحابي أبو موسى الأشعري رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ على هذا المعنى فيقول في نصيحته إلى قُرَّاء البصرة: اتلوه، ولا يطولن عليكم الأمد فتقسو قلوبكم كما قست قلوب من كان قبلكم(١).

ومن أقوال ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: إن بني إسرائيل لما طال عليهم الأمد، فقست قلوبهم، اخترعوا كتابًا من عند أنفسهم، استهوته قلوبهم، واستحلته ألسنتهم، وكان الحق يَحول بينهم وبين كثير من شهواتهم، حتى نبذوا كتاب الله وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون(٢).

ومن أخطار الجفاء عن القرآن:

رابعًا: غياب الأثر

إن الأثر الذي يحدثه اللقاء الدائم بالقرآن يتعدى الفرد إلى المحيط الذي يتعامل معه، وعندما يجفو المؤمن عن القرآن يضعف هذا الأثر ويغيب، ويؤكد هذا المعنى قوله ﷺ: «**مَثَلُ الْمُؤْمِنِ الَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ مَثَلُ الْأُتْرُجَّةِ؛ رِيحُهَا طَيِّبٌ وَطَعْمُهَا طَيِّبٌ، وَمَثَلُ الْمُؤْمِنِ الَّذِي لَا يَقْرَأُ الْقُرْآنَ مَثَلُ التَّمْرَةِ؛ لَا رِيحَ لَهَا وَطَعْمُهَا حُلْوٌ، وَمَثَلُ الْمُنَافِقِ الَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ**

(١) رواه مسلم (٢/ ٧٢٦ برقم: ١٠٥٠).

(٢) رواه البيهقي في شعب الإيمان (١٠/ ٧١: ٧١٨٣).

مَثَلُ الرَّيحَانَةِ، رِيحُهَا طَيِّبٌ وَطَعْمُهَا مُرٌّ، وَمَثَلُ الْمُنَافِقِ الَّذِي لَا يَقْرَأُ الْقُرْآنَ كَمَثَلِ الْحَنْظَلَةِ، لَيْسَ لَهَا رِيحٌ وَطَعْمُهَا مُرٌّ»[(١)].

فالطعم يشعر به من يتناوله فقط، أما الريح فيشعر بها من حوله، وهذا يدل على أن الملتزم بالقرآن غير الجافي عنه، والمُتفكِّر فيما يتلوه هو الأكثر تأثيرًا في الآخرين.

يقول ابن حجر: الحكمة في تخصيص الأُترُجَّة بالتمثيل دون غيرها من الفاكهة التي تجمع طيب الطعم والريح لأنه يتداوى بقشرتها، وقيل إن الجن لا تقرب البيت الذي فيه الأترج، فناسب أن يمثل به القرآن الذي لا تقربه الشياطين، وغلاف حبه أبيض، فيناسب قلب المؤمن، وفيها أيضًا من المزايا كبر جرمها (حجمها)، وحُسن منظرها، وتفريح لونها، ولين ملمسها، وفي أكلها مع الالتذاذ؛ طيب نكهة، ودباغ معدة، وجودة هضم، ومنافع أخرى[(٢)]. بينما التمرة مهما كان عندك منها الكثير، فلا يشعر أحد بذلك ممن حولك.

ومن أخطار الجفاء عن القرآن:

خامسًا: نسيان معاني القرآن

من الضروري أن يتذكر المسلم بصورة دائمة المعاني التي تعلمها من القرآن في التلاوة أو المدارسة، وهذا لن يتم بدون المداومة على الاتصال به والتفكر في آياته. وإذا جفا عنه فبمرور الوقت سينسى ما تعلمه.

جاء في الحديث: « **بِئْسَمَا لأَحَدِهِمْ أَنْ يَقُولَ: نَسِيتُ آيَةَ كَيْتَ وَكَيْتَ، بَلْ نُسِّي، وَاسْتَذْكِرُوا الْقُرْآنَ، فَإِنَّهُ أَشَدُّ تَفَصِّيًا مِنْ صُدُورِ الرِّجَالِ مِنَ النَّعَمِ»**[(٣)].

---

(١) رواه البخاري (٦/ ١٩٠ برقم: ٥٠٢٠)، ومسلم (١/ ٥٤٩ برقم: ٧٩٧) واللفظ له.

(٢) فتح الباري (٩/ ٦٦، ٦٧).

(٣) رواه البخاري (٦/ ١٩٣ برقم: ٥٠٣٢)، ومسلم (١/ ٥٤٤ برقم: ٧٩٠) عن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وقال أبو العالية: كنا نعُدُّ من أعظم الذنوب أن يتعلم الرجل القرآن ثم ينام عنه حتى ينساه[(١)].

لذلك نجد النهي عن توسد القرآن، ومدح من لا يتوسده، فقد ذُكر عند النبي ﷺ رجل (وهو شُرَيْحُ الحَضْرَميُّ) فقال: «**ذَاكَ رَجُلٌ لَا يَتَوَسَّدُ الْقُرْآنَ**»[(٢)]. أي لا ينام عن القرآن.

وسُئل أحمد بن صالح عن ذلك فقال: يعني يقوم به الليل ولا ينام.

وقيل للحسن: يا أبا سعيد؛ ما تقول في رجل استظهر القرآن كله عن ظهر قلبه فلا يقوم به، إنما يُصلي المكتوبة. فقال: يتوسد القرآن؟!! لعن الله ذاك[(٣)].

ومن أخطار الجفاء عن القرآن:

سادسًا: الحرمان من الثواب والأجر

القرآن الكريم له مكانة عظيمة عند الله -جل شأنه-، وله وظيفة متفردة في إحياء القلب وتغيير السلوك؛ ولقد رتب الله -جل شأنه- على قراءته ثوابًا عظيمًا تشجيعًا وتحفيزًا للمسلمين على مداومة قراءته، وغني عن البيان أن المقصود بقراءته: تفهمه والتفكر في معانيه واتباع توجيهاته.

وكما هو معلوم بأن كلمة (اقرأ) في كل لغات العالم تعني: اقرأ وافهم، فلا توجد كتب تُقرأ بلا فهم، وكتب أخرى تُقرأ بفهم، فينبغي أن يتبادر للذهن عند سماع كلمة (اقرأ) أن المقصود هو القراءة بفهم...

ولئن كان هذا أمرًا بدهيًا عند الجميع؛ فإننا بحاجة إلى تأكيده دومًا فيما يخص

---

(١) الزهد لأحمد بن حنبل (برقم: ١٧٤٧).

(٢) رواه أحمد (٢٤/ ٥٠٠ برقم: ١٥٧٢٤)، والنسائي (٣/ ٢٥٦ برقم: ١٧٨٣)، وصححه ابن حجر في الإصابة: (٣/ ٣٣٩).

(٣) الطبري في التفسير (٢٣/ ٦٩٨).

قراءة القرآن، حتى لا يُصبح متفردًا بكونه الكتاب الوحيد في العالم الذي يُقرأ بلا فهم، تحت دعوى البحث عن الأجر والثواب المترتب على قراءته، والتي وردت به أحاديث متعددة.

ونحن هنا نتحدث عن الأخطار التي يواجهها من ترك القراءة الصحيحة للقرآن، والتي تتضمن الحرمان من الثواب المُترتب عليها.

وهذا خطر عظيم، فالمسلم دومًا بحاجة إلى استمطار رحمة الله ومغفرته من خلال القيام بالأعمال التي ندبه إليها، والتي من شأنها أن تثقل موازينه يوم القيامة بإذن الله. وعندما يجفو المسلم القرآن فإنه يحرم نفسه من ثواب عظيم كان في متناول يده بإذن الله، فالحرف بعشر حسنات، والله يضاعف لمن يشاء.

عن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**اقْرَءُوا الْقُرْآنَ فَإِنَّكُمْ تُؤْجَرُونَ عَلَيْهِ، أَمَا إِنِّي لَا أَقُولُ: (ألم) حَرْفٌ، وَلَكِنْ أَلِفٌ عَشْرٌ، وَلَامٌ عَشْرٌ، وَمِيمٌ عَشْرٌ، فَتِلْكَ ثَلَاثُونَ**»(١). وعنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ قَرَأَ حَرْفًا مِنْ كِتَابِ اللهِ فَلَهُ بِهِ حَسَنَةٌ، وَالْحَسَنَةُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا، لَا أَقُولُ (ألم) حَرْفٌ، وَلَكِنْ أَلِفٌ حَرْفٌ، وَلَامٌ حَرْفٌ، وَمِيمٌ حَرْفٌ**»(٢).

ومن أخطار الجفاء عن القرآن:

سابعًا: الحرمان من البركة والخير

فالبركة تعني النماء، ولقد وردت أحاديث وآثار عن الصحابة بأن البيت الذي يُقرأ فيه القرآن بصفة عامة، وسورة البقرة بصفة خاصة، يكثر خيره وبركته، وتحضره الملائكة، وتفر منه الشياطين، وفي المقابل فمن جفا عن القرآن فقد عرَّض نفسه

---

(١) رواه الخطيب في تاريخ بغداد (١/ ٣٠١).

(٢) رواه الترمذي (٥/ ١٧٥ برقم: ٢٩١٠) عن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعًا، وقال: حسن صحيح غريب.

للحرمان من هذا الخير، يقول رسول الله ﷺ: «..**اقْرَءُوا سُورَةَ الْبَقَرَةِ؛ فَإِنَّ أَخْذَهَا بَرَكَةٌ، وَتَرْكَهَا حَسْرَةٌ، وَلاَ تَسْتَطِيعُهَا الْبَطَلَةُ**». قال معاوية: بلغني أن البطلة: السحرة[(١)].

وعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا عن النبي ﷺ قال: «**اجْعَلُوا مِنْ صَلاَتِكُمْ فِي بُيُوتِكُمْ، وَلَا تَجْعَلُوهَا عَلَيْكُمْ قُبُورًا، كَمَا اتَّخَذَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى فِي بُيُوتِهِمْ قُبُورًا، وَإِنَّ الْبَيْتَ لَيُتْلَى فِيهِ الْقُرْآنُ فَيَتَرَاءَى لأَهْلِ السَّمَاءِ كَمَا تَتَرَاءَى النُّجُومُ لأَهْلِ الأَرْضِ**»[(٢)].

وعن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي ﷺ قال: «**الْبَيْتُ إِذَا قُرِئَ فِيهِ الْقُرْآنُ حَضَرَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَتَنَكَّبَتْ عَنْهُ الشَّيَاطِينُ وَاتَّسَعَ عَلَى أَهْلِهِ، وَكَثُرَ خَيْرُهُ، وَقَلَّ شَرُّهُ، وَإِنَّ الْبَيْتَ إِذَا لَمْ يُقْرَأْ فِيهِ الْقُرْآنُ حَضَرَتْهُ الشَّيَاطِينُ، وَتَنَكَّبَتْ عَنْهُ الْمَلَائِكَةُ، وَضَاقَ عَلَى أَهْلِهِ، وَقَلَّ خَيْرُهُ، وَكَثُرَ شَرُّهُ**» [(٣)].

وعن ابن سابط أن النبي ﷺ قال: «**الْبَيْتُ الَّذِي يُقْرَأُ فِيهِ الْقُرْآنُ يَكْثُرُ خَيْرُهُ، وَيُوَسَّعُ عَلَى أَهْلِهِ، وَيَحْضُرُهُ الْمَلَائِكَةُ، وَيَهْجُرُهُ الشَّيَاطِينُ، وَإِنَّ الْبَيْتَ الَّذِي لَا يُقْرَأُ فِيهِ: يَضِيقُ عَلَى أَهْلِهِ، وَيَقِلُّ خَيْرُهُ، وَيَهْجُرُهُ الْمَلَائِكَةُ، وَيَحْضُرُهُ الشَّيَاطِينُ، وَإِنَّ الْبَيْتَ الَّذِي يُقْرَأُ فِيهِ الْقُرْآنُ وَيُنَوَّرُ فِيهِ يُضِيءُ لأَهْلِ السَّمَاءِ كَمَا يُضِيءُ النَّجْمُ الأَرْضَ**» قال: ثم قال رسول الله ﷺ: «**بَشِّرِ الْمَشَّائِينَ فِي الظُّلَمِ إِلَى الْمَسَاجِدِ بِنُورٍ مِنَ اللهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**».

قال معمر: وسمعت رجلًا من أهل المدينة يقول: إن أهل السماء ليتراؤون البيت الذي يُقرأ فيه القرآن ويُصلَّى فيه كما يتراءى أهل الدنيا الكوكب الذي في السماء[(٤)].

---

(١) رواه مسلم (١/ ٥٥٣ برقم: ٨٠٤).

(٢) ذكره الذهبي في سير أعلام النبلاء (٨/ ٢٩) عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، وقال: حديث نظيف الإسناد حسن المتن.

(٣) رواه محمد بن نصر في مختصر قيام الليل (٢٠٧).

(٤) مصنف عبد الرزاق (٣/ ٣٦٩ برقم: ٥٩٩٩).

وعن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: **«إِنَّ أَصْفَرَ الْبُيُوتِ مِن الخَيْرِ: البَيْتُ الصِّفْرُ[١] مِن كِتَابِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ»[٢]. فأي خسارة نخسرها وتخسرها بيوتنا بالجفاء عن القرآن؟!**

عن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: البيت الذي لا يُقرأ فيه القرآن كمثل البيت الخرب الذي لا عامر له[٣].

وكان أبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول: البيت إذا تلي فيه كتاب الله اتسع بأهله، وكثُر خيره، وحضرته الملائكة، وخرجت منه الشياطين، والبيت الذي لم يتل فيه كتاب الله ضاق بأهله، وقل خيره، وتنكبت عنه الملائكة، وحضره الشياطين[٤].

وعن سلام بن أبي مطيع قال: كان قتادة يقول: اعمروا به قلوبكم، واعمروا به بيوتكم، قال: أراه يعني: القرآن[٥].

أخي.. يا حسرتنا على ما فاتنا من خير!!

عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: البيت الذي يُقرأ فيه القرآن كالبيت الذي فيه المصباح، والبيت الذي لا يُقرأ فيه القرآن كالحُشِّ[٦].

فلننتبه ولنتذكر قول ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: ما يمنع أحدكم إذا رجع من سوقه، أو من حاجته؛ فاتكأ على فراشه، أن يقرأ ثلاث آيات من القرآن[٧].

---

(١) الصفر هو الخالي.

(٢) رواه الطبراني في مسند الشاميين (٣/ ٣٠٩ برقم: ٢٣٥٥).

(٣) مصنف ابن أبي شيبة (٦/ ١٢٧ برقم: ٣٠٠٢٢).

(٤) مصنف ابن أبي شيبة (٦/ ١٢٧ برقم: ٣٠٠٢٧)، وفضائل القرآن لمحمد بن الضريس (ص:٩٠).

(٥) سنن الدارمي (٤/ ٢١٠٦ برقم: ٣٣٨٥).

(٦) عزاه الغافقي في لمحات الأنوار (١/ ٢٨٧) إلى إسحاق بن إبراهيم في كتاب النصائح، والحُش: مكان قضاء الحاجة، وفيه الأذى والقذر والأنجاس.

(٧) رواه الدارمي (٤/ ٢١٠١ برقم: ٣٣٧٩).

.. ومن أخطار الجفاء عن القرآن:

ثامنًا: الدخول في دائرة شكوى النبي ﷺ

تعرض النبي ﷺ في طريق دعوته إلى أذى وابتلاءات وإعراض الناس عنه، لكن نجد أن شكواه الوحيدة التي ذكرت في القرآن كانت فيمن هجر القرآن، كما في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوۡمِى ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ مَهۡجُورٗا﴾ [الفرقان: ٣٠].

ويعلق عبدالحميد بن باديس رَحِمَهُ ٱللَّهُ على هذه الآية فيقول:

«في شكوى النبي -ﷺ- من هجر القرآن دليل على أن ذلك من أصعب الأمور عليه، وأبغضها لديه، وفي حكاية القرآن لهذه الشكوى وعيد كبير للهاجرين بإنزال العقاب بهم إجابة لشكوى نبيه، ولما كان الهجر طبقات أعلاها عدم الإيمان به فلكل هاجر حظه من هذه الشكوى وهذا الوعيد»(١).

تاسعًا: أخطار ما بعد الموت

إن أخطار الجفاء عن القرآن لا تقتصر على الحياة الدنيا فقط، بل تمتد إلى الحياة البرزخية واليوم الآخر كذلك؛ روى البخاري من حديث سمرة بن جندب رؤيا النبي ﷺ وفيها: «**فَانْطَلَقْنَا حَتَّى أَتَيْنَا عَلَى رَجُلٍ مُضْطَجِعٌ عَلَى قَفَاهُ، وَرَجُلٌ قَائِمٌ عَلَى رَأْسِهِ بِفِهْرٍ أَوْ صَخْرَةٍ، يَشْدَخُ بِهَا رَأْسَهُ، فَإِذَا ضَرَبَهُ تَدَهْدَهَ الْحَجَرُ، فَانْطَلَقَ إِلَيْهِ لِيَأْخُذَهُ فَلَا يَرْجِعُ إِلَى هَذَا حَتَّى يَلْتَئِمَ رَأْسُهُ، وَعَادَ رَأْسُهُ كَمَا هُوَ، فَعَادَ إِلَيْهِ فَضَرَبَهُ، قُلْتُ: مَنْ هَذَا؟ قَالَا: انْطَلِقْ**».

وفي آخر الحديث: «**وَالَّذِي رَأَيْتَهُ يُشْدَخُ فِي رَأْسِهِ؛ فَرَجُلٌ عَلَّمَهُ اللهُ الْقُرْآنَ، فَنَامَ عَنْهُ بِاللَّيْلِ، وَلَمْ يَعْمَلْ فِيهِ بِالنَّهَارِ، يُفْعَلُ بِهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ**»(٢).

---

(١) آثار الشيخ عبدالحميد بن باديس (١/ ٤٠٧).

(٢) رواه البخاري (٢/ ١٠٠ برقم: ١٣٨٦).

التطبيق العملي
عند الجيل الأول للالتزام بالقرآن وعدم الجفاء عنه

للجفاء عن القرآن -كما مر علينا- عقوبات ومخاطر متعددة، تشمل الدنيا والآخرة، وفي الالتزام به والمداومة على تلاوته تحصيل خيرات الدنيا والآخرة، ولقد تمثل هذا المعنى بوضوح في واقع حياة الرسول ﷺ، وصحابته الكرام، فقد كانوا شديدي الحرص على تلاوته بشكل يومي مهما كانت مشاغلهم، بل إنهم كانوا يضعونه في مقدمة أعمالهم إذا ما تعارضت.

عن أوس بن حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال: كنت في الوفد الذين أتوا النبي ﷺ أسلموا من ثقيف فأنزلنا في قبة له، فكان يختلف إلينا بين بيوته وبين المسجد، فإذا صلى العشاء الآخرة انصرف إلينا، ولا نبرح حتى يحدثنا ويشتكي قريشًا، ويشتكي أهل مكة، ثم يقول: « **لَا سَوَاءَ، كُنَّا بِمَكَّةَ مُسْتَذَلِّينَ وَمُسْتَضْعَفِينَ، فَلَمَّا خَرَجْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ كَانَتْ سِجَالُ الْحَرْبِ عَلَيْنَا وَلَنَا** ». فمكث عنا ليلة لم يأتنا حتى طال ذلك علينا بعد العشاء، قال: قلنا: ما أمكثك عنا يا رسول الله؟ قال: «**طَرَأَ عَلَيَّ حِزْبِي مِنَ الْقُرْآنِ، فَأَرَدْتُ أَلَّا أَخْرُجَ حَتَّى أَقْضِيَهُ**»[(١)].

---

(١) رواه أحمد (٢٦/ ٨٨ برقم: ١٦١٦٦)، وابن ماجه (٢/ ٣٦٩ برقم: ١٣٤٥)، وأبو داود (٢/ ٥٤٠ برقم: ١٣٩٣)، وحسنه ابن كثير في فضائل القرآن (ص: ٨٣).

والقبة: هي الخيمة الصغيرة أعلاها مستدير أو البناء المستدير المقوس المجوف.. ويراوح: يَعْتَمِد على إحدَاهما مرةً وعلى الأخرى مرةً ليُوصل الراحةَ إلى كل منهما.. والحرب سجال: مَرَّة لنا ومَرَّة علينا ونصرتها متداولة بين الفريقين، احتبس: تأخر، اللبث: الإبطاء والتأخير والانتظار والإقامة، طرأ علي: يريد أنه قد أغفله من وقته، ثم ذكره فقرأه، والحزب: ما يجعله الرجُل على نفسه من قراءة كالورْد.

وعن عبد الرحمن بن عبدٍ القاري قال: استأذنت على عمر بالهاجرة[١]، فحبسني طويلًا ثم أذِن لي، وقال: كنت في قضاء وردي[٢].

وكان أبو موسى الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول: إني لأستحي ألا أنظر كل يوم في عهد ربي مرة[٣].

وكان عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إذا دخل بيته نشر المصحف وقرأ فيه[٤].

ودخلوا على عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وهو يقرأ في المصحف فقال: إني لأكره أن يأتي عليَّ يوم لا أنظر في المصحف[٥].

وكان عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إذا أصبح أمر غلامه فنشر المصحف.

وكان الحسن بن علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا يقرأ ورده من أول الليل، وكان حُسين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقرؤه من آخر الليل[٦].

وعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: إني لأقرأ جزئي -أو قالت: سُبعي- وأنا جالسة على فراشي، أو على سريري[٧].

وعن إبراهيم قال: كان أحدهم إذا بقي عليه في جزئه شيء فنشط، قرأه بالنهار،

(١) حر الظهيرة.

(٢) فضائل القرآن لأبي عبيد (ص: ١٨٥).

(٣) ذكره القرطبي في التفسير (١/ ٢٨).

(٤) تفسير الطبري (١١/ ٤٩٩).

(٥) رواه البيهقي في الأسماء والصفات (١/ ٥٩٣).

(٦) رواه القاسم بن سلام في الفضائل (ص: ١٨٦).

(٧) فضائل القرآن للفريابي (ص: ٢٣٠)، والقاسم بن سلام (ص: ١٨٦).

أو قرأه من ليلة أخرى، وربما زاد أحدهم[١].

وبعد أن بعث رسول الله ﷺ معاذ بن جبل ثم أبا موسى الأشعري رضي الله عنهما إلى اليمن؛ كانا يلتقيان، فقال معاذ لأبي موسي: كيف تقرأ القرآن؟ فقال: أتفوقه تفوقًا[٢]، قال: فكيف تقرأ أنت يا معاذ؟ قال: أنام أول الليل، فأقوم وقد قضيت جزئي من النوم، فأقرأ ما كتب الله لي فأحتسب نومتي كما أحتسب قومتي[٣].

ولقد تجلى حرص الصحابة على عدم الجفاء عن القرآن حتى في المعارك الطويلة التي كانت تمتد أيامًا، وأقدم لك أخي القارئ مثالًا على ذلك في فتح بلاد فارس وانتصار المسلمين على الفرس في القادسية، فلقد كتب سعد بن أبي وقاص كتابًا إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنهما يخبره بالفتح قال فيه:

«أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّ اللَّهَ نَصَرَنا عَلى أَهْلِ الفُرْسِ وَمَنَحَهُمْ سَنَنَ مَن كانَ قَبْلَهُمْ مِن أَهْلِ دِينِهِمْ، بَعْدَ قِتالٍ طَوِيلٍ، وزِلْزالٍ شَدِيدٍ، وقَدْ لَقُوا المسلمين بِعِدَّة لَمْ يَرَ الرَّاءونَ مِثْلَ زُهَائِها، فَلَمْ يَنْفَعْهُمُ اللَّهُ بِذَلِكَ، بَلْ سُلِبُوهُ ونَقَلَهُ عَنْهُمْ إلى المُسْلِمِينَ، واتَّبَعَهُمُ المُسْلِمُونَ عَلى الأَنْهارِ، وصُفُوفِ الآجام، وفِي الفِجاجِ، وأُصِيبَ مِنَ المُسْلِمِينَ سَعْدُ بْنُ عُبَيْدِ القَارِّيُّ وفُلانٌ وفُلانٌ، ورِجَالٌ لا يَعْلَمُهُمْ إلّا اللَّهُ، فَإِنَّهُ بِهِمْ عَالِمٌ كَانُوا يُدَوُّونَ بِالقُرْآنِ إذا جَنَّ عَلَيْهِمُ اللَّيْلُ كَدَوِيِّ النَّحْلِ، وهُمْ آسَادٌ فِي النَّهَارِ لا تُشْبِهُهُمُ الأُسُودُ، ولَمْ يَفْضُلْ مَن مَضى مِنهُمْ مَن بَقِيَ إلَّا بِفَضْلِ الشَّهادَةِ إذا لَمْ تُكْتَبْ لَهُمْ»[٤].

وفي فتوحات الشام -كما أورد ابن كثير في البداية والنهاية- قال الوليد بن مسلم:

(١) فضائل القرآن لأبي عبيد (ص: ١٨٧).

(٢) أي أقرؤه مُتَمَهِّلاً شيئاً بعد شيء بتدبر وتفكر (لسان العرب ٢/ ٥٧٩).

(٣) رواه البخاري (٥/ ١٦١ برقم: ٤٣٤١).

(٤) تاريخ الطبري (٢/ ٤٣٥)، والبداية والنهاية (٧/ ٥٤).

أخبرني من سمع يحيى بن يحيى الغساني يحدث عن رجلين من قومه قالا: لمَّا نزلَ المسلمون بناحيةِ الأردن تحدثنا بيننا أن دمشق ستحاصر فذهبنا نتسوق منها قبل ذلك، فبينما نحن فيها إذ أرسل إلينا بطريقها فجئناه، فقال: أنتم من العرب؟ قلنا: نعم، قال: وعلى النصرانية؟، قلنا: نعم، فقال: ليذهب أحدكما فليجسس لنا عن هؤلاء القوم ورأيهم، وليثبت الآخر على متاع صاحبه. ففعل ذلك أحدنا فلبث مليًا ثم جاءه فقال: جئتك من عند رجال دقاق يركبون خيولًا عتاقًا، أما الليل فرهبان، وأما النهار ففرسان.. لو حدثت جليسك حديثًا ما فهمه عنك لما علا من أصواتهم بالقرآن والذكر. فقال: فالتفت إلى أصحابه وقال: أتاكم منهم ما لا طاقة لكم به[1].

واقعنا والجفاء عن القرآن

إذا تأملنا واقعنا مع القرآن، وبيوتنا مع القرآن، وليلنا مع القرآن فسنوقن أننا قد تجافينا عنه، فمن النادر أن تجد من بيننا من يحافظ على حزبه، ولو حافظ عليه فبدون تفكر فيما يقرأ، ومن السهل أن تمر علينا الأيام والليالي دون الاقتراب من المصحف، وما أيسر التعلل بأي ظرف طارئ لترك التلاوة، ثم بعد ذلك نشتكي من قسوة القلوب، وضيق الصدور، وعدم التوفيق، و... وإنا لله وإنا إليه راجعون.

---

(١) البداية والنهاية (٨/ ١٧، ١٨).

ومن أخطائنا مع القرآن:

التوجه الدائم نحو الكتب قبل القرآن

من أشد وأخطر الممارسات الخاطئة التي وقعنا فيها وتلبسنا بها، واستدعت مزيدًا من الحرمان من روح القرآن وأثره: التوجه الدائم نحو الكتب في تحصيل المعرفة، وترك القرآن وعدم البدء به.

وكأني -أخي القارئ- أشعر بك وأنت تتمتم قائلًا: وما الضير في ذلك؟! أليست الكتب النافعة هي مصدر تحصيل العلم والمعرفة؟ ألم يكن هذا فعل أبناء الأمة على مر عصورها؟!

الإجابة عن هذه الأسئلة تستلزم طرح بعض النقاط التي تشكل منطلقًا أساسيًا لفهم قضية التعامل مع الكتب وعلاقتها بالقرآن العظيم، والتي تتناول الحديث عن قدره وقيمته العلمية، ومكانة السنة النبوية، وأهمية الكتابة والكتب، شريطة ألا تتعدى القرآن وتحتل مكانته.

قيمة القرآن العلمية

لقد اختص الله عَزَّوَجَلَّ الأمة الإسلامية بأعظم رسالة، فقد أنزل إليها القرآن العظيم الذي يحوي كل ما يحتاجه الفرد من العلم النافع اللازم لنجاحه في اختبار العبودية لله جل شأنه، فالقرآن يعد بمثابة أعظم أستاذ، وأهم مصدر للعلم على وجه الأرض: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠].

وهو المنبع الصافي العذب الزلال لتحصيل العلم والإيمان: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْۚ﴾ [العنكبوت: ٥١].

فلا يوجد للقرآن مثيل: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: ٨٩].

فحق على من تعلَّم القرآن -كما يقول الضَّحاك- أن يكون فقيهًا: ﴿وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّۦنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ [آل عمران: ٧٩].

وصدق عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: إذا أردتم العلم فأثيروا القرآن[١].

ولقد كان الصحابة -رضوان الله عليهم- يتعاملون مع القرآن على هذا الأساس، يقول التابعي الجليل مسروق بن الأجدع: ما نسأل أصحاب محمد عن شيء إلا وعلمه في القرآن[٢].

وعندما بكى الحارث بن عميرة عند احتضار معاذ بن جبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فسأله عن بكائه فقال: أبكي على ما فاتني منك.

فقال له معاذ: إن العلم مكانه بين لوحي المصحف[٣].

وكيف لا؟ وكما يقول القرطبي بأن القرآن حوى جميع العلوم، فمن قرأه بتدبر وفهم، وعمل بمقتضاه فقد حصل الغاية القصوى التي ليس لأحد وراءها مرمى[٤].

روى أبو إسماعيل الهروي أنه ما خطب عمر بن عبد العزيز على منبر النبي ﷺ إلا قال: تعلموا القرآن وعلموه، فبه فقه الفقهاء، وبه علم العلماء، وهو غاية كل فقه[٥].

---

(١) أخرجه ابن المبارك في الزهد (برقم: ٨١٤)، والقاسم بن سلام في فضائل القرآن (ص: ٩٦)، ويقال: (أثار الأمر) أي: بحثه واستقصاه، (ويثير القرآن): أي يُنَقِّر عنه ويُفكّر في معانيه.

(٢) أخرجه القاسم بن سلام في فضائل القرآن (ص: ٩٦).

(٣) رواه البزار من مسند معاذ بن جبل (٧/ ١١٤ برقم: ٢٦٧١).

(٤) التذكار في أفضل الأذكار للقرطبي (ص: ٥٤).

(٥) الهروي في ذم الكلام وأهله (٣/ ٢١٣).

تبيانًا لكل شيء

وفي كتابه (الإتقان في علوم القرآن) أفرد الإمام السيوطي بابًا لهذا المعنى سماه: العلوم المستنبطة من القرآن الكريم؛ قال فيه: قال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ [النحل: ٨٩].

وقال رسول الله ﷺ: «**سَتَكُونُ فِتَنٌ، فَقِيلَ: وَمَا الْمَخْرَجُ مِنْهَا؟ قَالَ: كِتَابُ اللهِ، فِيهِ نَبَأُ مَا قَبْلَكُمْ، وَخَبَرُ مَا بَعْدَكُمْ، وَحُكْمُ مَا بَيْنَكُمْ..**»[(١)].

وقال ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: من أراد العلم فليُثوِّر القرآن؛ فإن فيه علم الأولين والآخرين[(٢)]، قال البيهقي: يعني أصول العلم.

وقال الإمام الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ:

جميع ما حكم به النبي فهو مما فهمه من القرآن[(٣)].

وقال سعيد بن جبير رَحِمَهُ اللَّهُ: ما بلغني حديث عن رسول الله ﷺ على وجهه إلا وجدت مصداقه في كتاب الله عَزَّ وَجَلَّ[(٤)].

وقال ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: إذا حدثتكم بحديث أتيتكم بتصديق ذلك من كتاب

---

(١) رواه الترمذي (٥/ ١٧٢ برقم: ٢٩٠٦)، وقال: غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه، وقال ابن كثير في التفسير(١/ ٢١): «قصارى هذا الحديث أن يكون من كلام أمير المؤمنين علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وقد وهم بعضهم في رفعه، وهو كلام حسن صحيح على أنه قد روي له شاهد عن عبد الله بن مسعود عن النبي ﷺ»، والشاهد رواه أبو عبيد في فضائل القرآن (ص: ٤٩، ٥٠) والحاكم في المستدرك (١/ ٧٤١ برقم: ٢٠٤٠).

(٢) رواه الإمام أحمد في الزهد (برقم: ٨٥٦).

(٣) ذكرها عنه ابن تيمية في مقدمة أصول التفسير (ص: ٣٩).

(٤) ابن أبي حاتم في التفسير (٦/ ٢٠١٥).

الله[١].

وقال الإمام الشافعي أيضًا: ليست تنزل بأحد في الدين نازلة إلا في كتاب الله الدليل على سبيل الهدى فيها، فإن قيل: من الأحكام ما ثبت ابتداءً بالسُّنة، قلنا: ذلك مأخوذ من كتاب الله في الحقيقة، لأن كتاب الله أوجب علينا اتباع الرسول ﷺ، وفرض علينا الأخذ بقوله[٢].

وقال الحافظ السيوطي: قد اشتمل كتاب الله العزيز على كل شيء، أما أنواع العلوم فليس منها باب ولا مسألة هي أصل إلا وفي القرآن ما يدل عليها[٣].

مكانة السنة النبوية

السنة النبوية تأتي في المرتبة الثانية بعد القرآن الكريم وهي تابعة له تشرحه، وتبين ما أجمل فيه: ﴿**وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ**﴾ [النحل: ٤٤].

وهي الوحي الثاني.. قال رسول الله ﷺ: «**إِنِّي قَدْ خَلَفْتُ فِيكُمُ اثْنَيْنِ لَنْ تَضِلُّوا بَعْدَهُمَا أَبَدًا، كِتَابَ اللهِ وَسُنَّتِي، وَلَنْ يَتَفَرَّقَا حَتَّى يَرِدَا عَلَى الْحَوْضِ**»[٤].

فعندما نتحدث عن القرآن فالسُّنة تلحق به بالتبعية.

يقول الشيخ عبد الفتاح أبو غدة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: السنة والكتاب توأمان لا ينفكان، ولا يتم التشريع إلا بهما جميعًا، والسنة مبينة للكتاب، وشارحة له، وموضحة لمعانيه،

---

(١) رواه الطبراني في الكبير (٩/ ٢٦٦)، والحاكم في المستدرك (٢/ ٤٦١ برقم: ٣٥٨٩) وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي، وحسن إسناده الهيثمي في مجمع الزوائد (٣/ ٥٤).

(٢) الإتقان في علوم القرآن للسيوطي (٤/ ٢٩).

(٣) الإتقان في علوم القرآن للسيوطي (٤/ ٣٨).

(٤) رواه البزار (١٥/ ٣٨٥ برقم: ٨٩٩٣)، والحاكم (١/ ١٧٢ برقم: ٣١٩).

ومُفسرة لمبهمه، فهي من الكتاب بمنزلة الشرح له، يُفصِّل مقاصده، ويُتم أحكامه[1].

وقد أتى رجل إلى عمران بن حصين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فسأله عن شيء، فحدثه، فقال الرجل: حدثوا عن كتاب الله ولا تحدثوا عن غيره.

فقال عمران بن حصين: إنك امرؤٌ أحمق! أتجد في كتاب الله تعالى صلاة الظهر أربعًا لا يُجهر فيها؟! وعدَّد الصلوات وعدد الزكاة ونحوها، ثم قال: أتجد هذا في كتاب الله مُفسرًا؟ إن كتاب الله قد أحكم ذلك، والسُّنة تُفسر ذلك[2].

عقوبة متوقعة

عندما يكون القرآن بهذا القدر العظيم عند الله عَزَّوَجَلَّ والذي ذكرنا نزرًا يسيرًا منه، وعندما يختص الله به المسلمين دون غيرهم من الأمم السابقة، ثم يتركونه إلى غيره بحثًا عن المعرفة والهداية والتغيير.. فماذا تظن أن تكون النتيجة؟ ألا توافقني أن هناك عقوبة لا بد أن تقع؟

فلو تخيلنا أن عالمًا وأستاذًا عظيمًا في الهندسة -مثلًا- أراد أن يكتب كتابًا مبسطًا يشرح فيه فرعًا من العلوم التي نبغ فيها والذي يحتاجه طلاب الهندسة احتياجًا شديدًا، وأنفق من وقته وماله الكثير في سبيل إتمام هذا الكتاب، ثم قام بتوزيعه على الطلاب بالمجان حبًا فيهم ورغبة في إفادتهم وعدم تشتتهم، فإذا به يجدهم غير مبالين بكتابه، وغير مهتمين به، بل يؤثرون عليه كتبًا أخرى أقل في المحتوى والقيمة والإفادة منه، فما ظنك في ردة فعله؟ هل سيستمر في توزيع كتابه عليهم؟ وهل ستستمر طريقة تعامله معهم على ما كانت من قبل؟

---

(١) لمحات من تاريخ السنة لعبد الفتاح أبو غدة.

(٢) رواه عبد الله بن المبارك في مسنده (ص: ١٤٣).

هذا المثال الذي إذا ما حدث بيننا يجعلنا لا نستنكر ما قد يقوم به هذا العالم في التعبير عن غضبه تجاه كتابه، والذي قد يدفعه إلى حجب الكتاب عن الطلبة وحرمانهم منه.

ولله المثل الأعلى.. فكيف بالقرآن العظيم الذي أنزله رب العالمين ليكون لهم معلمًا ونذيرًا وهاديًا وشافيًا بإذنه؟! ألا تتوقع أن يغضب الله لكتابه؟!

القرآن في واد والناس في واد

كلما تعودنا البحث في الكتب لطلب العلم والمعرفة؛ ازداد تقليلنا لشأن القرآن وقيمته العلمية والإيمانية دون أن نشعر، فالترتيب الطبيعي أن تتجه العقول والقلوب نحو القرآن العظيم بتلقائية عند البحث عن موضوع ما، فإن لم نجد بحثنا في السنة، ثم ننتقل إلى الكتب الأخرى إذا أردنا معرفة بعض المعاني الغامضة علينا، أو ما كان فيه التباس واستشكال على عقولنا، فإذا لم يحدث ذلك، وتعود المرء على التوجه مباشرة نحو الكتب لطلب العلم والمعرفة لأمر ما؛ فإن ذلك يؤدي تدريجيًا إلى تخفيف قدر القرآن في قلبه، وإضعاف الثقة فيه، وكلما ضعفت الثقة زاد البعد وقلت الهيبة وكثر الامتهان.

كل ذلك من شأنه أن يستدعي العقوبة من الله عَزَّوَجَلَّ بمزيد من إبعاد روح القرآن وتأثيره حتى لا يقدر المسلمون منه على شيء، وبتعاقب الأجيال وعدم القدرة على تحصيل شيء من أثر القرآن وروحه، يتسرب تدريجيًا في نفوس المسلمين أن ما نفعله مع القرآن هو الصحيح، ويجتهدون في ربط كل ما ورد عن فضائل القرآن بما يفعلونه، ويتوهمون أن القرآن يعطيهم سعة في الرزق أو بركة في العمر أو صلاحًا للأولاد.

فينطبق عليهم قول الرسول ﷺ: «**يَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ الْقُرْآنُ فِي وَادٍ وَهُمْ فِي وَادٍ غَيْرِهِ**»[١].

انحراف بني إسرائيل

لقد كان انحراف بني إسرائيل عن صراط الله ماثلًا دائمًا في مخيلة الرسول ﷺ، والمتأمل لأحاديثه عنهم يستشعر هذا الأمر، وكان ﷺ شديد الانتباه والحذر من وقوع أمة الإسلام فيما وقعت فيه بنو إسرائيل من أخطاء والتي كان من أبرزها: إهمالهم التوراة وانشغالهم بكتب علمائهم، كما سيأتي بيانه.

من هنا ندرك بعضًا من أسباب تشديده ﷺ للصحابة على عدم الكتابة خلفه، والاكتفاء بحفظ أحاديثه.

ولقد سار الصحابة رَضِيَ اللهُ عَنْهُم على نهجه -كما سنرى بعون الله- وعلى رأسهم الخلفاء الراشدون، وكما ورد في الحديث: «**عَلَيْكُمْ بِسُنَّتِى وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ، عَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ**»[٢].

جواز الكتابة وتدوين العلم

اتفقت الأمة على جواز الكتابة، وتدوين العلم، وهذا كلام صحيح، وعللوا نهي الرسول ﷺ عن الكتابة بأسباب وجيهة منها ما ذكره الخطيب البغدادي في كتابه تقييد العلم بقوله: فقد ثبت أن كراهة من كره الكتاب في الصدر الأول، إنما هي لئلا يضاهى بكتاب الله غيره، أو يشتغل عن القرآن بسواه، ونهى عن الكتب

(١) الحكيم الترمذي في نوادر الأصول (٤/ ٩٨).

(٢) رواه الإمام أحمد في المسند (٢٨/ ٣٦٧ برقم: ١٧١٤٢، ١٧١٤٤)، وأبو داود (٤/ ٢٠٠ برقم: ٤٦٠٧)، والترمذي (٥/ ٤٤ برقم: ٢٦٧٦)، وقال: حسن صحيح، وابن ماجه (١/ ٢٨ برقم: ٤٢).

القديمة أن تتخذ، لأنه لا يعرف حقها من باطلها، وصحيحها من فاسدها، مع أن القرآن كفى منها، وصار مهيمنًا عليها[١].

وقال النووي في (الشرح) عن القاضي عياض أنه قال:

«كان بين السلف من الصحابة والتابعين اختلاف كثير في كتابة العلم، فكرهها كثيرون منهم، وأجازها أكثرهم، ثم أجمع المسلمون على جوازها وزوال ذلك الخلاف»[٢].

وقال ابن عبد البر في (جامع بيان العلم وفضله):

من كره كتابة العلم إنما كرهه لوجهين:

أحدهما: ألا يُتخذ مع القرآن كتاب يُضاهى به.

ثانيهما: ولئلا يتكل الكاتب على ما كتب، فلا يحفظ فيقل الحفظ[٣].

كل هذا صحيح ونتبناه، وأغلب ما ذكره العلماء الثقات في هذا الشأن صحيح كذلك، ولكن يبقى السبب الأهم في النهي عن الكتابة هو الخوف على القرآن وعدم إضعاف الثقة فيه.

هل تجاوب المسلمون مع تحذيرات الصحابة؟

مما يدعو للأسف أن تحذيرات الصحابة رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ لمن بعدهم لم تقع مواقعها الصحيحة في نفوسهم، وبدأ الاهتمام التدريجي بالكتب وكان ذلك على حساب

---

(١) تقييد العلم للخطيب البغدادي (ص: ٥٧).

(٢) شرح النووي على صحيح مسلم (١٨/ ١٢٩، ١٣٠).

(٣) جامع بيان العلم وفضله (١/ ١٣٩).

القرآن وقدره في نفوسهم.

يقول الشيخ محمد الغزالي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

هجر المسلمون القرآن إلى الأحاديث..

ثم هجروا الأحاديث إلى أقوال الأئمة..

ثم هجروا أقوال الأئمة إلى أسلوب المُقلِّدين..

وكان تطور الفكر الإسلامي على هذا النحو وبالًا على الإسلام وأهله، روى ابن عبد البر عن الضحاك بن مزاحم: يأتي على الناس زمان يعلق فيه المصحف حتى يعشش عليه العنكبوت، لا ينتفع بما فيه، وتكون أعمال الناس بالروايات والأحاديث[١].

النتائج الوخيمة

عندما هُجر القرآن كمصدر متفرد للعلم والإيمان احتاج الناس إلى بدائل، وظهرت الكثير من القضايا الشائكة التي حسمتها آيات القرآن، وتغيرت مفاهيم كثيرة كمفهوم العلم والفقه والتعامل مع الآيات المتشابهة، ووقعت الأمة في منزلق علم الكلام والمناظرات، وتغيرت الأوزان النسبية لمواضيع العلم، فما أعطاه القرآن حجمًا قليلًا تم التوسع فيه كالأحكام الفقهية، وما توسع فيه القرآن لم ينل الاهتمام الكافي من العلماء كالسنن الحاكمة للكون والحياة، وقيام الأمم وهلاكها.

ليست دعوة لترك الكتب

إن المقصد من طرح هذه المسألة الخطيرة ليس ترك الكتب، ولكن إدراك

(١) فقه السيرة للغزالي (ص: ٤٢، ٤٣).

خطورة الانكباب عليها من دون القرآن، والتوجه الدائم نحوها قبل القرآن حين يريد المرء البحث عن معلومة يحتاجها، فالمطلوب أن يكون القرآن هو المصدر الأساس والرئيس للتلقي، وأن تتجه العقول والقلوب نحوه بصورة تلقائية عند إرادة البحث عن موضوع ما، وأن تكون آيات القرآن العظيم هي المادة الأولى والأساسية التي يستقى منها الدليل والمدلول.. العناصر وشرحها، مع الأخذ في الاعتبار أن السنة تأخذ حكم القرآن كما أسلفنا.

فإن قلت: ومتى أتوجه إلى الكتب؟!

نتوجه إلى الكتب بعد البدء بالقرآن والسنة، وذلك لمعرفة معنى دق علينا فهمه، أو التأكد من صحة فهمنا لمعنى من المعاني، أو التعرف على ما لم نفهمه من القرآن وفهمه غيرنا.

استنباط الأحكام الشرعية

إن أغلب آيات القرآن تحتوي على معانٍ هادية ترسم للمسلم طريق النجاح في اختبار العبودية لله عَزَّوَجَلَّ، وهناك نسبة ضئيلة من الآيات لا تتجاوز العُشر تتناول الأحكام الشرعية التي ينبغي أن يلتزم بها من ناحية الحِل والحرمة، كأحكام الطهارة والصلاة والصوم والحج والزواج والطلاق والبيوع.

وما نقصده من التوجه للقرآن أولًا عند إرادة البحث في موضوع ما؛ إنما نقصد به المعاني الهادية فقط، أما ما يخص الأحكام الشرعية فلا ينبغي لنا أن نقفز مباشرة إلى آيات القرآن لنستنبطها منه، فهذا لا يجوز لنا وليس من اختصاصنا، بل من اختصاص الفقهاء، فعلينا أن نرجع لكتبهم ونعرف من خلالها الحكم الشرعي الصحيح في المسألة التي نبحث عنها.

وليس معنى ذلك هو عدم التفكر في الآيات؛ بل المقصد هو عدم استنباط الأحكام الشرعية منها، وأن يكون التفكر فيها في حدود التعرف على المعاني الهادية التي تدل عليها.

نظرة على الواقع

لو قمنا بمقارنة ما قيل آنفًا عن القيمة العلمية للقرآن وما ينبغي علينا أن نفعله معه، مع ما يحدث في الواقع؛ لوجدنا بَونًا شاسعًا بينهما، فالملاحظ بوضوح أن عقولنا تتجه للوهلة الأولى نحو الكتب بفروعها المختلفة عند إرادة البحث في موضوع ما، وأن أقصى ما يُعمل مع القرآن هو الاستشهاد على صحة الكلام المنقول من الكتب بآية أو بضع آيات، وهذا يعد أمرًا خطيرًا وامتهانًا للقرآن من شأنه أن يستدعي غضب الله عَزَّوَجَلَّ لكتابه.

من أخطار هجر القرآن

من هنا نقول بأن التوجه الدائم لعقولنا نحو الكتب من أشد الأخطاء التي وقعنا فيها، كيف لا وهو يؤدي إلى إضعاف الثقة في القرآن شيئًا فشيئًا كمنبع أصيل لتحصيل العلم والإيمان والشفاء، مما يستدعي العقوبة الإلهية بمزيد من الحرمان من روح القرآن وأثره المزلزل، كما قال رسول الله ﷺ في حديث زياد بن لبيد رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ الذي مر علينا: «**هَذَا أَوَانُ يُخْتَلَسُ فِيهِ الْعِلْمُ حَتَّى لَا يَقْدِرُوا مِنْهُ عَلَى شَيْءٍ**».

فيزداد تبعًا لذلك: تشتت المسلمين واضطرابهم وقسوة قلوبهم، وعدم شعورهم بالتغيير الحقيقي، مما يدفعهم للبحث عن مصادر يجدون فيها ما يروي ظمأهم ويرقق قلوبهم ويزيدهم علمًا ومعرفة، فيزداد توجههم نحو الكتب، فيستدعون بذلك عقوبة جديدة من الله عَزَّوَجَلَّ بمزيد من البعد عن القرآن.

وهكذا حتى تصبح المسافة شاسعة بين القلوب وبين القرآن، ومن ثم تزداد الصعوبة في العودة إليه.

فإن كنت أخي القارئ في شك من هذا فاقرأ معي هذا الحديث الصحيح

عن عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أن رسول الله ﷺ قال:

«مِنَ اقْتِرَابِ السَّاعَةِ أَنْ تُرْفَعَ الأَشْرَارُ وَتُوضَعَ الأَخْيَارُ وَيُفْتَحَ الْقَوْلُ وَيُخْزَنَ الْعَمَلُ وَيُقْرَأَ بِالْقَوْمِ الْمَثْنَاةُ، لَيْسَ فِيهِمْ أَحَدٌ يُنْكِرُهَا».

قيل: وما المثناة؟ قال: **«مَا اكْتُتِبَتْ سِوَى كِتَابِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ»**[1].

ولو تأملنا في قوله ﷺ: **«وَيَقْرَأُ بِالْقَوْمِ الْمَثْنَاةُ، لَيْسَ فِيهِمْ أَحَدٌ يُنْكِرُهَا»**، وأسقطنا ذلك على الواقع لانطبق عليه انطباقًا تامًا، وإنا لله وإنا إليه راجعون.

أشعر بك أخي القارئ وأنت لا تكاد تصدق هذا الكلام، ولكنها الحقيقة الصادمة، ويؤكده تعليق المحدث ناصر الدين الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ على هذا الحديث بقوله:

هذا الحديث من أعلام نبوته ﷺ، فقد تحقق كل ما فيه من الأنباء وبخاصة ما يتعلق بـ(المثناة) وهي كل ما كُتب سوى كتاب الله كما فسره الراوي، وما يتعلق به من الأحاديث النبوية والآثار السلفية[2].

---

(١) رواه أبو عبيد في فضائل القرآن (ص: ٧١)، والحاكم في المستدرك (٤/ ٥٩٧ برقم: ٨٦٦٠) واللفظ له.

(٢) السلسلة الصحيحة (٦/ ٧٧٤).

رحلة مع أحاديث الرسول ﷺ في التحذير من الكتابة

هذه النقاط السابقة تشكل منطلقًا أساسيًا للفهم الصحيح لخطأ التوجه الدائم نحو الكتب من دون القرآن، ومن خلالها يزداد فهمنا لأحاديث الرسول ﷺ وأقوال الصحابة رضوان الله عليهم في التحذير الدائم من الانشغال بالكتب عن القرآن، وكما ذكرنا آنفًا بأن كلام العلماء في تحليلهم لأسباب ذلك التحذير صحيحة ونتبناها، وأن الأمة اتفقت على الكتابة، ولكن يبقى السبب الأهم الذي لم ينل الاهتمام الكافي من العلماء: هو تخوف الرسول ﷺ وصحابته من بعده على القرآن، وألا ينازعه كتاب آخر في الاهتمام والتقدير فيحدث للأمة ما حدث لبني إسرائيل.

والجدير بالذكر أن الرسول ﷺ قد أباح للبعض الكتابة ولكن على سبيل الاستثناء وهذا يؤكد عدم تحريم الكتابة والكتب، وبعون الله سيتناول الحديث هذا الأمر بشيء من التفصيل حتى تكتمل الصورة.

وإليك أخي القارئ بعض الأحاديث النبوية التي تؤكد حرصه ﷺ على القرآن وتخوفه عليه وشدة حرصه ألا ينازعه غيره:

عن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**لَا تَكْتُبُوا عَنِّي، وَمَنْ كَتَبَ عَنِّي غَيْرَ الْقُرْآنِ فَلْيَمْحُهُ، وَحَدِّثُوا عَنِّي، وَلَا حَرَجَ، وَمَنْ كَذَبَ عَلَيَّ** - قال همام: أحسبه قال - **مُتَعَمِّدًا فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ**»[1].

---

(١) رواه مسلم (٤/ ٢٢٩٨ برقم: ٣٠٠٤).

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: خرج علينا رسول الله ﷺ ونحن نكتب الأحاديث فقال: «**ما هذا الذي تكتبون؟**» قلنا: أحاديث سمعناها منك، قال: «**أَكِتَابًا غَيْرَ كِتَابِ اللهِ تُرِيدُونَ؟ مَا أَضَلَّ الأُمَمَ مَنْ قَبْلِكُمْ إِلَّا مَا اكْتَتَبُوا مِنَ الْكُتُبِ مَعَ كِتَابِ اللهِ**» قال أبو هريرة فقلت: أنتحدث عنك يا رسول الله؟ قال: «**نَعَمْ تَحَدَّثُوا عَنِّي وَلَا حَرَجَ فَمَنْ كَذِبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ**»(١).

مع عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وكيف تأثر بهذا الأمر

جاء عمر بن الخطاب يومًا إلى النبي ﷺ بكتاب أصابه من بعض أهل الكتاب، فقال: يا رسول الله: إني أصبت كتابًا حسنًا من بعض أهل الكتاب، قال: فغضب وقال: «**أَمُتَهَوِّكُونَ فِيهَا يَا ابْنَ الْخَطَّابِ؟ فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَقَدْ جِئْتُكُمْ بِهَا بَيْضَاءَ نَقِيَّةً، لَا تَسْأَلُوهُمْ عَنْ شَيْءٍ فَيُخْبِرُوكُمْ بِحَقٍّ فَتُكَذِّبُوا بِهِ أَوْ بِبَاطِلٍ فَتُصَدِّقُوا بِهِ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ كَانَ مُوسَى حَيًّا مَا وَسِعَهُ إِلَّا أَنْ يَتَّبِعَنِي**»(٢).

عن خالد بن عرفطة قال: كنت جالسًا عند عمر إذ أتي برجل من عبد القيس مسكنه بالسوس فقال له عمر: أنت فلان بن فلان العبدي؟ قال: نعم، قال: وأنت النازل بالسوس؟ قال: نعم، فضربه بقناة معه. فقال الرجل: ما لي يا أمير المؤمنين؟ فقال له عمر: اجلس. فجلس، فقرأ عليه: بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿**الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ١ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ٢ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ٣**﴾ [يوسف: ١ - ٣]، فقرأها عليه ثلاثًا، وضربه ثلاثًا، فقال له الرجل: ما لي يا أمير

---

(١) رواه الإمام أحمد في المسند (١٧/ ١٥٦ برقم: ١١٠٩٢)، والخطيب في تقييد العلم (ص: ٣٣)، واللفظ له.

(٢) رواه ابن أبي شيبة في المصنف (٥/ ٣١٢ برقم: ٢٦٤٢١)، وأحمد في المسند (٢٣/ ٣٤٩ برقم: ١٥١٥٦)، والتهوك كالتهور وهو الوقوع في الأمر بغير روية.

المؤمنين؟ فقال: أنت الذي نسخت كتاب دانيال؟ قال: مرني بأمرك أتبعه. قال: انطلق فامحه بالحميم والصوف الأبيض، ثم لا تقرأه ولا تقربه أحدًا من الناس، فلئن بلغني عنك أنك قرأته أو أقرأته أحدًا من الناس لأنهكنك عقوبة، ثم قال له: اجلس. فجلس بين يديه، فقال: انطلقت أنا فانتسخت كتابًا من أهل الكتاب ثم جئت به في أديم، فقال لي رسول الله ﷺ:

«**مَا هَذَا فِي يَدِكَ يَا عُمَرُ؟**» قال: قلت يا رسول الله: كتاب انتسخته لنزداد به علمًا إلى علمنا. فغضب رسول الله ﷺ حتى احمرت وجنتاه، ثم نودي بالصلاة جامعة، فقالت الأنصار: أغضب نبيكم ﷺ؟ السلاح السلاح، فجاءوا حتى أحدقوا بمنبر رسول الله ﷺ، فقال: «**يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي أُوتِيتُ جَوَامِعَ الْكَلِمِ وَخَوَاتِيمَهُ، وَاخْتُصِرَ لِي اخْتِصَارًا، وَلَقَدْ أَتَيْتُكُمْ بِهَا بَيْضَاءَ نَقِيَّةً، فَلَا تَتَهَوَّكُوا، وَلَا يَغُرَّنَّكُمُ الْمُتَهَوِّكُونَ**» قال عمر: فقمت فقلت: رضيت بالله ربًا، وبالإسلام دينًا، وبك رسولًا، ثم نزل رسول الله ﷺ[1].

ولعل هذه الأحاديث وغيرها الواردة عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه عندما توجه للقراءة في غير القرآن، ونهي الرسول ﷺ له وغضبه الشديد من فعله؛ جعلته يزداد حذرًا وخوفًا من القراءة في غير القرآن لدرجة أنه في المرض الأخير للرسول ﷺ، وطلبه ﷺ ممن حوله من الصحابة أن يأتوه بصحيفة يكتب لهم فيها بعض الوصايا حتى لا يضلوا بعده، فما كان من عمر إلا أن ذكّر الجميع بالقاعدة التي رباه عليها ﷺ فقال: عندنا كتاب الله حسبنا.

فعن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال في مرضه: «**هَلُمَّ أَكْتُبُ لَكُمْ كِتَابًا لَا تَضِلُّوا بَعْدَهُ**». فقال عمر: إن النبي ﷺ قد غلب عليه الوجع وعندكم القرآن،

(١) تقييد العلم للخطيب البغدادي (ص: ٥١، ٥٢).

حسبنا كتاب الله، فاختلف أهل البيت فاختصموا، فكان منهم من يقول: قربوا يكتب لكم النبي ﷺ كتابًا لن تضلوا بعده، ومنهم من يقول ما قال عمر، فلما أكثروا اللغو والاختلاف عند النبي ﷺ، قال رسول الله ﷺ: «**قُومُوا**»(١).

لا ألبس كتاب الله بشيء أبدًا

عند النظر في سيرة الشيخين؛ أبي بكر الصديق وعمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا نجد بوضوح حرصهما على تطبيق هذا النهج.

عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: جمع أبي الحديث عن رسول الله ﷺ، وكان خمسمائة حديث، فبات ليلة يتقلب كثيرًا، فلما أصبح قال: أي بنية، هلمي الأحاديث التي عندك، فجئته بها، فدعا بنار فحرقها(٢).

وعن القاسم بن محمد أن عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بلغه أنه قد ظهر في أيدي الناس كتب، فاستنكرها وكرهها، وقال: «أيها الناس إنه قد بلغني أنه قد ظهرت في أيديكم كتب، فأحبها إلى الله أعدلها وأقومها، فلا يبقين أحد عنده كتاب إلا أتاني به فأرى فيه رأيي، قال: فظنوا أنه يريد أن ينظر فيها ويقومها على أمر لا يكون فيه اختلاف، فأتوه بكتبهم فأحرقها بالنار، ثم قال: أمنية كأمنية أهل الكتاب؟!»(٣).

وعن عروة، أن عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أراد أن يكتب السنن فاستفتى أصحاب النبي ﷺ في ذلك، فأشاروا عليه بأن يكتبها، فطفق عمر يستخير الله فيها شهرًا، ثم أصبح يومًا وقد عزم الله له فقال: إني كنت أريد أن أكتب السنن وإني ذكرت قومًا

---

(١) رواه البخاري (٧/ ١٢٠ برقم: ٥٦٦٩)، ومسلم (٣/ ١٢٥٩ برقم: ١٦٣٧).

(٢) ذكره المتقي الهندي في كنز العمال (١٠/ ٢٨٥، ٢٨٦).

(٣) تقييد العلم للخطيب البغدادي (ص: ٥٢)، والأمنية هي الكتاب، وعند ابن سعد في الطبقات (٥/ ١٨٨) قال: مثناة كمثناة أهل الكتاب.

كانوا قبلكم كتبوا كتبًا فأكبوا عليها وتركوا كتاب الله، وإني والله لا أشوب كتاب الله بشيء أبدًا[(١)].

وأتى عمر بن الخطاب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ رجل فقال: يا أمير المؤمنين إنا لما فتحنا المدائن أصبت كتابًا فيه كلام معجب. قال: من كتاب الله؟ قال: لا. فدعا بالدرة فجعل يضربه بها، وجعل يقرأ: ﴿الٓر ۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ١ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ٢﴾ [يوسف: ١، ٢] إلى قوله: ﴿وَإِن كُنتَ مِن قَبۡلِهِۦ لَمِنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ ٣﴾ [يوسف: ٣] ثم قال: إنما هلك من كان قبلكم أنهم أقبلوا على كتب علمائهم وأساقفتهم وتركوا التوراة والإنجيل حتى درسا، وذهب ما فيها من العلم[(٢)].

كلامكم شر الكلام!

وعن السائب بن يزيد أنه سمع ابن الخطاب يقول: إن حديثكم هو شر الحديث، وإن كلامكم هو شر الكلام، من قام منكم فليقم بكتاب الله وإلا فليجلس، فإنكم قد حدثتم الناس حتى قيل: قال فلان وقال فلان، وترك كتاب الله[(٣)].

فإنك قد قرأتَ الكتب!

عن سعيد بن عمرو قال: أتى عبد الله بن عمرو ابنَ الزبير، وهو جالس في الحجر، فقال: يا ابن الزبير! إياك والإلحاد في حرم الله، فإني أشهد لسمعت رسول الله ﷺ يقول: يُحِلُّهَا -يعني: مكة -وَيَحُلُّ به- يعني: الحرم المكي- **رَجُلٌ مِنْ**

---

(١) رواه ابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله (١/ ٢٧٤ برقم: ٣٤٣).

(٢) ذكره ابن الجوزي في تاريخ عمر بن الخطاب (ص: ١٢٦).

(٣) رواه ابن شبة في تاريخ المدينة (٣/ ٨٠٠).

قُرَيْشٍ، لَوْ وُزِنَتْ ذُنُوبُهُ بِذُنُوبِ الثَّقَلَيْنِ لَوَزَنَتْهَا.

قال: فانظر ألا تكون هو يا ابن عمرو! فإنك قد قرأت الكتب وصحبت الرسول ﷺ.

قال ابن عمرو: فإني أشهدك أن هذا وجهي إلى الشام مجاهدًا(١).

عن عبد الله بن يسار، قال: سمعت عليًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يخطب يقول: أعزم على كل من كان عنده كتاب إلا رجع فمحاه، فإنما هلك الناس حيث يتبعون أحاديث علمائهم وتركوا كتاب ربهم(٢).

وعن الحارث الأعور قال: مررت في المسجد فإذا الناس يخوضون في الأحاديث، فدخلت على عليٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فقلت: يا أمير المؤمنين؛ ألا ترى أن الناس قد خاضوا في الأحاديث؟!

قال: «وقد فعلوها؟!» قلت: نعم، قال: أما إني قد سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**أَلَا إِنَّهَا سَتَكُونُ فِتْنَةٌ**». فقلت: ما المخرج منها يا رسول الله؟ قال: «**كِتَابُ اللهِ؛ فِيهِ نَبَأُ مَا كَانَ قَبْلَكُمْ، وَخَبَرُ مَا بَعْدَكُمْ، وَحُكْمُ مَا بَيْنَكُمْ، وَهُوَ الْفَصْلُ لَيْسَ بِالْهَزْلِ، مَنْ تَرَكَهُ مِنْ جَبَّارٍ قَصَمَهُ اللهُ، وَمَنِ ابْتَغَى الْهُدَى فِي غَيْرِهِ أَضَلَّهُ اللهُ، وَهُوَ حَبْلُ اللهِ الْمَتِينُ، وَهُوَ الذِّكْرُ الْحَكِيمُ، وَهُوَ الصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ، هُوَ الَّذِي لَا تَزِيغُ بِهِ الْأَهْوَاءُ، وَلَا تَلْتَبِسُ بِهِ الْأَلْسِنَةُ، وَلَا يَشْبَعُ مِنْهُ الْعُلَمَاءُ، وَلَا يَخْلَقُ عَلَى كَثْرَةِ الرَّدِّ، وَلَا تَنْقَضِي عَجَائِبُهُ، هُوَ الَّذِي لَمْ تَنْتَهِ الْجِنُّ إِذْ سَمِعَتْهُ حَتَّى قَالُوا:** ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ١ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ﴾ [الجن: ١، ٢]، **مَنْ قَالَ بِهِ صَدَقَ، وَمَنْ عَمِلَ بِهِ أُجِرَ، وَمَنْ حَكَمَ**

---

(١) رواه أحمد في المسند (١١/ ٦٢٠ برقم: ٧٠٤٣)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٣/ ٢٨٥): رجاله رجال الصحيح.

(٢) رواه ابن أبي شيبة في المصنف (٥/ ٣١٤ برقم: ٢٦٤٣٩).

بِهِ عَدَلَ، وَمَنْ دَعَا إِلَيْهِ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ»، خذها إليك يا أعور[(١)].

لا نجعلها مصاحف

كان كبار الصحابة -رضوان الله عليهم- يقاومون رغبات العديد من أبناء الجيل التالي لهم في القراءة في الكتب، لأنهم يعلمون تبعات ذلك من إضعاف قدر القرآن في القلوب، وذهاب هيبته منها، ومِن ثَمّ استدعاء العقوبة الإلهية، ويعلمون كذلك أن بني إسرائيل قد ضلت عندما انشغلت بكتب علمائها وتركت التوراة والإنجيل.

عن أبي نضرة قال: قلنا لأبي سعيد: لو كتبتم لنا، فإنا لا نحفظ، قال: لا نكتبكم، ولا نجعلها مصاحف، كان رسول الله ﷺ يحدثنا فنحفظ، فاحفظوا عنا كما كنا نحفظ عن نبيكم[(٢)].

عن أبي نضرة قال: قلت لأبي سعيد: إنك تحدثنا عن رسول الله ﷺ حديثًا معجبًا فلو اكتتبناه؟ فقال: لن أكتبكموه، ولن أجعله قرآنا[(٣)].

هذا كلام أخيك أبي الدرداء!

جاء رجل من أهل الشام إلى عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ومعه صحيفة فيها كلام من كلام أبي الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أو قصص من قصصه، فقال: يا أبا عبد الرحمن

---

(١) رواه الدارمي (٤/ ٢٠٩٨ برقم: ٣٣٧٤)، والترمذي واللفظ له (٥/ ١٧٢ برقم: ٢٩٠٦)، وقال: غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه، وإسناده مجهول، وفي الحارث مقال، وقال ابن كثير في التفسير (١/ ٢١): وقصارى هذا الحديث أن يكون من كلام أمير المؤمنين علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وقد وهم بعضهم في رفعه، وهو كلام حسن صحيح على أنه قد روي له شاهد عن عبد الله بن مسعود عن النبي ﷺ. انتهى كلامه، وذكر له شاهد ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، رواه أبو عبيد في فضائل القرآن (ص:٢١) والحاكم في المستدرك (١/ ٧٤١ برقم: ٢٠٤٠).

(٢) تقييد العلم للخطيب البغدادي (ص: ٣٦).

(٣) تقييد العلم للخطيب البغدادي (ص: ٣٨).

ألا تنظر ما في هذه الصحيفة من كلام أخيك أبي الدرداء؟

فأخذ الصحيفة فجعل يقرأ فيها وينظر حتى أتى منزله، فقال: يا جارية ائتني بالإجانة (إناء يغسل فيه الملابس) مملوءة ماء، فجاءت به، فجعل يدلكها ويقول: ﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ١ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ٢ نَحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ أَحۡسَنَ ٱلۡقَصَصِ﴾(١) [يوسف: ١ - ٣].

أقصصًا أحسن من قصص الله تريدون؟

وعن أشعب بن سليم عن أبيه قال: كنت أجالس أناسًا في المسجد، فأتيتهم ذات يوم فإذا عندهم صحيفة يقرءونها فيها ذكر وحمد وثناء على الله عَزَّوَجَلَّ، فأعجبتني، فقلت لصاحبها: أعطنيها فأنسخها. فقال: فإني واعدت بها رجلًا فأعد صحفك، فإذا فرغ منها دفعتها إليك. فأعددت صحفي، فدخلت المسجد ذات يوم فإذا غلام يتخطى الخلق يقول: أجيبوا عبد الله بن مسعود في داره. فانطلق الناس فذهبت معهم، فإذا تلك الصحيفة بيده. وقال: ألا إن ما في هذه الصحيفة فتنة وضلالة وبدعة، وإنما هلك من كان قبلكم من أهل الكتاب باتباعهم الكتب وتركهم كتاب الله، وإني أحرِّج على رجل يعلم منها شيئًا إلا دلني عليه؛ فوالذي نفس عبد الله بيده، لو أعلم منها صحيفة بدير هند(٢) لأتيتها ولو مشيًا على رجلي، فدعا بماء فغسل تلك الصحيفة(٣).

وكان ابن مسعود رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ **يقول:** إن ناسًا يسمعون كلامي ثم ينطلقون فيكتبونه، وإني لا أحل لأحد أن يكتب إلا كتاب الله عَزَّوَجَلَّ (٤).

---

(١) تقييد العلم للخطيب البغدادي (ص: ٥٤).

(٢) مكان بالحيرة على طريق النجف.

(٣) تقييد العلم للخطيب البغدادي (١/ ٥٥، ٥٦).

(٤) رواه الدارمي في سننه (١/ ٤٢٧ برقم: ٤٩٨).

وعن مُرَّة قال: بينما نحن عند عبد الله إذ جاء ابن قرة بكتاب قال: وجدته بالشام فأعجبني فجئتك به، قال: فنظر فيه عبد الله، ثم قال: إنما هلك من كان قبلكم باتباعهم الكتب وتركهم كتابهم، قال: ثم دعا بطست فيه ماء، فماثه فيه ثم محاه(١).

القلوب أوعية فاشغلوها بالقرآن

عن عبد الرحمن بن الأسود عن أبيه قال: أصبت أنا وعلقمة صحيفة، فانطلقنا بها إلى عبد الله، فجلسنا بالباب وقد زالت الشمس، أو كادت أن تزول، فاستيقظ، فأرسل الجارية، فقال: انظري من بالباب؟ فرجعت إليه فقالت: علقمة والأسود، فقال: ائذني لهما، فدخلنا، قال: كأنكم قد أطلتم الجلوس في الباب؟ قالا: أجل، قال: فما منعكما أن تستأذنا؟ قالا: خشينا أن تكون نائمًا، قال: ما أحب أن تظنوا بي هذا، إن هذه ساعة كنا نقيسها بصلاة الليل، قلنا: هذه صحيفة فيها حديث عجيب، فقال: هاتها، يا جارية هاتي الطست، اسكبي فيها ماء، فجعل يمحوها بيده، ويقول: ﴿**نَحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ أَحۡسَنَ ٱلۡقَصَصِ**﴾ [يوسف: ٣]، قلنا: انظر إليها فإن فيها حديثًا حسنًا، فجعل يمحوها، ثم قال: «**إنما هذه القلوب أوعية فاشغلوها بالقرآن، ولا تشغلوها بغيره**»(٢).

عن أبي الشعثاء سليم بن أسود، قال: كنت أنا وعبد الله بن مرداس، فرأينا صحيفة فيها قصص وقرآن مع رجل من النخع، قال: فواعَدَنا المسجد، قال: فقال عبد الله بن مرداس: أشتري صحفًا بدرهم، إنا لقعود في المسجد ننتظر صاحبنا، إذا رجل فقال: أجيبوا عبد الله يدعوكم، قال: فتقوضت الحلقة، فانتهينا إلى عبد الله بن مسعود، فإذا الصحيفة في يده، فقال: إن أحسن الهدي هدي محمد ﷺ،

(١) تقييد العلم للخطيب البغدادي (ص: ٥٣)، ماثه: أي فَرَكه حتى زال.

(٢) تقييد العلم للخطيب البغدادي (ص: ٥٣، ٥٤).

وإن أحسن الحديث كتاب الله، وإن شر الأمور محدثاتها، وإنكم تُحْدِثون ويَحْدُث لكم، فإذا رأيتم مُحْدَثة فعليكم بالهدي الأول فإنما أهلك أهل الكتابين قبلكم مثل هذه الصحيفة وأشباهها، توارثوها قرنًا بعد قرن، حتى جعلوا كتاب الله خلف ظهورهم كأنهم لا يعلمون، فأنشد اللهَ رجلًا علم مكان صحيفة إلا أتاني، فوالله لو علمتها بدير هند لانتقلت إليها[١].

وعن عبد الرحمن بن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: كنا نسمع الشيء فنكتبه، ففطن لنا عبد الله فدعا أم ولده، ودعا بالكتاب وبإجانة من ماء، فغسله[٢].

وعن مسروق قال: حدث ابن مسعود بحديث فقال ابنه: ليس كما حدثت، قال: وما علمك؟ قال: كتبته، قال: فهلم الصحيفة، فجاء بها، فمحاها[٣].

وإن تُطعني تمحُه

عن سعيد بن أبي الحسن، قال: لم يكن من أصحاب النبي ﷺ، أكثر من أبي هريرة حديثًا عن رسول الله ﷺ، وإن مروان - زمنَ هو على المدينة[٤]- أراد أن يُكتبه حديثه، فأبى، وقال: ارووا كما روينا، فلما أبى عليه، تغفله فأقعد له كاتبا لَقِنًا ثَقِفًا ودعاه، فجعل أبو هريرة يحدثه ويكتب الكاتب حتى استفرغ حديثه أجمع، قال: ثم قال مروان: تعلم أنا قد كتبنا حديثك أجمع، قال: وقد فعلتم؟ قال: نعم، قال: فاقرءوه عليَّ إذاً، قال: فقرءوه عليه، فقال أبو هريرة: أما إنكم قد حفظتم وإن

---

(١) تقييد العلم للخطيب البغدادي (ص: ٥٥).

(٢) تقييد العلم للخطيب البغدادي (ص: ٣٩).

(٣) تقييد العلم للخطيب البغدادي (ص: ٣٩).

(٤) عندما كان أميرًا على المدينة.

تطعني تمحه، قال: فمحاه[١].

وعن أبي بردة قال: كان أبو موسى يحدثنا بأحاديث فنقوم أنا ومولى لي فنكتبها، فحدثنا يومًا بأحاديث فقمنا لنكتبها، فظن أنا نكتبها، فقال: أتكتبان ما سمعتما مني؟ قالا: نعم، قال: فجيئاني به، فدعا بماء فغسله، وقال: احفظوا عنا كما حفظنا[٢].

إنما ضل من كان قبلكم بالكتب

عن عبد الله بن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: «يا معشر المسلمين، كيف تسألون أهل الكتاب، وكتابكم الذي أنزل على نبيه ﷺ أحدث الأخبار بالله، تقرءونه لم يشب، وقد حدثكم الله أن أهل الكتاب بدلوا ما كتب الله وغيروا بأيديهم الكتاب، فقالوا: هو من عند الله ليشتروا به ثمنًا قليلًا، أفلا ينهاكم ما جاءكم من العلم عن مساءلتهم، ولا والله ما رأينا منهم رجلًا قط يسألكم عن الذي أنزل عليكم»[٣].

وعن حنظلة بن أبي سفيان قال: سمعت طاووسًا يقول: لما عمي ابن عباس جعل ناس من أهل العراق يسألونه ويكتبون، قال: فجاء إنسان من أهله فالتقم أذنه، فلم يتكلم حتى قام[٤].

أي: حدثه بحديث لا يسمعه غيره، والظاهر أنه أخبره أن أناسًا يكتبون ما يقوله فسكت عن التحديث.

---

(١) تقييد العلم للخطيب البغدادي (ص: ٤١).

(٢) تقييد العلم للخطيب البغدادي (ص: ٣٩).

(٣) رواه البخاري (٣/ ١٨١ برقم: ٢٦٨٥).

(٤) تقييد العلم للخطيب البغدادي (ص: ٤٣).

كفى به واعظًا

وقال عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: إن من أشراط الساعة أن يبسط القول، ويخزن الفعل، وإن من أشراط الساعة أن ترفع الأشرار وتوضع الأخيار، وإن من أشراط الساعة أن تقرأ المثناة على رءوس الملأ لا تغير، قيل: وما المثناة؟ قال ما استكتب من غير كتاب الله، قيل: يا أبا عبد الرحمن، وكيف بما جاء في حديث رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ فقال: ما أخذتموه عمن تأمنونه على نفسه ودينه فاعقلوه، وعليكم بالقرآن فتعلموه وعلموه أبناءكم، فإنكم عنه تسألون وبه تجزون، وكفى به واعظًا لمن كان يعقل(١).

التشخيص الدقيق

وقد انتبه بعض السلف من الأجيال اللاحقة للصحابة لهذه القضية الخطيرة..

فعن حماد بن زيد قال: قال لي ابن عون: إني أرى هذه الكتب يا أبا إسماعيل ستضل الناس(٢).

وقال إسماعيل بن علية: إنما كرهوا الكتاب لأن من كان قبلكم اتخذوا الكتب فأعجبوا بها، فكانوا يكرهون أن يشتغلوا بها عن القرآن(٣).

وعن ابن سيرين قال: كانوا يرون أن بني إسرائيل إنما ضلوا بكتب ورثوها(٤).

---

(١) رواه أبو عبيد في فضائل القرآن (ص: ٧١)، والحاكم في المستدرك (٤/ ٥٩٧ برقم: ٨٦٦١)، وصححه ووافقه الذهبي.

(٢) تقييد العلم للخطيب البغدادي (ص: ٥٧).

(٣) تقييد العلم للخطيب البغدادي (ص: ٥٧).

(٤) تقييد العلم للخطيب البغدادي (ص: ٦١).

وعن إبراهيم النخعي أنه كان يكره أن يكتب الحديث في الكراريس، ويقول: يشبه بالمصاحف(١).

وعن الضحاك قال: لا تتخذوا للحديث كراريس ككراريس المصاحف(٢).

ضيَّعتُم كتابَ اللهِ وطلبتُم كلامَ فُضَيْل

عن أبي نصر سعيد الرملي قال: أتينا الفضيل بن عياض بمكة فسألناه أن يملي علينا فقال: ضيعتم كتاب الله عَزَّوَجَلَّ وطلبتم كلام فضيل وابن عيينة، لو تفرغتم لكتاب الله عَزَّوَجَلَّ لوجدتم فيه شفاء لما تريدون، قلنا: قد تعلمنا القرآن، قال: إن في تعليم القرآن شغلًا لأعماركم وأعمار أولادكم وأولاد أولادكم(٣).

ويلخص عون بن عبد الله خطورة اللهث وراء كلام الرجال وأحاديثهم على علاقتنا بالقرآن فيقول: مثل الذي يطلب علم الأحاديث ويترك القرآن مثل رجل أخذ باب زريبة فيها غنم فمرت به ظباء، فتبعها يطلبها فلم يدركها، فرجع فوجد غنمه قد خرجت، فلا هذه أدرك ولا هذه أدرك(٤).

لكي تكتمل الصورة

ولكي تكتمل -بعون الله- الصورة، ولا يظن البعض أننا نبرز وجهة نظر واحدة تؤيد ما نقوله، سنضع بين يديك -أخي القارئ- في الأسطر القادمة بعض الأحاديث والآثار التي تبين جواز الكتابة وتقييد العلم، وكما أسلفنا فهذا هو الرأي

---

(١) رواه الدارمي (١/ ٤١٧ برقم: ٤٧٩).

(٢) رواه ابن أبي شيبة في المصنف (٥/ ٣٠٢ برقم: ٢٦٣٠٧)، والخطيب في تقييد العلم (ص: ٤٧).

(٣) جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر (٢/ ١٠٢٣ برقم: ١٩٥٣).

(٤) حلية الأولياء (٤/ ٢٤٥).

الذي نتبناه بأهمية الكتابة، وكذلك اقتناء الكتب والقراءة فيها، ولكن دون أن يكون ذلك على حساب القرآن، فكل ما نقصده هو أن يكون التوجه التلقائي الأول نحو القرآن عند إرادة البحث عن موضوع ما، ثم يكون بعد ذلك التوجه نحو الكتب.

اكتبوا لأبي شاة

عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: لما فتح الله تعالى على رسوله ﷺ مكة قام في الناس، فحمد الله وأثنى عليه؛ ثم قال: «**إِنَّ اللهَ حَبَسَ عَنْ مَكَّةَ الْفِيلَ، وَسَلَّطَ عَلَيْهَا رَسُولَهُ وَالْمُؤْمِنِينَ، فَإِنَّهَا لَا تَحِلُّ لِأَحَدٍ كَانَ قَبْلِي، وَإِنَّهَا أُحِلَّتْ لِي سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ، وَإِنَّهَا لَا تَحِلُّ لِأَحَدٍ بَعْدِي، فَلَا يُنَفَّرُ صَيْدُهَا وَلَا يُخْتَلَى شَوْكُهَا، وَلَا تَحِلُّ سَاقِطَتُهَا إِلَّا لِمُنْشِدٍ، وَمَنْ قُتِلَ لَهُ قَتِيلٌ، فَهُوَ بِخَيْرِ النَّظَرَيْنِ: إِمَّا أَنْ يُفْدَى وَإِمَّا أَنْ يَقِيدَ**»

فقال العباس: إلا الإذخر يا رسول الله؛ فإنا نجعله لقبورنا وبيوتنا.

فقال رسول الله ﷺ: «**إِلَّا الإِذْخَرَ**».

فقام أبو شاة -رجل من أهل اليمن- فقال: اكتبوا لي يا رسول الله.

فقال رسول الله ﷺ: «**اكْتُبُوا لِأَبِي شَاهٍ**»[1].

وعن أنس بن مالك أن أبا بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كتب له فريضة الصدقة التي أمر رسول الله ﷺ[2].

وهذا الحسن بن علي يدعو بنيه وبني أخيه فقال: «يا بني وبني أخي! إنكم صغار قوم يوشك أن تكونوا كبار آخرين، فتعلموا العلم؛ فمن لم يستطع منكم أن

(١) رواه البخاري (٣/ ١٢٥ برقم: ٢٤٣٤)، ومسلم (٢/ ٩٨٨ برقم: ١٣٥٥).

(٢) رواه البخاري (٢/ ١١٧ برقم: ١٤٥٣).

يرويه، فليكتبه، وليضعه في بيته»[١].

وكان أنس بن مالك يقول لبنيه: يا بني، قيِّدوا هذا العلم[٢].

الخطيب البغدادي يجمع بين الأمرين

وقد أورد الخطيب البغدادي في كتابه (تقييد العلم) عن أبي سعيد الخدري قوله: ما كنا نكتب شيئًا غير القرآن والتشهد.

ويعلق عليه فيقول: وأبو سعيد هو الذي رُوِي عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**لَا تَكْتُبُوا عَنِّي سِوَى الْقُرْآنِ، وَمَنْ كَتَبَ غَيْرَ الْقُرْآنِ فَلْيَمْحُهُ**»، ثم هو يخبر أنهم كانوا يكتبون القرآن والتشهد، وفي ذلك دليل أن النهي عن كَتْب ما سوى القرآن إنما كان على الوجه الذي بيناه، من أن يضاهى بكتاب الله تعالى غيره، وأن يُشتَغل عن القرآن بسواه؛ فلما أَمِن ذلك ودعت الحاجة إلى كتب العلم؛ لم يُكره كَتْبه، كما لم تكره الصحابة كتب التشهد، ولا فرق بين التشهد وبين غيره من العلوم، في أن الجميع ليس بقرآن، ولن يكون كَتْب الصحابة ما كتبوه من العلم وأمروا بكَتبه إلا احتياطًا، كما كان كراهتهم لكَتبه احتياطًا، والله أعلم[٣].

أليس الذي بين أيدينا كتابًا غير القرآن؟!

من المتوقع أن يقفز إلى ذهنك -أخي القارئ- تساؤل في محله وهو: إن الذي بين أيدينا كتاب غير القرآن؛ فلماذا يطرح الكاتب هذه المسألة ويدعو إلى الانشغال بالقرآن عما سواه؟!

ألا يُعتبر ذلك تناقضًا بين قوله وفعله؟!

---

(١) رواه الدارمي (١/ ٤٤٣ برقم: ٥٢٨).

(٢) الدارمي (١/ ٤٣٢ برقم: ٥٠٨).

(٣) تقييد العلم للخطيب البغدادي (ص: ٩٣، ٩٤).

الإجابة عن هذا التساؤل تتلخص في أن الذي يدفعني لذلك هو دلالة نفسي والناس إلى أهمية القرآن وإلى معانيه، والعمل على زيادة الثقة فيه حتى تعود قيمته الحقيقية إلى نفوس المسلمين، وأن يصبح قبلتهم في طلب العلم والإيمان والتغيير، والله أعلم بالسرائر، وكفى بالله شهيدًا.

هل يكفي كتاب الله لتحصيل العلم؟

فإن قلت: ولكن هل يكفي التعامل مع القرآن لتحصيل ما يحتاجه المسلم من علوم؟

كان الجواب: القرآن العظيم يحتوي على العلم النافع المقرب لله عَزَّوَجَلَّ الذي يحتاجه المسلم لتحصيل العبودية والسعادة في الدارين، مع التأكيد بأن السنة تابعة له شارحة ومفصلة لما أجمل فيه: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: ٤٤].

وكذلك فإن معرفة السيرة النبوية من الأهمية بمكان كتطبيق عملي للقرآن وتعميق فهمه من خلال الجيل الذي انتفع به، وأيضًا معرفة تفاصيل الأحكام العملية التي يحتاجها المسلم وهو ما يطلق عليه الفقه، وكذلك التعرف على فقه الواقع ومخططات الأعداء،... إلخ.

كل هذا حسن، ولكن الخطأ يكمن في الانبهار والانغماس في هذه الكتب وهجر الانتفاع بالقرآن، ويكفي في بيان خطورة ذلك رصد شعورك وأنت متجه إلى قراءتها ومقارنته بشعورك وأنت متجه للقرآن.

ونعود فنكرر أنه لو كان الانكباب والاهتمام والانبهار بالقرآن هو الأساس، والقراءة في الكتب الأخرى على سبيل الاستئناس فلا بأس من ذلك.

.. بكى الحارث بن عميرة عند احتضار معاذ بن جبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فسأله عن بكائه فقال: أبكي على ما فاتني منك.

فقال له معاذ: إن العلم مكانه بين لوحي المصحف(١).

وقال علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إن الفقيهَ حق الفقيه، مَن لم يُقنِّط الناسَ من رحمةِ الله، ولم يُرخِّص لهم في معاصي الله، ولم يؤمِّنهم من عذابِ الله، ولم يدَع القرآن رغبةً عنه إلى غيره، إنه لا خيرَ في عبادةٍ لا علم فيها، ولا علمٍ لا فهم فيه، ولا قراءةٍ لا تدبُّر فيها»(٢).

وعن الحسن قال: كان رجل يكثر غشيان باب عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فقال له عمر: اذهب فتعلم كتاب الله تعالى، قال: فذهب الرجل، ففقده عمر، ثم لقيه فكأنه عاتبه، فقال: وجدت في كتاب الله ما أغناني عن باب عمر(٣).

وعندما سمع الناس بالمدائن أن سلمان في المسجد فأتوه، فجعلوا يثوبون إليه حتى اجتمع نحو من ألف، فقام فجعل يقول: اجلسوا اجلسوا، فلما جلسوا فتح سورة يوسف يقرؤها فجعلوا يتصدعون ويذهبون حتى بقي في نحوٍ من مائة، فغضب، وقال: «الزُّخْرُفَ مِنَ القَوْلِ أَرَدْتُمْ، ثُمَّ قَرَأْتُ عَلَيْكُمْ كِتابَ اللَّهِ فَذَهَبْتُمْ؟!»(٤).

القرآن هو المقصود الأعظم

ويؤكد الحافظ ابن رجب على هذا المعنى فيقول: إن المقصود الأعظم هو

---

(١) رواه البزار من مسند معاذ بن جبل (٧/ ١١٤ برقم: ٢٦٧١).

(٢) سنن الدارمي (١/ ٣٣٨ برقم: ٣٠٥).

(٣) مصنف ابن أبي شيبة (٧/ ٢٣٦ برقم: ٣٥٦٣٩).

(٤) حلية الأولياء (١/ ٢٠٣).

القرآن، وإن التفرغ لتلاوته وتدبره وفهم معانيه ومقاصده والعمل بذلك هو الأهم، وتطلب ذلك من الحديث النبوي والآثار، وهذا سبيل علماء الصحابة من المهاجرين والأنصار ومن حذا حذوهم من سلف الأمة والأئمة الكبار[١].

بل إن الحافظ ابن رجب صنف كتابًا سمَّاه: «الاستغناء بالقرآن في طلب العلم والإيمان».

الأستاذ المهمَل في بيته

إننا نتمنى أن يكون الاهتمام والانبهار بالقرآن كالكتب الأخرى ولو مؤقتًا في المرحلة الأولى من رحلة العودة إلى القرآن، ثم ينتقل إلى مكانه الصحيح بعد ذلك، فللأسف أصبح القرآن كالأستاذ العظيم المهمل في بيته وبين أبنائه، وهذا الوصف أستعيره من كلام أبي الحسن الندوي وهو يتحدث عن العوامل التي أثرت في بناء شخصية محمد إقبال، فعندما تحدث عن القرآن كعامل محوري في ذلك قال:

لا يخلو منه بيت من بيوت المسلمين، ولكن ليس الشأن في وجود الأستاذ وكونه بمتناول اليد من تلاميذه، وإنما الشأن في معرفته وتقديره، وإجلاله، والإفادة منه، وإلا لكان أبناء البيت ورجال الأسرة وأهل الحي أسعد بعالمهم وأكبر انتفاعًا من غيرهم، ولكن بالعكس من ذلك رأينا أن العالم الكبير والحكيم الشهير والمؤلف العظيم ضائع في بيته، مهجور في داره، يزهد فيه أولاده ويستهين بقيمته أفراد أسرته.

لا تذهب بكم الظنون ولا يبعد بكم القياس أيها الإخوان، فذلك الأستاذ العظيم هو القرآن الكريم الذي أثر في عقلية إقبال وفي نفسه ما لم يؤثر فيه كتاب

---

(١) هداية الإنسان إلى الاستغناء بالقرآن لابن عبد الهادي.

ولا شخصية، ولكنه أقبل على قراءة القرآن إقبال رجل حديث العهد بالإسلام، فيه من الاستطلاع والتشوق ما ليس عند المسلمين الذين ورثوا هذا الكتاب العجيب فيما ورثوه من مال ومتاع ودار وعقار... وقد وصل هذا المهتدي إليه بشق الأنفس وعلى جسر من الجهاد والتعب.

كان سرور محمد إقبال باكتشاف هذا العالم الجديد من المعاني والحقائق أعظم من سرور (كولمبس) لما اكتشف العالم الجديد ونزل على شاطئه.

أما الذين ولدوا ونشئوا في هذا العالم الجديد، فكانوا ينظرون إلى (كولمبس) وأصحابه باستغراب ودهشة ولا يفهمون معنى لما كان يخامرهم من سرور وفرح، فإنهم لا يجدون في هذا العالم شيئًا جديدًا.

قراءة محمد إقبال للقرآن

ويستطرد النَّدوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ قائلًا: لقد كانت قراءة محمد إقبال للقرآن تختلف عن قراءة الناس، ولهذه القراءة الخاصة فضل كبير في تذوُّقِه للقرآن واستطعامِه إيَّاه.

وقد حكى قصته لقراءة القرآن قال: كنتُ تعمَّدتُ أن أقرأ القرآن صباح كل يوم، وكان أبي يراني فيسألني ماذا أصنع؟ فأجيبه: أقرأ القرآن، وظلَّ على ذلك ثلاث سنوات متتاليات يسألني سؤاله فأجيبه جوابي، وذات يوم قلت له: ما بالك يا أبي تسألني نفس السؤال وأجيبك جوابًا واحدًا، ثم لا يمنعك ذلك عن إعادة السؤال من غد؟ فقال: إنما أردت أن أقول لك يا ولدي: **اقرأ القرآن كأنما نُزِّل عليك**.

ومنذ ذلك اليوم بدأت أتفهم القرآن وأقبل عليه، فكان من أنواره ما اقتبستُ ومن دُرَرِه ما نَظَمتُ، ولم يزل محمد إقبال إلى آخر عهده بالدنيا يغوص في بحر القرآن ويطير في أجوائه ويجوب في آفاقه، فيخرج بعلم جديد وإيمان جديد وإشراق جديد

وقوة جديدة.

وكلما تقدمت دراسته واتسعت آفاق فكره، ازداد إيمانًا بأن القرآن هو الكتاب الخالد والعلم الأبدي، وأساس السعادة، ومفتاح الأقفال المعقدة، وجواب الأسئلة المحيرة، وأنه دستور الحياة، ونبراس الظلمات.

ولم يزل يدعو المسلمين وغير المسلمين إلى التدبر في هذا الكتاب العجيب وفهمه، ودراسته والاهتداء به في مشكلات العصر، واستفتائه في الأزمات المدنية وتحكيمه في الحياة والحكم، ويعتب على المسلمين إعراضهم عن هذا الكتاب، الذي يرفع الله به أقوامًا ويضع آخرين.

يقول في مقطوعة شعرية: إنك أيها المسلم لا تزال أسيرًا للمتزعمين للدين والمحتكرين للعلم، ما لم تستمد حياتك من حكمة القرآن رأسًا، إن الكتاب الذي هو مصدر حياتك ومنبع قوتك لا اتصال لك به إلا إذا حضرتك الوفاة، فيُقرأ عليك سورة (يس) لتموت بسهولة. فوا عجبًا! قد أصبح الكتاب الذي أنزل ليمنحك الحياة والقوة يتلى الآن لتموت براحة وسهولة[١].

---

(١) روائع إقبال لأبي الحسن الندوي (٣٧ - ٤٠) باختصار يسير.

ومن أشد الممارسات الخاطئة مع القرآن:

الإسراع في حفظ حروفه مع عدم العمل به

من أخطر الممارسات التي ساهمت في فتح القرآن وتخفيف هيبته في القلوب: الإسراع في حفظ حروفه، فقد رسخ في أذهان المسلمين ضرورة حفظ القرآن بعضه أو كله، وأن مجرد حفظ حروف القرآن ترفع صاحبها في الدنيا والآخرة، وتجعله من أهل القرآن ورفيقًا للسفرة الكرام البررة، وأنه سيستمر في الارتقاء في درجات الجنة حتى آخر آية كان يحفظها، وأنه سيقدَّم في الإمامة والرئاسة، وأنه سيُتوَّج يوم القيامة بتاج الكرامة وحُلَّة الكرامة، وأنه، وأنه.. وغير ذلك مما ورد في بعض الأحاديث والآثار.

فأدى ذلك إلى حرص كثير من المسلمين على حفظه شكلًا لا موضوعًا، وإن فات بعضهم ذلك فإنك تجدهم شديدي الحرص على إلحاق أولادهم بحلقات التحفيظ وبالمدارس التي تعتني بتحفيظه، فإن لم يتيسَّر للبعض هذا الشكل قام بالتعاقد مع بعض المُحفِّظين للقيام بذلك مع أبنائهم في منازلهم.. يبذلون هذا الجهد والأمل يحدوهم نحو التمتع بفضائل حفظ القرآن، وأنه أفضل وسيلة لتربية أولادهم على الأخلاق الفاضلة والسلوك الحسن.

ما الضير في حفظ حروف القرآن؟

فإن قلت وما الضير في ذلك؟

الإجابة أنه لا ضير في حفظ ألفاظه والعمل بها؛ ومن ثَم المكث في تعلُّمِها فترة من الزمن، كما كان يفعل الصحابة.

أما حفظ حروفه فقط فإن فيه كثيرًا من البأس، فهو يُعد بمثابة دليل الإدانة الذي يدينُ صاحبه أمام الله عَزَّوَجَلَّ بأنه يعرف الصواب ولا يعمل به.

نعم، أغلبنا يعرف الصواب ولا يعمل بالكثير منه، ولكن الذي يحفظ النصوص الدَّالة على ذلك تقام الحُجَّة عليه أكثر ممَّن لا يحفظ، وإن كان التقصير يشمل الجميع.

أقوى الأدلة

عندما يمثُل المتَّهم أمام المحكمة فإن أقوى الأدلة التي تدينه وتُثبت عليه التُّهمة أكثر هي اعترافاته بارتكاب الأخطاء، أو كما يقولون: الاعتراف سيد الأدلة، لذلك فالذي يحفظ النصوص التي تحث على الإنفاق في سبيل الله ثم لا يعمل بها، بل تجده حريصًا على المال شحيحًا به، فإنه عندما يُسأل يوم القيامة عن ماله وإنفاقه فإن الذي يثبت عليه التهمة أكثر وأكثر هو حفظه لتلك النصوص عن ظهر قلب!

هذا المثال ينطبق على بقية الأعمال مثل: الاختيال والتكبر والغرور وترك الجهاد والتهاون في أداء الصلاة.

ويكفيك أخي القارئ في تأكيد هذا المعنى قول رسول الله ﷺ: «**أُتِيتُ لَيْلَةَ أُسْرِيَ بِي عَلَى قَوْمٍ تُقْرَضُ شِفَاهُهُمْ بِمَقَارِيضَ مِنْ نَارٍ كُلَّمَا قُرِضَتْ وَفَتْ**[١]**، فَقُلْتُ: يَا جِبْرِيلُ مَنْ هَؤُلَاءِ؟ قَالَ: خُطَبَاءُ أُمَّتِكَ الَّذِينَ يَقُولُونَ وَلَا يَفْعَلُونَ، وَيَقْرَؤُونَ كِتَابَ اللهِ وَلَا يَعْمَلُونَ**»[٢].

---

(١) رجعت كما كانت.

(٢) رواه أحمد في المسند (١٩/ ٢٤٤ برقم: ١٢٢١١)، وأبو علي بن شاذان في الجزء الثامن من أجزائه=

منطلقات أساسية لفهم موضوع الحفظ

عندما نتحدث عن حفظ القرآن فلا بد أن نستحضر عدَّة نقاط تشكِّل منطلقات أساسية لفهم هذه القضية:

لماذا أنزل الله القرآن؟

من أهم النقاط التي ينبغي استحضارها حين التحدث عن حفظ القرآن هي الهدف من نزوله ووجوده بيننا.

فلقد أنزل القرآن لإنذار الناس، وهدايتهم إلى صراط الله المستقيم، وإخراجهم من الظلمات إلى النور، وشفاء قلوبهم من الأمراض التي تبعدها عن الصحة.

هذا المعنى يستدعي دوام الاتصال بالقرآن لتحصيل الهداية والشفاء والعلم والإيمان.

هذا الاتصال قد يكون من خلال القراءة في المصحف أو عن ظهر قلب؛ فالمقصد هو تحصيل الفوائد المرجوَّة من القرآن.

وبلا شك فإن وجود قدر من آيات القرآن في جوف المرء ضروري وأساسي للصلاة به، ولقراءته عندما يحال بينه وبين المصحف، شريطة ألا يغيب المقصود الأعظم من التعامل مع القرآن.

قدر القرآن عند الله

إن القرآن العظيم المتضمِّن لآيات الله البيِّنات ومعجزته العظيمة الخارقة، له

=(برقم: ٣٩) واللفظ له.

وضع خاص عنده سبحانه.

لذلك فلا يجوز التعامل الخاطئ معه، ولا يجوز الإعراض عنه، أو الغفلة عن توجيهاته، أو عدم تقديره حق قدره.. فإن حدث ذلك كان العقاب الفوري منه سبحانه. كما قال تعالى: ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴾ [الإسراء: ٨٢].

ومفهوم الظالمين -كما أسلفنا- يشمل من يضع آياته في غير موضعها، ومِن ثَمَّ فالذي لا ينتفع بآيات القرآن ويغفل عنها يعرض نفسه لعقوبة الخسران.

ويقول رسول الله ﷺ: «**إِنَّ اللَّهَ يَرْفَعُ بِهَذَا الْكِتَابِ أَقْوَامًا، وَيَضَعُ بِهِ آخَرِينَ**»[1].

ويقول: «**الْقُرْآنُ شَافِعٌ مُشَفَّعٌ، وَمَاحِلٌ[2] مُصَدَّقٌ**»[3]، أي سيصير القرآن إما يُحاجّ اللهَ عنا يوم القيامة أو يكون بمثابة دليل الإدانة علينا.

ويؤكد هذا المعنى قول أبي موسى الأشعري رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ عندما جمع عددًا من القرَّاء في الكوفة وقال لهم:

«إِنَّ هَذا القُرْآنَ كائِنٌ لَكَمْ ذِكْرى، وكائِنٌ لَكَمْ أجْرًا، أوْ كانَ عَلَيْكُمْ وِزْرًا، فاتَّبِعُوا القُرْآنَ، ولا يَتَّبِعْكُمُ القُرْآنُ، فَإنَّهُ مَن يَتَّبِعِ القُرْآنَ يَهْبِطْ بِهِ عَلى رِياضِ الجَنَّةِ، ومَن يَتَّبِعْهُ القُرْآنُ يَزُخُّ فِي قَفاهُ فَيَقْذِفُهُ فِي جَهَنَّمَ»[4].

(١) رواه مسلم (١/ ٥٥٩ برقم: ٨١٧).

(٢) قال ابن الأَثير أَي خَصْم مُجادل مُصدَّق.

(٣) رواه ابن حبان في صحيحه (١/ ٣٣٢ برقم: ١٢٤).

(٤) رواه ابن أبي شيبة في المصنف (٦/ ١٢٦ برقم: ٣٠٠١٤).

مفهوم حمل آيات القرآن ينبغي أن يتم تحريره

إن حمل آيات سورة (ما) يستلزم حفظ حروفها وفهم معانيها، وحمل إيمانها، والعمل بما تدل عليه، وذلك فترة من الزمن حتى يتم التخلق بها.. فسورة الليل على سبيل المثال يمكن للواحد منا أن يحفظ حروفها في بضع دقائق، أما العمل بما تدل عليه من التعرف على السنن الجالبة للتيسير والسعادة وممارستها في واقع الحياة، والسنن الجالبة للتعسير والكآبة وتجنبها، وكذلك التعود على إنفاق المال في سبيل الله الذي تحث عليه آيات السورة.. كل ذلك يحتاج إلى فترة من الزمن ليتحقق الحد الأدنى منه في ذات الإنسان، هذه الفترة قد تتراوح من أسبوع إلى أسبوعين مثلًا.

فالذي يحمل السورة لا بد أن يحملها لفظًا ومعنى وإيمانًا وعملًا حتى يصبح حاملًا لها على الحقيقة، فإن لم يحدث هذا واكتفى المرء بحمل الألفاظ فقط دون العمل بها فلا يؤمَن عليه أن يدخل في زمرة من يقول ولا يعمل... يتلو الآيات ولا يطبقها، فيكون ممن قال الله فيهم: ﴿**مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًاۢ بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ**﴾ [الجمعة: ٥].

وقول رسول الله ﷺ: «**إِنَّ أَكْثَرَ مُنَافِقِي أُمَّتِي قُرَّاؤُهَا**»[١] لأنهم حملوها لفظًا ولم يحملوها معنىً وعملًا.

فإن قلت: ولكنني حفظت بعض سور القرآن نتيجة لتكرار سماعها، ولم أتكلف ذلك، وبعض هذه السور حفظتها في الصغر، فهل ينطبق عليّ ما قيل في الأسطر السابقة؟!

---

(١) رواه أحمد في المسند (١١/ ٢٠٩ برقم: ٦٦٣٣).

.. نعم، ينطبق عليَّ وعليك إذا ما قدمنا أنفسنا بأن معنا سور كذا وكذا، أما إذا اعتبرنا ما حفظناه في الماضي -بقصد أو بدون قصد- أنه حفظ للألفاظ فقط، وأننا لم نتعلمها تعلمًا صحيحًا، ومن ثم فلا ينبغي أن يُبنى التعامل معنا على أساس حملنا لها (كالتقدم للإمامة أو المناصب..) فبذلك نكون -والله أعلم- قد رفعنا الحرج عن أنفسنا.

ومما يؤكد هذا المعنى أن عمر بن الخطاب عندما سأل ابنه عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: كم معك من القرآن؟ قال: عشر سور، وسأل ابنه عبيد الله: كم معك من القرآن؟ قال: سورة.. فلم يأمرهما ولم ينههما، كما يقول عبد الله بن عمر[١].

.. فهل كان عبيد الله لا يحفظ من ألفاظ القرآن إلا سورة واحدة؟! بالتأكيد كان يحفظ أكثر من ذلك نتيجة لتكرار قراءتها في الصلوات، وبخاصة السور القصيرة، لكنه يعتبر نفسه لم يتعلم إلا سورة واحدة، أما ما حفظه من ألفاظ فهي خارج حساباته إلى أن يتعلم ما فيها من علم وعمل.

الجمع الحقيقي للقرآن

فالجمع الحقيقي للقرآن يشمل اللفظ والمعنى والإيمان بالذي تحمله الآيات، ويشمل كذلك التخلُّق بها، وبهذا نفهم قول السيدة عائشة عن الرسول ﷺ: «**كَانَ خُلُقُه القُرآن، يرضَى لرضَاه، ويسخَطُ لسخَطِه**»[٢].

وقول عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «مَن جَمع القرآن فقد حَملَ أمرًا عظيمًا، وقد استُدرجَت النبوَّة بين جنبيه، إلا أنه لا يوحى إليه، ولا ينبغي لصاحب

---

(١) مصنف ابن أبي شيبة (٦/ ١٣٥ برقم: ٣٠٠٩٦).

(٢) رواه مسلم بلفظ كان خلقه القرآن (١/ ٥١٢ برقم: ٧٤٦)، والزيادة رواها أبو عبيد في الفضائل (ص: ١١١).

القرآن أن يحد فيمن يحد، ولا يجهل فيمن يجهل، وفي جوفه كلام الله عَزَّوَجَلَّ»[(١)].

يقول محقق مصنف ابن أبي شيبة: أي صار في نفسه خشوع النبوة والأنبياء.

معنى الحفظ

الحفظ في اللغة معناه: الرعاية والتعهُّد كما قال إخوةُ يوسف لأبيهم: ﴿أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [يوسف: ١٢].

وقد يكون المراد بالحفظ القيام بالحقوق والعمل بالواجبات مثل حديث: «**احفَظ اللّهَ يَحفَظكَ**». أي احفظ أوامر الله ونواهيه، فيحفظك بهذا.. فهو استئمان.

إن من أهم معاني «**حفظ الشيء**» هو الائتمان عليه وعلى ما فيه، ويؤكده قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ ۚ﴾ [المائدة: ٤٤].

يقول السعدي في قوله تعالى: ﴿بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ ۚ﴾: أي بسبب أن الله استحفظهم على كتابه، وجعلهم أمناء عليه، وهو أمانة عندهم، أوجب عليهم حفظه من الزيادة والنقصان والكتمان، وتعليمه لمن لا يعلمه. وهم شهداء عليه، بحيث إنهم المرجوع إليهم فيه، وفيما اشتُبِه على الناس منه، فالله تعالى قد حمَّل أهل العلم، ما لم يحمِّله الجُهَّال، فيجب عليهم القيام بأعباء ما حُمِّلوا، وألا يقتدوا في ذلك بالجُهال بالإخلاد إلى البطالة والكسل[(٢)].

فالذي يدَّعي أنه قد حفظ آيات القرآن وهو في الحقيقة لم يحفظ إلا حروفها فقط فقد حمَّل نفسه ما لا يطيق، كمن استؤمن على حفظ بِنَاية سكنية من السَّرقة، فلم يستشعر صعوبة ذلك، ولم يدرك أبعاد تلك المهمة، بل طلب أن يُستأمن على

(١) أخرجه أبو عبيد (ص: ١١٣)، واللفظ له، وابن أبي شيبة في مصنفه (٦/ ١٢٠ برقم: ٢٩٩٥٣).
(٢) تيسير الكريم الرحمن للسعدي (ص: ٢٣٣).

بنايات الحي كلِّه، وكأنه لا يدرك مدى ما يُوقع نفسه فيه من التَّبعة، لذلك شبَّه الله عَزَّوَجَلَّ من يفعل ذلك بالحِمار؛ لأنه لا يفهم حقيقة الأمر، ولو أدرك المفهوم الحقيقي للحفظ لما سارع في ذلك، بل لتمهل وتمهل ولم يورِّط نفسه.

الحفظ الحقيقي لسور القرآن

يؤكد الدكتور فريد الأنصاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ على المفهوم الحقيقي للحفظ فيقول:

«إن الذي لا يكابد منزلة الإخلاص، ولا يجاهد نفسه على حصنها المنيع، ولا يتخلَّق بمقام توحيد الله في كل شيء، رغبًا ورهبًا، لا يُمكن أن يُعتبرَ حافظًا لسورة الإخلاص.

وإن الذي لا يذوق طعمَ الأمان عند الدخول في حِمى (المُعوَّذتين) لا يكون قد اكتسب سورتي الفلق والناس!

ثم إن الذي لا تلتهب مواجيدُه بأشواق التهجد لا يكون من أهل سورة المزمِّل!

ثم إن الذي لا تحترق نفسُه بجمر الدعوة والنِّذارة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ليس من المتحققين بسورة المدَّثر!

ثم إن المستظهر لسورة البقرة، إذا لم يُسلِم وجهَه لله في كل شيء، ولم يسلك بها إلى ربه، متحققًا بأركان الإسلام وأصول الإيمان، مُتخلِّقًا بمقام الجهاد في سبيل الله، صابرًا في البأساء والضراء وحين البأس، مُتنزِّهًا عن المحرَّمات في المطعومات والمشروبات.. إلخ، واضعًا عنقه تحت رِبْق الشريعة في دينه ونفسه وماله، مُتحققًا بخُلق السمع والطاعة لله على كل حال، من غير تردُّد ولا استدراك؛ لا يكون حافظًا لسورة البقرة!

وإنما الحافظ للشيء هو الحافظ لأمانته، المتحقق بحكمته، العامل بمقتضاه، المكابد لمَا تلقَّى عنه من حقوق الله»(١).

مفهوم نسيان القرآن

القرآن كتاب هذه الأمة، وهو رسالة الله الأخيرة للبشرية، يحمل في طيَّاته مفاتح السعادة والهداية والشفاء والتغيير.

ولكي تتم الاستفادة من القرآن في تحصيل ذلك كله؛ لا بد من التعامل الصحيح مع آياته وفهمها والتفكر فيها وعدم نسيان ما تدل عليه، وممارسة ذلك في واقع الحياة.

فأخطر شيء على المسلم أن يستزيد علمًا من الآية، ويتعرف على ما فيها من دلائل لأسماء الله وصفاته، وما يرشده ذلك إلى الترقي في مدارج السالكين إليه سبحانه، ثم بعد ذلك يهمل هذه المعاني وينساها: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ ۚ إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾ [السجدة: ٢٢].

هذا المفهوم مع ما قبله من مفاهيم يحسم بإذن الله مسألة الذم الوارد في نسيان آيات القرآن ويسقطها على نسيان معناها والعمل بها، ويؤكد ذلك قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا ۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ۚ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٢٧﴾﴾ [طه: ١٢٣- ١٢٧].

قال ابن كثير في تفسيره: أي لمَّا أعرضت عن آيات الله وعاملتها معاملة من لم

(١) هذه رسالات القرآن، فريد الأنصاري (ص: ١٤-١٦).

يذكرها بعد بلاغها إليك، تناسيتها، وأعرضت عنها، وأغفلتها، كذلك اليوم نعاملك معاملة من ينساك.. **فأما نسيان لفظ القرآن مع فهم معناه والقيام بمقتضاه فليس داخلًا في هذا الوعيد الخاص**[(١)].

وقال الإمام الطبري في تفسير قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [الأنعام: ٤٤]: يعني لما تركوا العمل بما أمرناهم به على ألسن رسلنا[(٢)].

فالأحاديث الواردة في ذم نسيان القرآن تنصرف بالأساس على ترك العمل به -كما يقول الإمام أبو شامة- لأن النسيان هو الترك، لقوله تعالى:

﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ﴾ [طه: ١١٥].

وقال: وللقرآن يوم القيامة حالتان:

أحدهما: الشفاعة لمن قرأه ولم ينسَ العمل به.

والثانية: الشكاية على مَن نسِيَه، أي: تركه تهاونًا ولم يعمل به.

وقال أيضًا: ولا يبعد أن يكون من تهاون به حتى نسي تلاوته كذلك[(٣)].

وأورد القرطبي في التذكار عن سفيان بن عيينة قوله: وليس مَن اشتُهر بحفظ شيء من القرآن وتفلَّت منه بناسٍ، إذا كان يُحلُّ حلالَه ويُحرِّم حرامَه.

قال القرطبي: وهذا تأويل حسنٌ جدًا، وفيه توجيه[(٤)].

---

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٣/ ١٦١).

(٢) تفسير الطبري (١١/ ٣٥٨).

(٣) الزواجر لابن حجر الهيتمي (ص: ٣١٣).

(٤) ذكره القرطبي في التذكار في أفضل الأذكار (ص: ١٦٤) وأسنده ابن عبد البر في الاستذكار (٨/ ٥٨) مطولًا إلى سفيان، وفيه: ولو كان كذلك ما نسي النبي ﷺ شيئًا منه، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ﴿٦﴾ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ ﴿٧﴾﴾ [الأعلى: ٦، ٧] وقد أنسي رسول الله ﷺ منه أشياء وقال: **ذكرني** =

ومما يؤكد هذا المعنى قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَهُمۡ فَنَسُواْ حَظّٗا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَأَغۡرَيۡنَا بَيۡنَهُمُ ٱلۡعَدَاوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ﴾ [المائدة: ١٤].

فالنسيان الحقيقي للآيات هو نسيان معناها وما تدل عليه وكذلك ترك العمل بها؛ لأن المرء بذلك يكون قد ظلم بالآية عندما لم يضعها في مكانها الصحيح.

وبهذا ندرك معنى قول أبو العالية رَحِمَهُ ٱللَّهُ موقوفًا: «كنَّا نعدُّ مِن أعظمِ الذنوب أن يتعلَّم الرجلُ القرآنَ ثم ينام عنه حتى ينساه»(١).

إن نسيان اللفظ وارد في حق أي إنسان، بل إن الرسول ﷺ أُنسي بعض الآيات كما ورد في البخاري عن عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا، قالت: سمع رسول الله ﷺ رجلًا يقرأ في سورة بالليل، فقال: «**يَرْحَمُهُ اللهُ، لَقَدْ أَذْكَرَنِي كَذَا وَكَذَا، آيَةً كُنْتُ أُنْسِيتُهَا مِنْ سُورَةِ كَذَا وَكَذَا**»(٢).

عن أي شيء سيكون السؤال؟!

فعلى سبيل المثال -ولله المثل الأعلى- لو أن رجلًا سافر للعمل في مكان بعيد، وفي أثناء سفره أرسل إلى ابنه خطابًا يطلب فيه القيام بأعمال موقوتة بزمن محدد كسداد أقساط، وزيارة أرحام، ففرح الابن فرحًا شديدًا بخطاب أبيه، وظل يقلبه ويعطره، ويتأمل خطه، ويحفظ كلماته دون أن يُعمل عقله في فهمها، ومن ثم

= **هذا آية أُنسيتها**، .. ولو كان النسيان الممنوع هو نسيان اللفظ لما أنسى الله نبيه منه شيئًا. انتهى بتصرف يسير.

(١) الزهد لأحمد بن حنبل (ص: ٢٤٥ برقم: ١٧٤٧).

(٢) رواه البخاري (٦/ ١٩٤ برقم: ٥٠٣٨)، ومسلم (١/ ٥٤٣ برقم: ٧٨٨).

لم يقم بأداء الأعمال التي كلفه بها والده، فماذا تتوقع من ردة فعل الأب حين يأتي من سفره؟! هل سيكون فرحًا سعيدًا بحفظ ابنه لألفاظ خطابه مع عدم قيامه بالأعمال التي كلفه بها؟! أم العكس؟! أترك لك الإجابة أخي القارئ..!

من هنا نقول بأننا لن نُسأل أو نحاسب يوم القيامة عن عدم حفظ القرآن، ولكن سنُسأل عن عدم العمل به: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴾ [الزخرف: ٤٤].

العمل هو الأساس

إن كل ما جاء من أحاديث في فضل الحفظ فإنما يتقيد بالعمل بالآيات والتحقق بها، ويشهد على ذلك الحديث الذي رواه النواس بن سمعان الكلابي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سمعت النبي ﷺ يقول:

«يُؤْتَى بِالْقُرْآنِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَأَهْلِهِ الَّذِينَ كَانُوا يَعْمَلُونَ بِهِ، تَقْدُمُهُ سُورَةُ الْبَقَرَةِ وَآلُ عِمْرَانَ»، وضرب لهما رسول الله ﷺ ثلاثة أمثال ما نسيتهن بعد، قال: **«كَأَنَّهُمَا غَمَامَتَانِ، أَوْ ظُلَّتَانِ سَوْدَاوَانِ بَيْنَهُمَا شَرْقٌ، أَوْ كَأَنَّهُمَا حِزْقَانِ مِنْ طَيْرٍ صَوَافَّ تُحَاجَّانِ عَنْ صَاحِبِهِمَا»**[1].

فالحديث يؤكد ارتباط العمل بالقرآن لنيل الفضائل والدرجات العُلى، وليس هذا فحسب، بل إن الأحاديث الواردة في الوعيد لمن جمع ألفاظ القرآن ولم يعمل بها تؤكد على هذا المعنى: روى البخاري من حديث سمرة بن جندب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ رؤيا النبي ﷺ وفيها:

«فَانْطَلَقْنَا حَتَّى أَتَيْنَا عَلَى رَجُلٍ مُضْطَجِعٌ عَلَى قَفَاهُ، وَرَجُلٌ قَائِمٌ عَلَى رَأْسِهِ بِفِهْرٍ أَوْ صَخْرَةٍ، يَشْدَخُ بِهِ رَأْسَهُ، فَإِذَا ضَرَبَهُ تَدَهْدَهَ الْحَجَرُ، فَانْطَلَقَ إِلَيْهِ لِيَأْخُذَهُ فَلَا يَرْجِعُ

---

(١) رواه مسلم (١/ ٥٥٤ برقم: ٨٠٥)، ومعنى حزقان: أي جماعتان، والحزق: الجماعة من كل شيء.

إِلَى هَذَا حَتَّى يَلْتَئِمَ رَأْسُهُ، وَعَادَ رَأْسُهُ كَمَا هُوَ، فَعَادَ إِلَيْهِ فَضَرَبَهُ، قُلْتُ: مَنْ هَذَا؟ قَالَا: انْطَلِقْ».

وفي آخر الحديث: «وَالَّذِي رَأَيْتَهُ يُشْدَخُ فِي رَأْسِهِ فَرَجُلٌ عَلَّمَهُ اللهُ الْقُرْآنَ، فَنَامَ عَنْهُ بِاللَّيْلِ، وَلَمْ يَعْمَلْ فِيهِ بِالنَّهَارِ، يُفْعَلُ بِهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ»(١).

إن الأمر -أخي القارئ- جد خطير، فعن عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «يَظْهَرُ الْإِسْلَامُ حَتَّى يَخْتَلِفَ التُّجَّارُ فِي الْبَحْرِ، وَحَتَّى تَخُوضَ الْخَيْلُ فِي سَبِيلِ اللهِ، ثُمَّ يَظْهَرُ قَوْمٌ يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ، يَقُولُونَ: مَنْ أَقْرَأُ مِنَّا؟ مَنْ أَعْلَمُ مِنَّا؟ وَمَنْ أَفْقَهُ مِنَّا؟» ثم قال لأصحابه: «هَلْ فِي أُولَئِكَ مِنْ خَيْرٍ؟»

قالوا: الله ورسوله أعلم.

قال: «أُولَئِكَ مِنْكُمْ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ، وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ»(٢).

وقبل كل هذه الأحاديث وغيرها؛ ألم يقل الله جل شأنه في كتابه: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارَۢا ۚ بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الجمعة: ٥].

يقول ابن القيم في تعليقه على هذه الآية:

فقاس من حمَّله كتابه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ليؤمن به ويتدبره ويعمل به، ويدعو إليه، ثم خالف ذلك، ولم يحمله إلا عن ظهر قلب، فقراءته بغير تدبر ولا تفهم ولا اتباع له، ولا تحكيم له وعمل بموجبه؛ كحمار على ظهره زاملة أسفار لا يدري ما فيها، وحظه منها حمله على

---

(١) رواه البخاري (٢/ ١٠٠: ١٣٨٦).

(٢) رواه البزار (١/ ٤٠٥ برقم: ٢٨٣)، والطبراني في الأوسط واللفظ له (٦/ ٢٢١ برقم: ٦٢٤٢).

ظهره ليس إلا، فحظه من كتاب الله كحظ هذا الحمار من الكتب التي على ظهره. فهذا المثل وإن كان قد ضرب لليهود فهو متناول من حيث المعنى لمن حمل القرآن فترك العمل به، ولم يؤد حقه، ولم يرعه حق رعايته[١].

لماذا يُقدَّم الأكثر أخذًا للقرآن؟

من هنا يتبين بأن الأحاديث الواردة في تقديم الأكثر جمعًا للقرآن في الصلاة والإمامة والرئاسة تنطلق من هذا المعنى، وهو معنى صحيح، لأن الأكثر أخذًا للقرآن بناء على ما سبق هو الأكثر تطبيقًا له، وهو الأكثر استقامة على أمر الله عَزَّوَجَلَّ فيما يبدو للناس، ومن ثم فهو الأحق بالتقديم.

عن عمرو بن سلمة عن أبيه: أنهم وَفَدوا إلى النبي ﷺ، فلمّا أرادوا أن ينصرفوا قالوا: يا رسولَ الله، من يَؤُمّنا قال: «**أَكْثَرُكُمْ جَمْعًا لِلْقُرْآنِ، أو أَخْذًا لِلْقُرْآنِ**»[٢].

وعن هشام بن عامر الأنصاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: لما كان يوم أُحد أصابَ الناس قرح، وجهد شديد، فقال رسول الله ﷺ: «**احْفُرُوا وَأَوْسِعُوا وادْفِنُوا الاثْنَيْنِ، وَالثَّلَاثَةَ فِي الْقَبْرِ**» قالوا: يا رسول الله، مَن نُقدِّم؟ قال: «**أَكْثَرَهُمْ جَمْعًا، وَأَخْذًا لِلْقُرْآنِ**»[٣].

ولعلنا بذلك ندرك المعنى الذي يرمي إليه الصحابي أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أن رجلًا كان يكتب للنبي ﷺ وقد كان قرأ: البقرة وآل عمران، وكان الرجل إذا قرأ البقرة وآل عمران جدَّ فينا؛ يعني عَظُم[٤].

---

(١) إعلام الموقعين عن رب العالمين (١/ ١٥٠).

(٢) رواه أبو داود (١/ ٤٣٩ برقم: ٥٨٧).

(٣) رواه أحمد (٢٦/ ١٨٣ برقم: ١٦٢٥١)، وأبو داود (٥/ ١٢٣ برقم: ٣٢١٥)، والترمذي (٤/ ٢١٣ برقم: ١٧١٣)، وقال: حديث حسن صحيح، والنسائي (٤/ ٨١ برقم: ٢٠١١).

(٤) رواه أحمد (١٩/ ٢٤٧ برقم: ١٢٢١٥)، واللفظ له، والبخاري (٤/ ٢٠٢ برقم: ٣٦١٧)، ومسلم (٤/ ٢١٤٥ برقم: ٢٧٨١).

أين فِعْل الصحابة من هذه المنطلقات؟

فإذا ما أسقطنا هذه المفاهيم والمنطلقات على واقع الصحابة لوجدنا مطابقة كاملة، فهم لم يكونوا حريصين على الإسراع في حفظ ألفاظ القرآن، بل كانوا يبقون مدة في حفظ السورة، وكان الحفاظ بينهم قليلين، وكانوا ينهون من بعدهم عن الإسراع في الحفظ، وكانوا ينزعجون من جمع القرآن في السن الصغيرة، وإليك أخي القارئ ما يؤكد ذلك من الأخبار الواردة عنهم.

الصحابة وحفظ القرآن

كان الحفاظ بين الصحابة قلة، وذلك لشدة اهتمامهم بالعمل والتطبيق، والخوف من حمل الألفاظ وعدم التحقق بمقتضاها، كما سيأتي بيانه، ولم تكن قضية حفظ الحروف تحتل عندهم -في اهتماماتهم- ما تحتله عندنا، بل إن ما نُقل عنهم من أخبار صحيحة يؤكد العكس، ويكفيك في ذلك أنهم كانوا يتخوفون من كثرة القرَّاء كما سيأتي بيانه، وهذا يدل على فهمهم العميق لأمر القرآن، وتخوفهم من الانحراف عن مساره الصحيح بالاهتمام بألفاظه دون العمل به.

ويكفي هذا الدليل لكل من يرى أفضلية لحفظ الألفاظ فقط، فلو كان الأمر كذلك لتسابق الصحابة إلى حفظ الألفاظ لأنهم أكثر الأجيال حبًا للقرآن وإدراكًا لأهميته، وتوقًا لنيل فضائله، مع سهولة ذلك عليهم لنزول القرآن بلغتهم، فكيف لهم أن يتركوا هذه الفضيلة وهم الذين عاصروا نزوله وذاقوا حلاوته؟

إن عدم تسابق الصحابة لحفظ ألفاظ القرآن ينبغي أن يَحسِم هذه المسألة؛ لأنهم النموذج التطبيقي الصحيح لمعاني الإسلام، وهم القدوة لنا بعد رسول الله ﷺ.

يقول عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «كان الفاضل من أصحاب رسول الله في صدر هذه الأمة لا يحفظ من القرآن إلا السورة أو نحوها، ورُزقوا العمل بالقرآن، وإن آخر هذه الأمة يخفف عليهم القرآن، منهم الصبي والأعمى، ولا يُرزقون العمل به»(١).

(١) رواه بنحوه الآجري في أخلاق حملة القرآن (ص: ٣٧)، وذكره القرطبي بلفظه في مقدمة تفسيره (١/ ٤٠).

تأمل قول عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا : كان الفاضل من أصحاب رسول الله ﷺ لا يحفظ من القرآن إلا السورة أو نحوها.. فماذا نقول بعد ذلك؟

لقد ظل عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يتعلم ويحفظ في سورة البقرة ويعمل بها اثنتي عشرة سنة فلما أتمَّها نحَرَ جزورًا، وهذا ابنه عبد الله يتعلَّمها في ثماني سنوات[1].

ولعل هذا الأثر يرد على من يقول بأن الصحابة لم يتمكنوا من حفظ القرآن لكبر أعمارهم وتقدمهم في السن، فهذا الشاب عبد الله بن عمر يظل ثماني سنوات يحفظ ويتعلم سورة البقرة.

يقول الحسن البصري: تُوفِي رسول الله ﷺ وما استكمل حفظ القرآن من الصحابة رضوان الله عليهم إلا النفر القليل، استعظامًا له ومتابعة لأنفسهم بحفظ تأويله، والعمل بمحكمه والإيمان بمتشابهه[2].

ويؤكد قول الحسن ما أخرجه البخاري ومسلم في صحيحيهما عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال: مات النبي ﷺ ولم يجمع القرآن غير أربعة: أبو الدرداء ومعاذ بن جبل وزيد بن ثابت وأبو زيد[3].

ولقد غضب عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لما بلغه أن هناك رجلًا يُمِلُّ القرآن عن ظهر قلب، ولم يسكن غضبه إلا عندما علم أنه عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ باعتباره

---

(١) الأثر عن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ رواه البيهقي في الشعب (٣/ ٣٤٦ برقم: ١٨٠٥)، ورواه مالك في الموطأ عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، كتاب القرآن، باب ما جاء في القرآن (من رواية يحيى بن يحيى برقم: ٤٧٩).

(٢) الحسن البصري لابن الجوزي (ص: ٩٨).

(٣) البخاري (٦/ ١٨٧ برقم: ٥٠٠٤)، واللفظ له، ومسلم (٤/ ١٩١٤ برقم: ٢٤٦٥).

أحد القلائل الذين جمعوا القرآن بحقه، فعن إبراهيم بن علقمة قال: جاء رجل إلى عمر بن الخطاب فقال: إني جئتك من عند رجل يُمِلُّ المصحف عن ظهر قلب، ففزع عمر وغضب وقال: ويحك! انظر ما تقول؟ قال: ما جئتك إلا بالحق. قال: من هو؟ قال: عبد الله بن مسعود. قال: ما أعلم أحدًا أحق بذلك منه[١].

وأخرج ابن أشتة في المصاحف عن ابن سيرين قال: مات أبو بكر ولم يجمع القرآن، وقُتل عمر ولم يجمع القرآن[٢].

وقال الحسن: مات عمر بن الخطاب ولم يجمع القرآن. قال: أموت وأنا في زيادة أحب إلي من أن أموت وأنا في نقصان. قال الأنصاري: يعني نسيان القرآن[٣].

طريقة الصحابة في حفظ القرآن

مع اهتمام الصحابة الشديد بالقرآن، والحرص على تلاوته كل يوم، وطول المكث معه، إلا أن هذا لم يدفعهم للإسراع في حفظ آياته **لإدراكهم خطورة ذلك**.

وليس أدل على هذا الأمر من قول أبي عبد الرحمن السُّلَمي: حدثنا من كان يُقرئنا القرآن من أصحاب النبي ﷺ أنهم كانوا يقترئون من رسول الله ﷺ عشر آيات، فلا يأخذون في العشر الأخرى حتى يعلموا ما في هذه من العلم والعمل،

---

(١) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء (١/ ١٢٤)، والنسائي في السنن الكبرى (٧/ ٣٥٢ برقم: ٨٢٠٠)، وذكر الهيثمي في المقصد العلي في زوائد أبي يعلى الموصلي (٣/ ٢١٤): جاء رجل إلى عمر وهو بعرفة فقال: يا أمير المؤمنين جئت من الكوفة وتركت رجلًا يملي المصحف عن ظهر قلب غفلًا. قال: فغضب عمر وانتفخ حتى كاد يملأ ما بين شعبتي الرحل. فقال: ويحك من هو؟ قال: فقال: عبد الله بن مسعود. فما زال عمر يطفئ ويستر عنه الغضب حتى عاد إلى حاله التي كان عليها، فقال: ويحك والله ما أعلمه بقي أحد من الناس هو أحق بذلك منه.

(٢) ذكره السيوطي في الإتقان في علوم القرآن (١/ ٢٤٨)، وقال: بسند صحيح.

(٣) فضائل القرآن لأبي عبيد (ص: ٢٠٤).

قالوا: فعلمنا العلم والعمل[١].

وقال عبد الله بن مسعود رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «كان الرجل منَّا إذا تعلَّم عشرَ آياتٍ لم يُجاوزهُنَّ حتى يعرفَ معانيَهُنَّ والعملَ بهنَّ»[٢].

وقال: كنا إذا تعلمنا من النبي ﷺ عشر آيات من القرآن، لم نتعلم من العشر التي نزلت بعدها حتى نعلم ما فيه، قيل لشريك (راوي الأثر): من العمل؟ قال: نعم[٣].

لهذا -كما يقول الإمام ابن تيمية- كانوا يبقون مُدَّة في حفظ السورة[٤].

ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا وجمع المُفَصَّل

إننا نرى اليوم من يحفظ القرآن كله من الأطفال وهو ابن ست أو سبع سنوات، فهل هذا الطفل يعي شيئًا مما يحفظه؟ فإذا ما نظرنا لعبد الله بن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا الذي نشأ بين الصحابة وفي بيئة القرآن، وكان ﷺ يتعاهده، ودعا له بالفقه في الدين وتعلم التأويل.. ألم يكن من الأولى أن يجتهد ابن عباس في حفظ القرآن كله في هذه البيئة لو كان هذا الحفظ اللفظي فقط له فضيلة؟!.. إن الروايات تخبرنا بأن ابن عباس جمع المُفصَّل (أي من سورة ق إلى سورة الناس) ولكن في أي سن؟

روى سعيد بن جبير عن عبد الله بن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا أنه قال: جمعت المُحكم في عهد رسول الله ﷺ، فقلت له: وما المحكم؟ قال: المُفَصَّل[٥] وكانت سِنُّه إذا ذاك ثلاث عشرة سَنة أو دونها.

---

(١) رواه أحمد في المسند (٣٨/ ٤٦٦ برقم: ٢٣٤٨٢).

(٢) الطبري في مقدمة التفسير (١/ ٨٠).

(٣) رواه الحاكم في المستدرك (١/ ٧٤٣ برقم: ٢٠٤٧) وقال: صحيح.

(٤) مجموع الفتاوى (١٣/ ٣٣١).

(٥) رواه البخاري (٦/ ١٩٣ برقم: ٥٠٣٦).

اللهم غُفرًا

لقد كان جمع القرآن عند الصحابة يعني الكثير والكثير، فهذا رجلٌ أتى أبا الدرداء فقال: يا أبا الدرداء إن ابني هذا قد جمع القرآن، فقال: اللهم غُفرًا، إنما جمَعَ القرآن مَن سِمعَ له وأطاع[١].

يُعلقُ القاضي الباقلاني على هذا الأثر فيقول: فهذا إنكارٌ يدل على أن هذا الوصف عندهم بجمعه إنما يجري على من عمل بموجبه، ووقف عند حدوده[٢].

ويُخبر إبراهيم النَّخعِيُّ عن طريقة تعامل الصحابة مع أولادهم في تعليم القرآن فيقول: كانوا يَكرهون أن يعلِّموا أولادَهم القرآن حتى يعقِلوا (حتى يفقهوا ما يقرءون)[٣].

كم معك من القرآن؟

تأمل -أخي- هذا الأثر الذي يحمل دلالات هامة في عدم اهتمام الصحابة بتحفيظ أولادهم القرآن بقدر اهتمامهم بالعمل به، وهذا لا ينفي أهمية وجود قدر من القرآن في جوف المسلم حتى يتسنَّى له الصلاة به، والاتصال بالله من خلاله، وإقامة الحجة على الناس واستنقاذهم من الضلال بتلاوته عليهم.

أخرج ابن أبي شيبة عن ابن عمر قال: سألني عمر: كم معك من القرآن؟ قلت: عشر سور.

فقال لعبيد الله: كم معك من القرآن؟ قال: سورة.

---

(١) فضائل القرآن للقاسم بن سلام (ص: ١٣٢، ١٣٣).

(٢) الانتصار للقرآن للقاضي الباقلاني (١/ ١٧٨).

(٣) مصنف ابن أبي شيبة (٦/ ١٥٣ برقم: ٣٠٢٨٠).

قال عبد الله: فلم ينهنا ولم يأمرنا، غير أنه قال: وإن كنتم متعلمين منه بشيء فعليكم بهذا المُفصَّل فإنه أحفظ[١].

إن هذا الأثر يحمل في طياته الكثير من الدلالات التي تؤكد لنا المفهوم الحقيقي للحفظ، وأنه كان يُقصد به عند الصحابة اللفظ والمعنى والعمل، فبالتأكيد كان عبيد الله يحفظ ألفاظ أكثر من سورة، وذلك بكثرة تكرارها أمامه، وقلة ألفاظها، كسور الإخلاص والكوثر والفلق والناس والنصر وقريش والعصر والكافرون، لكنه لم يتعلم تعلمًا حقيقيًا إلا سورة واحدة، لذلك أجاب عمر بن الخطاب هذه الإجابة، فهو وإن كان يحفظ ألفاظ عدة سور، لكنه يعدُّ نفسه بأنه ليس معه منها شيء، فالعبرة عندهم كانت بما تعلموه.

ويؤكد هذا المعنى الأثر الذي مر علينا عن عبد الله بن عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا الذي قال فيه: كان الفاضل من أصحاب رسول الله في صدر هذه الأمة لا يحفظ من القرآن إلا السورة أو نحوها[٢].

فبالتأكيد كانوا يحفظون ألفاظ عدة سور، لكنهم لا يعدُّون أنفسهم بأنهم قد جمعوها ما داموا لم يتعلموا ما فيها من علم وإيمان وعمل.

تخوف الصحابة من كثرة القرَّاء

إننا نجد في زماننا من يقوم بتشجيع النشء والشباب على حفظ القرآن كله، ويرصدون لذلك الجوائز الضخمة، بل إن البعض قام بتوفير أماكن للإقامة الكاملة لكي يتمكن الأفراد من استكمال الحفظ في شهرين أو أقل، وهم بهذه الأفعال يحسبون أنهم يخدمون الدين، ويرفعون من شأن الأمة!

لقد ورثنا القرآن ألفاظًا تتلى على المقابر، وفي المقاهي، وسرادقات العزاء..

---

(١) مصنف ابن أبي شيبة (٦/ ١٣٥ برقم: ٣٠٠٩٦).

(٢) القرطبي (١/ ٤٠).

ورثناه كتابًا مقدسًا لكنه صار مهملًا غير منتفع به، لا يُرجع إليه ولا يُستفتى في نازلة، بل تُحفَظُ ألفاظه، وتُزين الجدران بكلماته.

لم ننتبه إلى وظيفة القرآن الأساسية والمتفردة، ولم نفكر في روح القرآن الغائبة وأثره المفقود بيننا، وظننا أن ما نفعله مع القرآن، من تشجيع على حفظه، وكفالة المؤسسات القائمة عليه هو قمة خدمتنا له!

وفي المقابل إذا ما عدنا لجيل الصحابة وجدنا عكس ما نفعله، وبخاصة في مجال الحفظ، فلم يكن منهم من الحفاظ إلا قلة، والأعجب أنهم كانوا لا يفرحون بكثرة الحفاظ بينهم، لإدراكهم أن ذلك يُعد بمثابة منزلق خطير يؤدي في النهاية إلى اهتمام المسلمين بحفظ الألفاظ وإهمالهم المعاني والأعمال، فتكون النتيجة الحتمية هي استدعاء العقوبة الإلهية بالحرمان من روح القرآن وأثره.

ولك أخي القارئ أن تتأكد من ذلك بقراءتك لهذه الأخبار الواردة عنهم.

كَتب إلى عمر بن الخطاب بعضُ عماله في العراق يخبرونه أن رجالًا قد جمعوا كتاب الله تعالى، فكتب لهم عمر أن افرض لهم في الديوان، فكثُر من يطلب القرآن، فكُتب إليه من قابل أنه قد جمع القرآن سبعمائة رجل، فقال عمر: **إني لأخشى أن يسرعوا في القرآن قبل أن يتفقهوا في الدين، فكتب ألا يعطيهم شيئًا**[١].

وعن الحسن قال: لمَّا قدِم أبو موسى البصرة كتب إليه عمر يُقرِئ الناس القرآن، فكتب إليه بعدة ناس قرؤوا القرآن فحمد الله عمر، ثم كتب إليه في العام القابل بعدةٍ هي أكثر من العِدة الأولى، ثم كتب إليه في العام الثالث، فكتب إليه عمر يحمد الله على ذلك، وقال: **إن بني إسرائيل إنما هلكت حين كثُرت قرَّاؤهم**[٢].

(١) الحوادث والبدع للطرطوشي (ص: ٢٠٦، ٢٠٧).

(٢) عزاه المتقي الهندي في كنز العمال(برقم: ٢٩٤٠٣) إلى كتاب الإيمان للحافظ عبد الرحمن الأصفهاني.

ولك أن تعجب معي أخي القارئ وأنت تقرأ الأخبار القادمة التي يتحدث فيها بعض الصحابة عن فتنة تتغير فيها السنة الصحيحة، فإذا ما خولفت قيل خولفت السُّنَةُ، وكأنهم يتحدثون عن عصرنا، وليس أدل على ذلك مما نراه في موضوع حفظ ألفاظ القرآن الذي أصبح وكأنه من أساسيات الدين عند البعض.

عن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ **قال**: كيف أنتم إذا لبستكم فتنة يربو فيها الصغير، ويهرم الكبير، وتُتخذ سُنة مبتدعة يجري عليها الناس، فإذا غُيِّر منها شيء قيل: قد غُيِّرت السُنة، قيل: متى ذلك يا أبا عبد الرحمن؟ قال: **إذا كثُر قرَّاؤكم**، وقلَّ فقهاؤكم، وكثُر أمراؤكم، وقلَّ أمناؤكم، والتُمست الدنيا بعمل الآخرة، وتُفُقِّه لغير الدين[(١)].

ويؤكد حذيفة بن اليمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ على هذا المعنى فيقول: يا معشر العرب كيف أنتم إذا لبستكم فتنةٌ يهرم عليها الكبير ويربو فيها الصغير، يتخذونها سُنة، **فإذا غُيرت قيل هو منكر**.

قيل: ومتى ذاك؟ قال: **إذا كثرت قرَّاؤكم**، وقلَّت فقهاؤكم، وتُفُقِّه لغير الدين، والتُمست الدنيا بعمل الآخرة[(٢)].

ومما يلفت الانتباه أن الإمام الحافظ المستغفري قد ضمَّن كلام حذيفة وابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا تحت باب جعله بعنوان: **باب ما جاء في كثرة القرَّاء وقلة الفقهاء آخر الزمان**.

---

(١) رواه ابن أبي شيبة (٧/ ٤٥٢ برقم: ٣٧١٥٦)، والدارمي (١/ ٢٧٨ برقم: ١٩١)، والحاكم (٤/ ٥٦٠ برقم: ٨٥٧٠) وصححه ووافقه الذهبي، وابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله (١/ ٦٥٤ برقم: ١١٣٥)، واللفظ له.

(٢) فضائل القرآن للمستغفري (١/ ٢٧٤ برقم: ٢٦٩).

تخويفهم الدائم للقرَّاء

كان الصحابة يتخوَّفون من الاستدراج نحو بريق حفظ ألفاظ القرآن، وكانوا دائمي التوجيه والتخويف والنصيحة للقرَّاء بأن يستقيموا على أمر الله وأن يعملوا بما يحملون من كلام الله.

فهذا حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول: «يا مَعْشَرَ القُرَّاءِ اسْتَقِيمُوا فقَدْ سَبَقْتُمْ سَبْقًا بَعِيدًا، فإِنْ أَخَذْتُمْ يَمِينًا وشِمالًا، لقَدْ ضَلَلْتُمْ ضَلالًا بَعِيدًا»(١).

«بَعَثَ أَبُو مُوسى الأَشْعَرِيُّ إلى قُرَّاءِ أَهْلِ البَصْرَةِ، فَدَخَلَ عَلَيْهِ ثَلاثُمِائَةِ رَجُلٍ قَدْ قَرَءُوا القُرْآنَ، فَقالَ: أَنْتُمْ خِيارُ أَهْلِ البَصْرَةِ وقُرَّاؤُهُمْ، فاتْلُوهُ، ولا يَطُولَنَّ عَلَيْكُمُ الأَمَدُ فَتَقْسُوَ قُلُوبُكُمْ، كَما قَسَتْ قُلُوبُ مَن كانَ قَبْلَكُمْ»(٢).

كلام نفيس لابن قتيبة عن الصحابة وحفظ القرآن

وللإمام ابن قتيبة رَحِمَهُ اللَّهُ كلام نفيس في حفظ الصحابة للقرآن وذلك في كتابه: (تأويل مُشكل القرآن).

يقول رَحِمَهُ اللَّهُ:

«لم يفرض الله على عباده أن يحفظوا القرآن كله، ولا أن يختموه في التعلُّم، وإنما أنزله ليعملوا بُمحكمه، ويؤمنوا بمتشابهه، ويأتمروا بأمره، وينتهوا بزجره، ويحفظوا للصلاة مقدار الطاقة، ويقرؤوا فيها الميسور».

قال الحسن: نزل القرآن ليُعمل به، فاتَّخذَ الناسُ تلاوتَه عملًا(٣).

---

(١) رواه البخاري (٩/ ٩٣ برقم: ٧٢٨٢).

(٢) رواه مسلم (٢/ ٧٢٦ برقم: ١٠٥٠).

(٣) ذكره السمعاني في تفسيره (٤/ ١١٩)، وابن الجوزي في تلبيس إبليس (ص: ١٠٩).

وكان أصحاب رسول الله ﷺ ورضي عنهم، -وهم مصابيح الأرض وقادة الأنام، ومنتهى العلم- إنما يقرأ الرجل منهم السورتين، والثلاث، والأربع، والبعض، والشطر من القرآن، إلا نفرًا منهم وفَّقهم الله لجمعه، وسهَّل عليهم حفظه.

قال أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: كان الرجل إذا قرأ البقرة وآل عمران جدَّ فينا. أي في عيوننا، وعَظُمَ في صدورنا[(١)].

وكانت وفود العرب تَرِد على رسول الله ﷺ للإسلام، فيُقرؤهم المسلمون شيئًا من القرآن، فيكون ذلك كافيًا لهم[(٢)].

ماذا كان يميز زمان الصحابة؟

لقد كان مما يميز زمان الصحابة هو فقههم العظيم للقرآن ومعانيه وما تدل عليه آياته، ومع هذا الفقه إلا أنهم لم يكونوا يحرصون على حفظ حروف القرآن.

يقول مسروق: ما نسأل أصحاب محمد عن شيء إلا وعلمه في القرآن[(٣)].

ويوضِّح الصحابي الجليل عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ هذه السِّمة فيقول لرجل: «إنك في زمانٍ كثيرٌ فقهاؤه، قليلٌ قرَّاؤه، تُحفَظ فيه حدودُ القرآن، وتضيع حروفُه. قليلٌ من يسأل. كثير من يُعطي. يطيلون فيه الصلاة، ويقصرون الخطبة يبدون أعمالهم قبل أهوائهم، وسيأتي على الناس زمانٌ قليلٌ فقهاؤه، كثيرٌ قرَّاؤه، يُحفَظ

(١) رواه أحمد (١٩/ ٢٤٧ برقم: ١٢٢١٥)، واللفظ له، والبخاري (٤/ ٢٠٢ برقم: ٣٦١٧)، ومسلم (٤/ ٢١٤٥ برقم: ٢٧٨١).

(٢) تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة (٢٤٨- ٢٥٠).

(٣) رواه أبو عبيد في فضائل القرآن (ص: ٩٦).

فيه حروفُ القرآن وتَضيع حدودُه. كثيرٌ مَن يسأل، قليلٌ مَن يُعطي، يُطيلون فيه الخطبة، ويقصرون الصلاة. يبدون فيه أهواءهم قبل أعمالهم»[(١)].

يُعلق ابن عبد الهادي على هذا الأثر في كتابه: «هداية الإنسان إلى الاستغناء بالقرآن» فيقول: فبيَّن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن ذلك الزمان كان قراؤه قليلًا، وفقهاؤه كثيرًا، وأنه كان يُحفظ فيه حدود القرآن، ويضيع حروفه، فإن اهتمامهم بتدبر القرآن، ومعرفة معانيه، والعمل به أشد من اهتمامهم بحفظ ألفاظه، ولذلك كثُر فقهاؤه، وقلَّ قرَّاؤه، وحفظِت حدودُه، وضُيِّعت حروفُه، وهكذا كان الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ؛ حُفَّاظ ألفاظِ القرآن جميعه فيهم قليل، والفقهاء أهل العلم والإيمان فيهم كثير.. وأهل الزمان المذموم الذي أخبر عنه ابن مسعود بعكس ذلك[(٢)].

(١) رواه مالك في الموطأ (١/ ١٧٣ برقم: ٨٨ - تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي).

(٢) هداية الإنسان (مجموع رسائل بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة).

بداية الانحراف

كان للقرآن قدر عظيم في نفوس الصحابة، وكانوا يحرصون على الانتفاع الحقيقي به، ولم يكونوا يهتمون بحفظ حروفه قدر اهتمامهم بتحصيل العلم والإيمان والتغيير منه، وكانوا شديدي التحذير لمن بعدهم -كما مر علينا- من تحويل مسار القرآن وجعله وسيلة للأجر والثواب والبركة فقط.

ومما يدعو للأسف أن الأجيال التالية لجيل الصحابة لم تأخذ تحذيراتهم مأخذ الجد، فصاروا يهتمون بألفاظه حفظًا وقراءة غير واعية أكثر من اهتمامهم بالتفكر فيه، وتحصيل العلم والإيمان والتغيير منه.

جاء في صحيح مسلم عن أبي وائل أن رجلًا يقال له نُهيك بن سنان جاء إلى عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فقال: يا أبا عبد الرحمن: كيف تقرأ هذا الحرف: أَلِفًا تجده أم ياء «من ماء غير آسن» أو «من ماء غير ياسن» قال: فقال عبد الله: وكل القرآن قد أحصيت غير هذا؟ قال: إني لأقرأ المُفصل في ركعة. فقال عبد الله: هذًّا كَهَذِّ الشعر؟! إن أقوامًا يقرءون القرآن لا يجاوز تراقيهم، ولكن إذا وقع في القلب فرَسخ فيه نفع[1].

وكان الحسن البصري -ربيب الصحابة- كثير التحذير من خطورة الانحراف عن المسار الصحيح للقرآن، فمن أقواله:

تعلَّم هذا القرآن عبيدٌ وصبيان، لم يأتوه من قِبل وجهه، ولا يدرون ما تأويله،

---

(١) رواه مسلم (١/ ٥٦٣ برقم: ٨٢٢).

قال الله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ [ص: ٢٩]، وما تدبر آياته إلا إتْباعه بعمله، وإن أولى الناس بهذا القرآن من اتبعه، وإن لم يكن يقرؤه، يقول أحدهم: يا فلان تعال أُقارئك؟ متى كانت القُرَّاء تفعل هذا؟ ما هم بالقراء ولا الحلماء ولا الحكماء، لا أكثر الله في الناس من أمثالهم(١).

يعلق أبو عبيد على ذلك فيقول: وهذا كله يدل على أن تعلم العلم والإيمان يقدم على حفظ القرآن المجرد عن ذلك، وإن تعلم القرآن تعلم معانيه، وكلما تعلم شيئًا منه تعلم معانيه، وإذا تعلم وفَقِه كان بعد ذلك حفظ القرآن.

ولم تجد هذه التحذيرات آذانًا مصغية، وتطور الأمر حتى وجدنا من هذه الأجيال من يحرص على حفظ حروف القرآن دون تعلم معانيها والعمل بها، بل زاد الأمر صعوبة أن اشترط بعضهم على طالب العلم ضرورة حفظه للقرآن كاملًا حتى يترقى في تعلم العلوم المختلفة، فوجدنا -نتيجة ذلك- من يحفظه في سن صغيرة لا تتعدى العشر، وتناقلت الكتب هذه الأخبار، فكان ذلك سببًا رئيسًا وحافزًا لأهل العصور التالية -وحتى عصرنا هذا- للإسراع في حفظ القرآن وبخاصة في الصغر، ولطلبة العلم والمدارس الدينية على الأخص.

ولقد انتبه بعض السلف لخطورة ذلك فكانوا دائمي التحذير منه، ولكن -للأسف- لم يُسمع لهم، ومن هؤلاء الإمام المُقرئ خلف بن هشام البزار الذي كان يقول: ما أظن القرآن إلا عارية في أيدينا، وذلك أنا رُوينا أن عمر بن الخطاب رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ حفظ البقرة في بضع عشرة سنة، فلما حفظها نحر جزورًا شكرًا لله، وإن الغلام في دهرنا هذا يجلس بين يديَّ فيقرأ ثلث القرآن لا يُسقط منه حرفًا، فما

(١) أخرجه ابن المبارك في الزهد (ص: ٢٧٤ برقم: ٧٩٣) وأبو عبيد في فضائل القرآن (ص: ٢١٣)، واللفظ له.

أحسب القرآن إلا عارية في أيدينا(١).

ما أرى هذا ينبغي!

وفي كتابه (الحوادث والبدع) يقول الإمام أبو بكر الطرطوشي: ومما ابتدعه الناس في القرآن الاقتصار على حفظ حروفه دون التفقه فيه... ويقول: سُئل الإمام مالك عن صبي ابن سبع سنين جمع القرآن، فقال: «ما أرى هذا ينبغي» وإنما وجه إنكاره ما تقرر في الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ من كراهة التسرع في حفظ القرآن دون التفقه فيه، وقد قال تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ [البقرة: ٧٨].

كانوا يحفظون التوراة ولا يعلمون ما استودع الله فيها من الحكم والعبر، فوصفهم الله تعالى بأنه ليس عندهم من ذلك إلا الأماني، والأماني معناها: التلاوة.

وقال تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا﴾ [الجمعة: ٥]، فشبَّه تالي القرآن من غير أن يفهم كمثل الحمار يحمل أسفارًا.. فدخل في عموم هذا من يحفظ القرآن من أهل ملتنا ثم لا يفهمه ولا يعمل به(٢).

واقعنا مع حفظ القرآن

إن كان هذا هو حال الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ مع القرآن وحفظه، وهم خير القرون، والنموذج الصحيح لتطبيق الإسلام، فهل سرنا على هداهم وانتهجنا نهجهم؟

نظرة واحدة للكتاتيب ودور تحفيظ القرآن تكفي للإجابة عن هذا السؤال؛

---

(١) الجامع لأحكام القرآن (١/ ٣٣)، والعارية -مشددة وقد تخفف- والعارة: ما تداولوه بينهم (أي ما تعطيه غيرك على أن يعيده إليك).

(٢) الحوادث والبدع لأبي بكر الطرطوشي (ص: ٢٠٦).

فمن اليسير أن تشاهد في هذه الأماكن، وأيضًا في المساجد والبيوت مجالس وحلقات لتحفيظ القرآن، حيث نجد أبناء هذه الحلقات يقرؤون على شيخهم أو يختلي كل واحد بنفسه ليراجع المقرر عليه، فيقرأه بسرعة ويهز رأسه، ويكرر ما يقرأ دون أدنى انتباه للخطاب القرآني، فلا فارق عنده بين السؤال والجواب، والوعد والوعيد، والأوامر والنواهي، والجنة والنار.

فما النتيجة المتوقعة لذلك؟

ستفقد تلك الآيات هيبتها في قلبه، وسيُرسم القرآن في عقله ألفاظًا بلا معنى، فينشأ ويكبر على ذلك ويعتاد عليه.

وليس هذا فحسب بل إن هذه الطريقة في الحفظ والمراجعة ستورث في قلب صاحبها التهاون وعدم التقدير والهيبة لآيات الله، وستؤدي كذلك إلى استدعاء غضب الله وعقوبته على صاحبها وعلى الأمة، وكيف لا وهو قد ظلم بالآيات ولم يضعها في مكانها الصحيح.

من هنا يتبين: بأن الإسراع في تحفيظ القرآن بالشكل الذي يتم بيننا في الكتاتيب والمدارس والمساجد والبيوت لمن أهم أسباب تخفيف القرآن وضياع هيبته في قلوبنا.

لذلك من الضروري أن يوجه كل جهدنا أولًا إلى إعادة هيبة القرآن إلى قلوبنا.. وأن نعطي هذا الهدف الوقت المعتبر حتى ننجح فيه بعون الله، ولنعلم أننا حين نحقق هذا الهدف، وتعود هيبة القرآن إلى قلوبنا ستزول معه جل أخطائنا مع القرآن، ولن نحتاج إلى من يذكرنا بالكيفية التي يجب أن نتعامل بها معه.

وبعد هذا الهدف أيضًا يكون حفظ الآيات بالشكل الذي كان عليه الصحابة وما يصاحب ذلك من توقير للقرآن وفهمه والعمل به قدر المستطاع.

ممارسات يندى لها الجبين

أخي القارئ: إذا أردت أن يتعمق شعورك بالخطورة تجاه القرآن، ويزداد يقينك بأن الأمة تعاقب من الله عَزَّوَجَلَّ بسبب ما فعلناه مع كتابه، فما عليك إلا أن تذهب إلى الأماكن التي تُجرى فيها اختبارات حفظ القرآن التحريرية وسترى العجب العجاب.

لو ذهبت إلى هذه الأماكن فستجد طلابًا قد مزقوا المصاحف إلى صفحات ووضعوها في جواربهم حتى يتمكنوا من استخراجها في أثناء الاختبار والغش منها.

سترى بعضهم يخفي المصحف في أماكن قضاء الحاجة قبل دخول قاعة الاختبار، ثم تجده يطلب من المراقب وقت الاختبار الإذن له لقضاء حاجته، فيذهب ويغلق الباب على نفسه ويفتش سريعًا في المصحف عن مواضع الإجابة، فيقرؤها عدة مرات ويذهب سريعًا ليكتبها في ورق إجابته.

ستجد بعضهم يكتب السور في ورق صغير ويخفيه في جيبه.

ستجد بعضهم يكتب السور على أجزاء من جسده.

ومنهم من يضع المصحف تحت الطاولة ويقلب صفحاته بقدمه!

فإنا لله وإنا إليه راجعون.

وسائل عدم النسيان

لقد استدرجت الأمة في موضوع حفظ القرآن، وأصبح كأنه غاية في حد ذاته

بغض النظر عن فهم الآيات والعمل بها، وبغض النظر عن إضعاف قيمة القرآن في القلوب.

لقد وصل الأمر بالبعض أن أصبح يقوم بقراءة الجزء في خمس دقائق أو يزيد قليلًا، فقل لي بربك عن هذا الفعل، ألا يطلق على فاعله أنه يسيء الأدب مع كلام الله ويتهاون به، ولا يقدره حق قدره، ولا يتلوه حق تلاوته؟!

ومن العجائب والعجائب جَمَّة

ومما يدخل في باب العجائب ويستحق فاعله العقوبة أنك تجد البعض يخترع ويروج لطرائق في مراجعة القرآن تؤدي من وجهة نظره إلى عدم نسيانه، منها الحفظ أو المراجعة من أسفل الوجه أو اللوح إلى أعلى (أي من الآية الثلاثين مثلًا في السورة إلى الآية العشرين).

ونجد بعض المحفظين يقوم بسماع الآيات من أكثر من فرد في آن واحد، وكل فرد منهم يقرأ من سورة مختلفة عن الآخر، ولقد رأيت بنفسي مُحفِّظًا يتابع قراءة ثلاثة أو أربعة في وقت واحد.

تصور معي المعنى الذي سينطبع في أذهان الأفراد عندما يشاهدون هذا الأمر، ويمارسونه مرات عدة، هل سيوقرون القرآن بعد ذلك؟ هل سيقدرونه حق قدره؟

الأعاجم والقرآن

من اليسير أن تجد في العديد من بلدان العالم الإسلامي غير الناطقين بالعربية من يحفظ القرآن بعضه أو كله ويرتله على أحسن ما يكون الترتيل وهو لا يفهم منه شيئًا.

ومما يثير الحزن أن البعض يعتبر ذلك مَنْقبة وهو لا يدري أن هذا الفعل من شأنه أن يستدعي مع غيره من أفعالنا الخاطئة مع القرآن الغضب والعقوبة الإلهية.

إن من أولويات تعليم القرآن للأعاجم: تعليمهم الحد الأدنى من أساسيات فهم اللغة العربية كلغة تخاطب؛ حتى يتسنى لهم فهم ما يقرءون من آيات الله، ومع أهمية التراجم لألفاظ القرآن باللغات المختلفة إلا أنها لا يمكنها أن تكون سببًا لإيصال روح القرآن وتأثيره إلى القلوب، فلا بد من قراءة النص القرآني باللغة العربية وبالطريقة الصحيحة التي تضع صاحبها بإذن الله في طريق استجداء الرحمة الإلهية واستمطار روح القرآن وتأثيره الفذ: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الزخرف: ٣].

أطفالنا وحفظ القرآن

التعليم في الصغر كالنقش على الحجر، بهذه المقولة استُدرج الكثير من الآباء عندما أسقطوها على ضرورة تحفيظ أبنائهم ألفاظ القرآن وإن لم يفهموا معانيها، على اعتبار -كما يزعمون- أن الأطفال في السن الصغيرة يمكنهم أن يحفظوا الألفاظ فقط دون فهم معانيها، وعندما يكبرون يتعلمون تلك المعاني.

فأصبح جُل هم الكثير من الآباء إلحاق أبنائهم بمدارس وحلقات التحفيظ، فنتج عن هذا أطفال في سن الخامسة والسادسة والسابعة يحفظون القرآن بعضه أو كله، يحفظون حروفه حفظًا جيدًا لكنهم لا يفهمون منه شيئًا، فهل هذا الأمر يليق بجلال القرآن وقدره؟! وكيف سترسم الصورة الذهنية عن القرآن في أذهان الأطفال؟ وهل سيفرقون بين الوعد والوعيد، والأمر والنهي والترغيب والترهيب؟

وهل حفظ ألفاظ القرآن سيغير من أخلاقهم كما يظن الآباء؟

إنها قد تغير من أخلاقهم بالسلب؛ بمعنى أنهم سيتكبرون بها ويشعرون أنهم مميزون عن غيرهم بهذا الحفظ، وبخاصة عندما يجدون التشجيع والثناء عليهم من آبائهم وأقربائهم.

فإن قلت: إن لم نشغل ذهن الولد بألفاظ القرآن سينشغل بالأغاني والأشعار السيئة؟

هل هذا منطق صحيح؟

ألا يوجد بديل لحفظ ألفاظ القرآن إلا حفظ الأغاني؟!

ولماذا لا نستفيد من قاعدة: «التعليم في الصغر كالنقش على الحجر» بتعلم معاني القرآن مع ألفاظه، ونُحفِّظ أولادنا بدءًا من ست سنوات آيات قليلة وسورًا من الجزء الأخير تربط اللفظ بالمعنى وتؤسس العقيدة الصحيحة؟

.. أخي لسنا ضد حفظ القرآن، ولكننا ضد التهاون والامتهان والظلم بآيات القرآن، ولنعلم جميعًا أن الفائدة المتحققة للطفل من حفظ الجزء الأخير لفظًا ومعنًى وتطبيقًا - وإن مكث في ذلك سنتين أو ثلاثًا - أفضل آلاف المرات من حفظ القرآن كله لفظًا فقط.

ونؤكد ما قيل في الصفحات السابقة بأن الأحاديث التي تدل على فضل جمع القرآن أو بعض سوره تربط الفضل بالعمل بما تدل عليه، وإن جاءت أحاديث لم تذكر العمل، فإن الأحاديث الأخرى تقيدها.

نحن لسنا بدعًا

فإن قلت: نحن لسنا بدعًا في الأمة، فلقد سبقنا في ذلك سلف هذه الأمة وعلماؤها فقد كانوا يحرصون على حفظ ألفاظ القرآن في الصغر.

نعم كان هذا يحدث لكنه لم يكن صوابًا، وهذا ما كان يحذر منه الصحابة كما مر علينا، فلقد كانوا شديدي الحرص ألا تقع الأمة في هذا المنزلق الخطير، وللأسف لم يُلتفت التفاتًا صحيحًا لتحذيراتهم وحدث ما كانوا يتخوفون منه.

إن الذي يلزمنا هو ما كان يحدث في جيل الصحابة، وفي فترة النبوة والخلافة الراشدة -تحديدًا- كما في حديث العرباض بن سارية: «...فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ عَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ وَإِيَّاكُمْ وَالأُمُورَ الْمُحْدَثَاتِ فَإِنَّ كُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ»(١).

وليس معنى هذا هو الاستهانة بحفظ القرآن، ولكن المقصد عدم وضعه كهدف سامٍ يُسعى إليه دون ربطه بالمعنى والعمل.

علينا أن نفعل مثلما كان يفعل الصحابة: نتعلم بضع آيات ونعرف معانيها وأحكامها، ونربي أنفسنا على العمل بها بضعة أيام أو أسابيع، ونحفظ ألفاظها ثم ننتقل لآيات أخر.

إننا نريد أن يخرج من بيننا من يجمع القرآن كله بهذه الطريقة، وهو بذلك يكون قد جمع خشوع النبوة وأصبح رمزًا يلتف الناس حوله، كما مر علينا من قول عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: من جمع القرآن فقد جمع أمرًا عظيمًا، فقد استدرجت النبوة بين كتفيه غير أنه لا يوحى إليه.

نكرر فنقول: إن الذي يلزمنا هو أفعال الصحابة، والآن ونحن نريد بإذن الله أن نعيد للقلوب هيبة القرآن وروحه فلا بد من إعادة النظر في تلك الممارسات الخاطئة التي نمارسها مع القرآن، والتي من أخطرها: الحفظ السريع لآياته، ودفع الأطفال في سن صغيرة لحفظ أكبر قدر منه.

الحفاظ على التواتر

يقول البعض إن الاهتمام بحفظ القرآن كله ووضعه في برامج التعليم -وخاصة

---

(١) رواه الإمام أحمد في المسند (٢٨/ ٣٦٧ برقم: ١٧١٤٢، ١٧١٤٤)، وابن ماجه (١/ ٢٨ برقم: ٤٢)، وأبو داود (٤/ ٢٠٠ برقم: ٤٦٠٧)، والترمذي (٥/ ٤٤ برقم: ٢٦٧٦).

الديني- له وظيفة مهمة في الحفاظ على تواتر القرآن وعدم تحريفه.

إن حفظ القرآن وسيلة وليس غاية، وسيلة إضافية للانتفاع بالقرآن، فإن لم يحدث انتفاع بالقرآن فماذا استفدنا من الحفظ؟

ولنضرب لذلك مثلًا:

لو أن رجلًا حصل بعد جهد جهيد على دواء نادر يشفي داءه بإذن الله، ولكنه يخاف من أن يسطو عليه أعداؤه فظل ساهرًا على حراسته لا يغمض له جفن... ما قيمة ذلك التعب إن لم يتناول الدواء وينتفع به في الشفاء بإذن الله؟

يقول صاحب الظلال في تفسير قوله تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾﴾ [القيامة: ١٦ - ١٨].

جاءه هذا التعليم ليطمئنه إلى أن أمر هذا الوحي، وحفظ هذا القرآن، وجمعه، وبيان مقاصده.. كل أولئك موكول إلى صاحبه. ودوره هو التلقي والبلاغ، فليطمئن بالًا(١).

فالإيحاء الذي تتركه -هذه الآيات- في النفس هو تكفل الله المطلق بشأن هذا القرآن: وحيًا، وحفظًا، وجمعًا، وبيانًا، وإسناده إليه سبحانه وتعالى بكليته، وليس للرسول ﷺ إلا حمله وتبليغه(٢).

يقول البعض: «إننا نريد أن نحفظ الألفاظ لكي نحافظ على تواتره» وتحت هذا الشعار تجد الحفاظ يراجعون الأجزاء والسور بسرعة حتى لا ينسوها، بل إن بعضهم يقوم بالمراجعة وهو في وسائل المواصلات وفي الأسواق وأمام التلفاز.

لقد نزل القرآن ليكون سببًا لهدايتنا وشفائنا وتغييرنا، ولقد أخبرنا سبحانه أنه

---

(١) في ظلال القرآن (٦/ ٣٧٦٧).

(٢) المصدر السابق (٦/ ٣٧٧٠).

قد تولى وتكفل بحفظه حتى لا يُحرَّف ومن ثم يستمر في أداء مهمته: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]، ولم يطلب منا سبحانه أن نقوم بذلك، بل طلب منا تحقيق المقصد والغاية من نزوله: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص: ٢٩].

ولم يعاتبنا على تقصيرنا في الحفظ ولكن عاتبنا على عدم تدبره وهذا يعني بالأساس التفكر فيه وهذا يقدر عليه أي أحد، وجمع المشاعر معه ليحدث التذكر والانتباه والمداومة على ذلك حتى تنفتح الأقفال التي تغلق القلب وتمنع وصول معاني القرآن إليه: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ [محمد: ٢٤].

ولقد فهم الصحابة رضوان الله عليهم هذا الأمر فلم يهتموا بالحفظ كاهتمامنا به، مع أنهم أولى الناس بذلك إن كان مطلوبًا.

فلماذا أخي ننشغل بما ضُمِن لنا ولا ننشغل بما هو مطلوب منا؟!

ولماذا لم يقل الصحابة مثل مقولتنا بضرورة تكثير الحفاظ لاستمرار تواتر القرآن؟!

أمر يدعو للعجب

ومن العجيب أن الله عَزَّوَجَلَّ قد أكرم هذه الأمة بما لم يكرم به أية أمة سبقتها.. حفظ لها كتابها وسنة نبيها الشارحة له: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر: ٩] ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾ [القيامة: ١٩] كي يتفرغ أبناؤها للعمل به، ومع ذلك ننشغل بحفظه ونترك تطبيقه.. أليس الأولى أن نشغل أنفسنا بما طلب منا، ولا نشغلها بما ضُمن لنا؟!

فإن قلت وما المقصود بـ «اقْرَأْ وَارْقَ»؟

فقد قال رسول الله ﷺ: «**يُقَالُ لِصَاحِبِ الْقُرْآنِ: اقْرَأْ وَارْقَ وَرَتِّلْ، كَمَا كُنْتَ**

تُرَتِّلُ فِي دَارِ الدُّنْيَا، فَإِنَّ مَنْزِلَتَكَ عِنْدَ آخِرِ آيَةٍ كُنْتَ تَقْرَؤُهَا»[(١)].

أليس المقصود منها الحافظ الذي يقرأ عن ظهر قلب؟!

الجواب:

أولًا: حفظ ألفاظ القرآن لا يدل على ما في القلب من إيمان، والدليل على ذلك أن هناك الآلاف من حفاظ القرآن، ممن حفظوه إجباريًا في المدارس أو الجامعات أو الكتاتيب، تجد أن سلوكهم يبتعد كثيرًا عما يرضي الله... فهل هؤلاء الذين يجهلون على الناس، ويرتكبون ما يغضب الله، ويتركون بعض أوامره.. هل سيقال للواحد منهم اقرأ وارق ورتل...؟!

إن هذا الفهم يتنافى مع أصول التفاضل بين الناس التي أخبرنا الله عنها أنها مرتبطة بالإيمان والتقوى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣].

ثانيًا: الأحاديث الواردة في فضل حفظ القرآن -كله أو بعضه- مرتبطة بالعمل به، وفي المقابل نجد الوعيد الشديد لمن يحمل القرآن ولا يعمل به.

روى البخاري من حديث سمرة بن جندب رؤيا النبي ﷺ وفيها: «**..فَانْطَلَقْنَا حَتَّى أَتَيْنَا عَلَى رَجُلٍ مُضْطَجِعٌ عَلَى قَفَاهُ، وَرَجُلٌ قَائِمٌ عَلَى رَأْسِهِ بِفِهْرٍ أَوْ صَخْرَةٍ، يَشْدَخُ بِهِ رَأْسَهُ، فَإِذَا ضَرَبَهُ تَدَهْدَهَ الْحَجَرُ، فَانْطَلَقَ إِلَيْهِ لِيَأْخُذَهُ فَلَا يَرْجِعُ إِلَى هَذَا حَتَّى يَلْتَئِمَ رَأْسُهُ، وَعَادَ رَأْسُهُ كَمَا هُوَ، فَعَادَ إِلَيْهِ فَضَرَبَهُ، قُلْتُ: مَنْ هَذَا؟ قَالَا: انْطَلِقْ...**».

وفي آخر الحديث: «**وَالَّذِي رَأَيْتَهُ يُشْدَخُ فِي رَأْسِهِ فَرَجُلٌ عَلَّمَهُ اللهُ الْقُرْآنَ، فَنَامَ**

---

(١) رواه أحمد في المسند (١١/ ٤٠٣ برقم: ٦٧٩٩)، وأبو داود (٢/ ٥٩٢ برقم: ١٤٦٤)، والترمذي (٥/ ١٧٧ برقم: ٢٩١٤) وقال: حديث حسن صحيح.

عَنْهُ بِاللَّيْلِ، وَلَمْ يَعْمَلْ فِيهِ بِالنَّهَارِ، يُفْعَلُ بِهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ...»(١).

إن الفضل العظيم لحفظ القرآن مرتبط ارتباطًا وثيقًا بالعمل به، فإن لم يُعمل به كان وبالاً على صاحبه، كيف لا وهو يتلو على الناس آيات لا يعمل بها، فيصير ما يقوله في وادٍ، وما يفعله في وادٍ آخر، فيصدق عليه قوله ﷺ: «**إِنَّ أَكْثَرَ مُنَافِقِي أُمَّتِي قُرَّاؤُهَا**»(٢).

وليس معنى هذا هو إهمال الحفظ، بل معناه الاجتهاد في العمل بما تدل عليه الآيات المحفوظة، وعدم الاستعجال في الحفظ حتى لا يتم إهمال الفهم والعمل.

ثالثًا: الحديث يؤكد على أهمية التأثر بقراءة القرآن، فدرجات الجنة مرتبطة بالإيمان، ولأن كل آية في القرآن تحمل نورًا يزيد الإيمان في القلب حين يدخله؛ لذلك كلما تأثر القارئ بآية وحصَّل ما فيها من إيمان ارتقى في الجنة درجة، وهذا هو أهم ما يرمي إليه الحديث، فيقال له يوم القيامة: اقرأ كما كنت تقرأ في الدنيا بترتيل وتفهم وتأثر، فيزداد إيمانك، وترتفع به في الجنة بحسب ما حصلت من إيمان في الدنيا حتى آخر آية قرأتها فيها، ولقد وضع ابن حبان لهذا الحديث عنوانًا في صحيحه يؤكد هذا المعنى وهو: ذكر البيان بأن آخر منزلة القارئ في الجنة عند آخر آية كان يقرؤها في الدنيا.

وفي المقابل لو قرأ المرء القرآن سواء كان عن ظهر قلب أو من المصحف دون تأثر وكان همه نهاية السورة أو الورد، ومن ثمّ لم يزدد بقراءته إيمانًا فلا نظن أن يكون داخلاً في دائرة هذا الحديث، بل لا يستبعد أن يكون القرآن حجة عليه كما

---

(١) رواه البخاري (٢/ ١٠٠: ١٣٨٦).

(٢) رواه أحمد في المسند (١١/ ٢٠٩ برقم: ٦٦٣٣).

ورد في الحديث: «**وَالْقُرْآنُ حُجَّةٌ لَكَ أَوْ عَلَيْكَ**»[١].

مَن المُخاطَب؟

وخلاصة القول: إن المخاطب بهذا الحديث هو من يقرأ القرآن سواء عن ظهر قلب، أو من المصحف شريطة فهم القرآن، والتفكر فيه، والتأثر بآياته.

تلبيس إبليس

ولابن الجوزي كلمات تخاطب حفاظ الألفاظ الذين ظنوا أن الحفظ وسيلة لدفع العذاب عنهم مهما قصَّروا:

يقول ابن الجوزي: ومن تلبيس إبليس أن قومًا من القراء يتسامحون بشيء من الخطايا كالغيبة للنُظراء، وربما أتوا أكبر من ذلك الذنب واعتقدوا أن حفظ القرآن يرفع عنهم العذاب، واحتجوا بقوله ﷺ: «**لَوْ أَنَّ الْقُرْآنَ جُعِلَ فِي إِهَابٍ مَا احْتَرَقَ**»[٢] وذلك من تلبيس إبليس عليهم؛ لأن عذاب من يعلم أكثر من عذاب من لم يعلم؛ إذ زيادة العلم حجة على المرء، وكون القارئ لم يحترم ما يحفظ ذنب آخر.

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿**أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ**﴾ [الرعد: ١٩].

وقال في أزواج رسول الله ﷺ: ﴿**مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ**﴾ [الأحزاب: ٣٠][٣].

---

(١) رواه مسلم (١/ ٢٠٣ برقم: ٢٢٣).

(٢) رواه أحمد في المسند (٢٨/ ٥٩٥ برقم: ١٧٣٦٥)، وأبو يعلى (٣/ ٢٨٤ برقم: ١٧٤٥) وفسره بعض رواة أبي يعلى بأن من جمع القرآن، ثم دخل النار فهو شر من الخنزير، والإهاب: الجلد من البقر والغنم والوحش ما لم يدبغ.

(٣) تلبيس إبليس (ص: ١٣٩).

الاستشهاد بالآيات في الدعوة

قد يقول قائل: إن من أسباب حفظ ألفاظ القرآن هو تيسير الاستشهاد بها في الدعوة.

والجواب: إن الاستشهاد بالآيات يستلزم كون معانيها حاضرة في الذهن ليسهل ربطها بموضوع الدعوة، لذلك فإن من يُحسن الاستدلال بالآيات هو الذي يعيش مع القرآن ويتفكر فيه على الوجه الصحيح، ويجتهد في العمل به.

أما من يحفظ الألفاظ دون فهم معانيها والعمل بها فأَنَّى له الاستشهاد بشيء لا يعرفه.

لماذا نحفظ إذن؟

إن كل ما قيل سابقًا لا ينبغي أن يُفهم منه أنه دعوة لترك الحفظ، بل هو دعوة لترك الإسراع في حفظ ألفاظ القرآن، وأن يتم التمهل في ذلك وربطه بالعلم والعمل.

.. لا ينبغي علينا أن نزهد في الحفظ نتيجة لما قيل، فكما قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّ الرَّجُلَ الَّذِي لَيْسَ فِي جَوْفِهِ شَيْءٌ مِنَ الْقُرْآنِ كَالْبَيْتِ الْخَرِبِ**»[(١)].

فلا بد أن يكون في جوفنا شيء من القرآن للصلاة والدعوة والقراءة إن حيل بيننا وبين المصاحف.

عن عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: لا بد للرجل المسلم من ست سور يتعلمهن للصلاة؛ سورتين لصلاة الصبح، وسورتين للمغرب، وسورتين للصلاة في

---

(١) رواه أحمد (٣/ ٤١٧ برقم: ١٩٤٧)، والترمذي (٥/ ١٧٧ برقم: ٢٩١٣) وقال: حسن صحيح، والحاكم (١/ ٧٤١ برقم: ٢٠٣٧).

العشاء[1].

قد يسأل سائل:

ولماذا نقرأ الورد اليومي وفيه أعمال كثيرة لا يمكننا القيام بها خلال يوم واحد؟!

الجواب يكمن في معرفة الهدف من التلاوة اليومية، وهي تحصيل التذكرة بحقائق الإيمان، ومعانيه التي تجعل المرء في حالة من اليقظة الدائمة: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴾ [طه: ١١٣].

وهذا لا يستدعي الوقوف عند كل آية ومعرفة معانيها التفصيلية، وما تدل عليه من أعمال، فالمطلوب هو المعنى الإجمالي الذي يؤدي إلى التذكرة وزيادة الإيمان بصفة عامة، مع الاجتهاد في العمل بما استوقف القارئ واستحوذ على عقله ومشاعره من معاني الإيمان والتزكية التي دلت عليها بعض الآيات التي قرأها.

أما تعلم الآيات فالمقصد منه تعلم كل ما فيها من معان وأحكام، ومعرفة ما تدل عليه من أعمال، والالتزام بها مدة من الزمن حتى يصير صاحبها قد تعلمها وحملها وأخذ بها.

فالقراءة اليومية هدفها دوام التذكرة وزيادة الإيمان بالأساس، والتعلم هدفه التعرف الدقيق على ما تحمله الآيات من علم وإيمان وعمل.

وهذا يفسر لنا الندب على المداومة على القراءة اليومية، والتمهل في التعلم. والله أعلم.

---

(١) رواه عبد الرزاق في مصنفه (٢/ ١٢٣ برقم: ٢٧٥٠).

﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ [الزمر: ٢٧، ٢٨].

ومما تجدر الإشارة إليه أن زيادة الإيمان والتقوى الناشئة -بإذن الله- عن التلاوة الصحيحة تدفع المرء إلى المسارعة في الخيرات، فكلما زاد الإيمان تحسن السلوك تلقائيًّا. ناهيك عن المعاني الهادية التي يكرم بها الله عَزَّوَجَلَّ من يتلو القرآن حق تلاوته ويداوم على ذلك.

.. هذه المعاني التي تتجدد -بإذن الله- بتجدد اللقاء بالقرآن من شأنها إعادة صياغة وتشكيل مفاهيم القارئ وتصوراته ومشاعره ووجدانه، لينعكس ذلك على علاقته بربه وبنفسه، وبالدنيا وبالآخرة...

ومن أخطائنا مع القرآن:

تشغيل الآلات الحديثة التي تبث آياته دون الإنصات لها

من الممارسات الخاطئة التي ساهمت في تخفيف القرآن في قلوبنا، ونزع مهابته من صدورنا: كثرة بث آياته من الإذاعات والفضائيات وغير ذلك من وسائل البث دون الاستماع إليه والانتفاع به.

وقد تندهش -أخي القارئ- من ذلك، ولكن لو فكرنا مليًا لأدركنا الحقيقة، فالقرآن -ذلك الكتاب المقدس المعجز- ينبغي أن تمتلئ القلوب من مهابته وإجلاله وتقديره، وينبغي كذلك الاستعداد الجيد والتهيئة العظيمة لقراءته أو سماعه.. وكيف لا وهو كلام الله عَزَّوَجَلَّ، ورسالته الخاتمة للبشرية.

ولكن للأسف كان لظهور وانتشار الإذاعات والفضائيات التي تبث آيات القرآن ليل نهار أثر سلبي على المسلمين.

فإن قلت: لماذا؟!

جاءك بفضل الله الجواب بأنها جعلت الشخص يسمعه شاء أم أبى، في أي وقت، وأي مكان وزمان، وفي أي حالة نفسية هو فيها، وبتكرار إذاعته حدث إلف لنغمته، والإنسان إذا أَلِف شيئًا، حال هذا الإلف بينه وبين الانتفاع به.

«إن من طبيعة النفس البشرية أنها إذا أَلِفت الشيء خفي عليها أسراره، وصرفها هذا الإلف عن التفكر فيه، ثم اكتشاف ما فيه»[١].

(١) التعبير القرآني والدلالة النفسية للجيوسي (ص: ١٣٦).

ولقد انتبه أعداء الإسلام لهذا الأمر فقامت بعض إذاعاتهم ببث القرآن –في بعض الأحيان– بين برامجها.

وفي هذا المعنى يقول صاحب الظلال رَحِمَهُ ٱللَّهُ : لقد حاول أعداء هذا الدين دائمًا أن يصرفوا الناس نهائيًا عن هذا القرآن، فلما عجزوا حولوه إلى ترانيم يترنم بها القراء ويطرب لها المستمعون، وحولوه إلى تمائم وتعاويذ يضعها الناس في جيوبهم، وفي صدورهم، وتحت وسائدهم، فيظن المسلمون بذلك أنهم أدوا حق هذا القرآن.. فالقرآن مصون، وهو يتلى صباحًا ومساءً وفي كل حين، ويترنم به المترنمون، ويرتله المرتلون.. فماذا تريدون من القرآن بعد ذلك[١]؟

ويقول في موضع آخر: ليجعلوه مادة إذاعية في جميع محطات العالم الإذاعية، وحقيقة إنهم يذيعونه بعد أن نجحوا في تحويله في نفوس المسلمين إلى مجرد أنغام وتراتيل، أو مجرد تمائم وتعاويذ، وبعد أن أبعدوه من أن يكون مصدر التوجيه للحياة، وأقاموا مصادر غيره للتوجيه في جميع الشؤون[٢].

تأمل ما حدث مع الشيخ المطوع

في أحد الأيام قرأت مقالًا قديمًا في «مجلة المجتمع» كتبه الشيخ عبد الله المطوع رَحِمَهُ ٱللَّهُ وهو يتحدث فيه عن حالته النفسية بعد هزيمة العرب من اليهود، وكيف أنه فتح المذياع وأدار مؤشره ليبحث عن قارئ يتلو آيات للقرآن حتى تهدأ نفسه باستماعه لها، وبالفعل وجد ما يبحث عنه، فقد كان القارئ يقرأ آيات من سورة التوبة: ﴿ **يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمۡ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ**

(١) في ظلال القرآن (٣/ ١٥٠٤) ببعض التصرف والاختصار.

(٢) المصدر السابق.

﴿ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ ۚ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ
ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا تَنفِرُوا۟ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ
قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔا ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ إِلَّا تَنصُرُوهُ
فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ
يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ
بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ
ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾ ٱنفِرُوا۟ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُوا۟
بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾﴾

[التوبة:٣٨- ٤١].

وشعر الشيخ المطوع رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنه يستمع إلى بيان عسكري يحض على الجهاد في سبيل الله، وبعد أن أنهى القارئ تلاوته إذا به يسمع المذيع يقول:

هنا إذاعة صوت إسرائيل.. فحدثت له صدمة عنيفة، وظل يُحدث نفسه:

هل إذاعتهم هي التي تبُث إلينا القرآن؟! هل وصل بنا الحال إلى هذه الدرجة أن اطمأن أعداؤنا لعدم انتفاعنا بالقرآن فبثوه إلينا ليخدرونا بنغمته؟!!

أترك لك -أخي القارئ- التعليق على هذه القصة المحزنة.

لماذا نقوم ببث القرآن؟

انتشر بين المسلمين بعض الأعراف والأفكار التي ساهمت في كثرة البث المستمر للقرآن دون الاستماع إليه، ومِن ثَم إلفه، ونزع هيبته من القلوب.

ومن ذلك: ترك المحطة الإذاعية أو الفضائية التي تبث القرآن تعمل في المنزل أو السيارة أو أماكن العمل دون الاستماع إليها، بل تركها لتخاطب الجدران، فإن

سأل سائل عن سبب ذلك كانت الإجابة: لطرد الشياطين، واستجلاب البركة!!!

ألم يعلم هؤلاء أن بركة القرآن تكمن في روحه وأنواره وقدرته بإذن الله على التغيير والشفاء والهداية.

يقول ابن تيمية: ومن المعلوم أن كل كلام فالمقصود منه فهم معانيه دون مجرد ألفاظه، فالقرآن أولى بذلك[(١)].

ليس بمستمع وإن سمع

يقول عبد الكريم الخطيب: فالذي يقرأ القرآن أو يستمع إليه في غير تدبر وتذكر ليس بقارئ للقرآن وإن قرأ، وليس بمستمع للقرآن وإن سمع، لأنه ليس من الذين وصفهم الله تعالى: ﴿**ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ**﴾ [الزمر: ٢٣].

ونحن المسلمين في عصرنا هذا نستمع كثيرًا إلى آيات الله تُتلى علينا، حتى لا يكاد بيت من بيوت المسلمين لا تتردد في جنباته في الصباح وفي المساء، وفيما بين الصباح والمساء أصوات المقرئين منقولة إلى كل بيت فيه مذياع، أو إلى جيران أي بيت فيه مذياع، فنحن من هذه الوجهة أكثر من أسلافنا سماعًا للقرآن لما يسر الله تعالى لنا من وسائل الاتصال به بقصد أو بغير قصد، ولكن الذي لا شك فيه هو أن حظنا من عطائه المبارك، ومن أضواء هديه، ونفحات رحمته أقل بكثير من حظ أولئك الذين كانوا يستمعون إلى آياته أو بضع آيات فيكون لهم منها -ومنها وحدها- زاد حياة، ودستور عمل، ومنهج سلوك، لأنهم استمعوا إلى ما استمعوا إليه من كلام الله بآذان مصغية، وجوارح ساكنة، وقلوب خاشعة، فوقعت منها

---

(١) مقدمة في أصول التفسير لابن تيمية (ص: ٤٥).

كلمات الله موقع الغيث من الأرض الجديبة، فاهتزت وربت وأنبتت من كل زوج كريم.

لا بديل عن الاستماع والإنصات

ويستطرد قائلًا: يقول الله تعالى فيما يؤدب به المسلمين في مجلس القرآن: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٤].

فالرجاء في رحمة الله المستمطرة من آيات الله رهنٌ بالاستماع والإنصات لما يُتلى من كلمات الله، حيث تسكُن الجوارح، وتخضع المشاعر، وتتهيأ العقول والقلوب لتهتدي إلى مواقع العبرة والعظة من آيات الله، فيكون منها الدواء لكل ما في كيان المسلم من داء.

تبديد الوَهم

ويقول عبد الكريم الخطيب في كلمات واضحة لا لبس فيها ولا غموض:

ألا فليعلم أولئك الذين يفتحون المذياع على تلاوة القرآن ثم يدعون صوت المقرئ يملأ جنبات البيت، وهم يحسبون أنهم بهذا قد ملئوا البيت من نفحات آيات الله، ونشروا على أنفسهم وعلى أهليهم الخير والبركة منها، دون أن يجلسوا هم وأهلوهم مجلس القرآن، ودون أن يُحسنوا الاستماع إلى آيات الله، وتدبرها، والوقوف عند كل زاجرة وواعظة منها.

ألا فليعلم هؤلاء أنهم بخسوا القرآن حقه، وظلموا أنفسهم وأهليهم بما فاتهم من حظ عظيم كان دانيًا منهم، من نفحات القرآن وبركاته لو أنهم عرفوا للقرآن الكريم قدره، لما اتخذوه «**بخورًا**» يطلقونه من المذياع[1].

---

(١) مقالات الإسلاميين في رمضان لمحمد موسى الشريف، نقلًا عن مجلة الوعي الإسلامي، السنة ٨،العدد الثالث والتسعون، رمضان ١٣٩٢ هـ، ببعض التصرف.

هل الإنصات خاص بالصلاة؟

يظن البعض أن الاستماع إلى القرآن والإنصات له خاص بالصلاة فقط، ومن ثَم فلا بأس عليه إن ترك المُقرئ يقرأ وهو منشغل عنه بالقراءة أو أداء واجباته الوظيفية، أو النوم على نغمته لأنها تريح أعصابه، ويدلل على صحة هذا الفعل بقوله: إن المفسرين اختلفوا في تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٤].

وهل الاستماع والإنصات يكون للقرآن في الصلاة فقط أم في الصلاة وخارجها، ومن ثم فلا حرج على من لا ينصت للقرآن المقروء خارج الصلاة انطلاقًا من هذا الاختلاف؟

الرد على هذه المسألة يكمن في قراءة الصفحات السابقة التي تحدثت عن قدر القرآن عند الله عَزَّوَجَلَّ، وأن آيات القرآن هي آيات الله التي ينبغي علينا ألا نغفل أو نعرض عنها، وأن العقوبات ستنال من يفعل ذلك.

ولو استقرت هذه المعاني في نفوسنا لأزالت الكثير من الإشكاليات وصححت العديد من المفاهيم المغلوطة حول التعامل مع القرآن، والتي من أبرزها ترك المُقرئ يقرأ آيات القرآن من خلال المحطات الإذاعية أو الفضائية والانشغال عنه بالكلام أو بأداء بعض الأعمال، أو بالنوم.

وأشد من ذلك: تركه يتلى في المآتم دون التفكر فيه، وأخذ العبرة منه، لا سيما مع وجود الواعظ الصامت وهو الموت.

ومن صور أخطائنا مع القرآن:

الإسراع في قراءة آياته دون التفكر فيها وقراءتها في أماكن الصخب واللغو

جعل الله -جل شأنه- القرآن العظيم سببًا للشفاء والهداية والرحمة والعلو وتحصيل العلم والإيمان، وجعله كذلك سببًا لحلول النقمة والعذاب والذل والهوان.. هذا قضاء الله في القرآن كما قال الإمام قتادة.

وقد مر علينا في خلال الصفحات السابقة ما يؤكد هذا المعنى من الآيات والأحاديث النبوية كقوله تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [الإسراء: ٨٢].

﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾ [فصلت: ٤٤].

وكقوله ﷺ: «.. **وَالْقُرْآنُ حُجَّةٌ لَكَ أَوْ عَلَيْكَ**»[1].

وقوله: «**إِنَّ اللهَ يَرْفَعُ بِهَذَا الْكِتَابِ أَقْوَامًا، وَيَضَعُ بِهِ آخَرِينَ**»[2].

وقوله: «**الْقُرْآنُ شَافِعٌ مُشَفَّعٌ، وَمَاحِلٌ**[3] **مُصَدَّقٌ، مَنْ شَفَعَ لَهُ الْقُرْآنُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ نَجَا، وَمَنْ مَحَلَ بِهِ الْقُرْآنُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَبَّهُ اللهُ فِي النَّارِ عَلَى وَجْهِهِ**»[4].

---

(١) رواه مسلم (١/ ٢٠٣ برقم: ٢٢٣).

(٢) رواه مسلم (١/ ٥٥٩ برقم: ٨١٧).

(٣) قال ابن الأثير: أي خَصْم مُجادل مُصدَّق.

(٤) رواه أبو عبيد القاسم بن سلام في فضائل القرآن (ص: ٨٢).

فعندما لا يتم التعامل مع القرآن بما يتناسب مع قدره وعظمته وهيبته فالعقاب العقاب.

لا يكن هَمُّ أحدُكم آخرَ السُّورة

إن القرآن قول ثقيل ينبغي أن يقرأ بهدوء وتَرَسُّل وتمهل حتى تُفهم معانيه، ويتم التفكر فيها: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ﴾ [الإسراء: ١٠٦].

يقول الإمام ابن كثير في تفسير قوله تعالى: ﴿وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا﴾ [المزمل: ٤] أي: اقرأه على تمهل، فإنه يكون عونًا على فهم القرآن وتدبره. وكذلك كان يقرأ صلوات الله وسلامه عليه.

قالت حفصة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «كانَ يَقْرَأُ بِالسُّورَةِ فَيُرَتِّلُها، حَتَّى تكُونَ أطْوَلَ مِن أطْوَلَ مِنها»(١).

وفي صحيح البخاري، عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أنه سئل عن قراءة رسول الله ﷺ، فقال: «كانَتْ مَدًّا، ثم قرأ ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ يَمُدُّ (بِسْمِ اللَّهِ)، ويَمُدُّ (الرَّحْمَنِ)، ويَمُدُّ (الرَّحِيمِ)»(٢).

وعن أم سلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: أنها سُئلت عن قراءة رسول الله ﷺ، فقالت: كان يقطع قراءته آية آية ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝١ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾(٣).

---

(١) رواه مسلم (١/ ٥٠٧ برقم: ٧٣٣).

(٢) صحيح البخاري (٦/ ١٩٥ برقم: ٥٠٤٦).

(٣) رواه أحمد (٤٤/ ٢٠٦ برقم: ٢٦٥٨٣)واللفظ له، وأبو داود (٦/ ١٢٤ برقم: ٤٠٠١)، والترمذي (٥/ ١٨٥ برقم: ٢٩٢٧).

وعن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال: «لا تهذُّوا القرآن كهذِّ الشِّعر، ولا تنثروه نثرَ الدَّقل، وقفوا عند عجائبه، وحرِّكوا به القلوب»[1].

وعندما نتفكر في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمۡ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعۡلَمُواْ مَا تَقُولُونَ ﴾ [النساء: ٤٣]، فإننا -بعون الله- سندرك بوضوح ضرورة فهم الخطاب القرآني عند سماعه أو قراءته، فالآية تعلل -في مرحلة التمهيد لتحريم الخمر- عدم شرب الخمر قبل الصلاة؛ لأن ذلك من شأنه أن يُذهب العقل فلا يفهم ولا يعلم ما يقول أو يسمع، فماذا نقول لمن لا يشرب الخمر ولكنه يقرأ القرآن ولا يفهم ما يقرأ بسبب غياب عقله عن النظر والتأمل في الآيات؟!

الواقع الأليم

الواقع المشاهد أن هناك الكثير والكثير ممن يسرع في قراءة القرآن ووصل الآيات بعضها ببعض، ولا يعطي نفسه فرصة لفهمها، فكل همه هو قطع المسافة بين أول السورة أو الجزء وآخره في أسرع وقت ممكن.

ولم يعد هذا الشكل من القراءة السريعة غير المتأنية التي لا يصحبها فهم ولا تفكر مقصورًا فقط على البيوت والمنازل بل تعداه إلى وسائل المواصلات والشوارع، فلم يعد غريبًا أن تجد رجلًا يحمل مصحفًا ويقرأ منه في وسائل المواصلات وسط الضجيج، تجده إما يقرأ بعينيه أو يتمتم بشفتيه، فإن سألته عن سبب فعل ذلك أخبرك أنه لا يجد وقتًا لقراءة ورده إلا في هذه الأماكن، وغير ذلك من التبريرات.

ولكن هل بهذه الأفعال نكون قد احترمنا القرآن وقدرناه حق قدره؟ وهل بهذه

---

(١) رواه ابن أبي شيبة (٢/ ٢٥٦ برقم: ٨٧٣٣).

الطريقة نكون قد استفدنا من القرآن؟

للأسف: لا.

القرآن يُتعبَّد بتلاوته

فإن قلت: إن القرآن يُتعبد بتلاوته بغض النظر عن فهمه أو عدم فهمه، فلماذا يُعد الإسراع في قراءته من الأخطاء؟

كان الجواب على لسان الإمام محمد عبده، والذي نقله تلميذه محمد رشيد رضا:

سأَل سائل من المقلدين حاضري الدرس بأن العلماء قالوا:

إِن القرآن يتعبد بتلاوته، فقال الأستاذ الإمام: نعم، ولكنهم لم يقولوا إنه أنزل لذلك، وكيف يقولون ذلك، والله الذي أنزله يقول إنه أنزله: ﴿**لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ**﴾[ص: ٢٩]، فالقرآن وكذلك السنة يصرحان في مواضع كثيرة بخلاف هذا القول إذا أخذ على إطلاقه، وجعل معناه -أو من معناه- أن الله تعالى يطالب عباده بقراءة القرآن بدون تدبر ولا تذكُّر.

وقد جاء من الأحاديث ما يصف حال قوم يأتون بعد: «**يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ لَا يُجَاوِزُ تَرَاقِيَهُمْ**»(١).

وقد سماهم شرار الخلق، فهؤلاء الأشرار قد اتخذوا القرآن من الأغاني والمُطربات، وإذا طالبت أحدهم بالفهم والتدبر أخذته العزة بالإثم واحتج عليك بكلمة قالها فلان أو حلم رآه فلان، وهكذا انقلب على المسلمين وضع الدين، ثم

---

(١) منها ما رواه الشيخان عن علي بن أبي طالب وابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وغيرهما.

هم يتعجبون مع ذلك كيف حرموا من وعد الله في قوله: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧].

﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ (٦٨) أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ (٦٩)﴾ [المؤمنون: ٦٨، ٦٩].

وضرب الأستاذ مثلًا رجلًا يرسل كتابًا إلى آخر فيقرؤه المرسل إليه هذرمة أو يترنم به، ولا يلتفت إلى معناه، ولا يكلف نفسه إجابة ما طلب فيه، ثم يسأل الرسول أو غيره: ماذا قال صاحب الكتاب فيه، وماذا يريد منه؟ أيرضى المرسلُ من المرسل إليه بهذا أم يراه استهزاء به؟ فالمثل ظاهر وإن كان الحق لا يقاس على الخلق، فإن الكتاب لا يرسل لأجل ورقه، ولا لأجل نقوشه، ولا لأجل أن تكيف الأصوات حروفه وكلمه، ولكن ليعلم مراد المرسل منه ويعمل به.

يقول (الأستاذ الإمام): إن الاستهداء بالقرآن واجب على كل مكلف في كل زمان ومكان، فعلى كل قارئ أن يتلو القرآن بالتدبر، وأن يطالب نفسه بفهمه والعمل به، ولا شك أن كل من له معرفة -ولو قليلة- باللغة العربية، فإنَّه يفهم من القرآن ما يهتدي به، ومن كان أمِّيًّا أو أعجميًّا فإنه ينبغي له أن يسأل القارئين أن يقرءوا له القرآن ويفهموه معناه.. انتهى كلامه[1].

احذر القراءة في الأسواق

ومما يلحق بهذه المسألة قراءته في الأسواق والمصانع ومواطن اللغط واللغو وفي أوقات الانتظار في العيادات الطبية والمصالح الحكومية.

يقول الإمام القرطبي: ومن تعظيم القرآن ألا يقرأ في الأسواق ولا في مواطن اللغط واللغو ومجمع السفهاء. ألا ترى أن الله تعالى ذكر عباد الرحمن وأثنى

(١) تفسير المنار (١/ ٣٦٩)، ملاحظة: يقصد بالأستاذ الإمام: الشيخ محمد عبده.

عليهم بأنهم: ﴿وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغۡوِ مَرُّواْ كِرَامٗا﴾ [الفرقان: ٧٢] هذا المرور نفسه، فكيف إذا مروا بالقرآن الكريم تلاوة بين ظهراني أهل اللغو ومجمع السفهاء[(١)]!

أخي: إن كانت قراءة القرآن حجة للقارئ أو عليه، ترفعه أو تضعه، فقل لي بربك: في أي اتجاه ستؤدي قراءة القرآن وسط الضجيج؟ هل سترفعه؟ أم تضعه؟ هل ستكون حجة له؟ أم عليه؟

من هنا نفهم ما رواه ابن أبي شيبة عن أبي عبد الرحمن السلمي: «القرآن وحشي، ولا يصلح مع اللغط».

ووحشي هنا كما يقول المحقق: تعني حب الهدوء والوحدة والنفرة من الضجيج والصخب[(٢)].

أيستحق القرآن هذه المعاملة؟!

أما أخطر فترات التعامل الخاطئ الذي يحمل معه مظاهر الامتهان -ونستغفر الله من هذا اللفظ ولكنها الحقيقة: هو شهر رمضان...

فالكثير من المسلمين نتيجة فهمهم الخاطئ عن القرآن وعدم ربط أحاديث فضل قراءة القرآن بالمقصد من نزوله وآداب التعامل معه؛ ينكبون على قراءته وختمه في أسرع وقت ممكن حتى يتمكنوا من ختمه عدة ختمات، بل تحدث مسابقات بينهم في ذلك حتى وصل بعضهم إلى درجة التمكن من ختمه كاملًا مرة كل يوم، ولو سألت أحدهم عن موضوع الآيات لم يجبك بل استغرب سؤالك.

وفي رمضان كذلك نجد بعض أئمة المساجد يقرأ في صلاة التراويح قراءة سريعة ويصل الآيات بعضها ببعض من أجل سرعة الانتهاء من الصلاة، أو من أجل ختم القرآن كاملًا في خلال الشهر، بل إن بعضهم يحرص على ختمه أكثر من مرة

---

(١) التذكار للقرطبي (ص: ١٩٠).

(٢) مصنف ابن أبي شيبة (٧/ ١٨٩) والمحقق هو الأستاذ سعيد اللحام.

في صلاة التراويح والتهجد بقراءة سريعة متواصلة.

إن هذه الممارسات وغيرها لن يتوقف أثرها على تخفيف قدر القرآن في قلوبنا فقط، بل ستستدعي عقوبات كثيرة، وستجعلنا نزداد هوانًا وذلًا كما قال رسول الله ﷺ: «**وَيَضَعُ بِهِ آخَرِينَ**»(١).

ممارسات مُخزية

ومن أخطر الممارسات التي أقل ما يطلق عليها أنها مخزية: ما يحدث عند المقابر وفي سرادقات العزاء، حيث يتمايل القراء مع الآيات، وينشغل الحاضرون بالأحاديث الجانبية أو التحدث في الهواتف المحمولة.

ومنها كذلك: ما يحدث في افتتاح الحفلات والمناسبات والأفراح والحوانيت والمعارض، حيث نجد القرآن يُتلى في بداية هذه الحفلات مع غفلة الحاضرين وانشغالهم عنه.. ثم تبدأ الفقرات غير المنضبطة والتي قد تشمل غناءً خليعًا، وإنا لله وإنا إليه راجعون.

ومن العجائب - والعجائب جمة - ما ذكره الكاتب المصري فهمي هويدي في إحدى مقالاته عن حادثة حدثت في الساحل الشمالي بمصر، حيث أُعلِن عن مسابقة لأجمل من ترتدي لباس البحر بين الإناث، فقالت أم لابنتها وهي تستعد لصعود المنصة لتقديم لباسها: اقرئي الفاتحة لكي يوفقك الله!

---

(١) رواه مسلم (١/ ٥٥٩ برقم: ٨١٧).

ومن الممارسات الخاطئة مع القرآن:

الاهتمام بإقامة حروفه، وإهمال العمل به

ومن أخطائنا في التعامل مع القرآن: التعمق والتكلف في إقامة حروفه، حتى تحولت قراءة القرآن عند البعض إلى عمل شاق يحتاج إلى كثير من المجهود حتى تخرج الحروف بطريقة صحيحة متقنة من حيث المخارج والصفات وحقها ومستحقها، وأصبح همّ المتعلمين هو الاجتهاد في إقامة حروف القرآن كما يريد لهم معلموهم، فتجد بعضهم يكرر الكلمة مرات ومرات حتى يُخرج حرفًا مثل الراء أو السين من مخرجه الصحيح، ويجتهد في ذلك دون أدنى تفكير في معاني ما يقول.

فإذا ما نجح المتعلم في ذلك ينال حظوة معلمه فيرقيه حتى يجيزه للإقراء، فينتقل إلى مقام التعليم ويفعل مع من يأتيه مثلما فُعل به أو أشد، ويا ويله من ابتلي بمشكلة في إخراج حرف أو اثنين؛ فإنه يُراجَع مرات ومرات، ويعتريه الهم والغم، ويصبح إصلاحه مخرج هذا الحرف شغله الشاغل في يقظته ومنامه.

وأصبح أمل الحصول على إجازة قراءة من القراءات حلمًا يراود الكثيرين.. ثم تطور الأمر فأصبح بعض المعلمين يأخذ مبالغ مالية كبيرة مقابل منح الإِجازة.

وازداد نهم المتعلمين نحو تحصيل المزيد من القراءات دون تفكير في الفائدة المتحققة بالفعل من وراء ذلك.

كل هذا وغيره أدى إلى رسم صورة ذهنية عن القرآن بأنه حروف منضبطة تخرج من مخارجها الصحيحة، ومن لم يفعل ذلك فقراءته بها لحن وإمالة،... إلخ.

الرسول يحذِّر!

ومما يثير الحزن أن الرسول ﷺ قد حذر من الاهتمام بالألفاظ دون المعنى، فعن سهل بن سعد الساعدي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: بينما نحن نقترئ إذا خرج علينا رسول الله ﷺ فقال: «**الْحَمْدُ للهِ، كِتَابُ اللهِ وَاحِدٌ، وَفِيكُمُ الأَخْيَارُ، وَفِيكُمُ الأَحْمَرُ وَالأَسْوَدُ، اقْرَءُوا، اقْرَءُوا، اقْرَءُوا قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَ أَقْوَامٌ يَقْرَؤُونَ يُقِيمُونَ حُرُوفَهُ كَمَا يُقَامُ السَّهْمُ، لَا يُجَاوِزُ تَرَاقِيَهُمْ، يَتَعَجَّلُونَ أَجْرَهُ وَلَا يَتَأَجَّلُونَهُ**»[1].

وعن جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: خرج علينا رسول الله ﷺ ونحن نقرأ القرآن وفينا الأعرابي والعجمي، فقال: «**اقْرَءُوا فَكُلٌّ حَسَنٌ، وَسَيَجِيءُ أَقْوَامٌ يُقِيمُونَهُ كَمَا يُقَامُ الْقِدْحُ، يَتَعَجَّلُونَهُ وَلَا يَتَأَجَّلُونَهُ**»[2].

قال العيني في شرحه لسنن أبي داود: قوله: «يقيمونه» أي: يقيمون القرآن كما يقام القِدح، القِدح -بكسر القاف وسكون الدال- السهم إذا قوم واستوى قبل أن ينصل ويراش، فإذا رُكب فيه النصل والريش فهو سهم.. وقوله: «يتعجلونه» يقال: أعجله وتعجله وعجله تعجيلًا، إذا استحثه، والمراد يتعجلون أجره في الدنيا، ويطلبون على قراءتهم أجرة من الأعراض الدنيوية، ولا يصبرون إلى الأجر والثواب الذي يحصل لهم في دار الآخرة، وقد وقع مثل ما قال رَحِمَهُ اللَّهُ[3].

وقال أبو الحسن المباركفوري: فكلٌ حسن، أي فكل قراءة من قراءتكم حسنة مرجوة أو محصلة للثواب إذا آثرتم الآجلة على العاجلة، ولا عليكم ألا تقيموا

---

(١) رواه ابن المبارك في الزهد (١/ ٢٨٠ برقم: ٨١٣)، وأحمد (٣٧/ ٥٠٩ برقم: ٢٢٨٦٥)، وأبو داود (٢/ ١٢٣ برقم: ٨٣١)، وابن حبان (٣/ ٣٦ برقم: ٧٦٠).

(٢) رواه أحمد (٢٣/ ١٤٤ برقم: ١٤٨٥٥)، وأبو داود (٢/ ١٢٢ برقم: ٨٣٠)، واللفظ له.

(٣) شرح أبي داود للعيني (٤/ ١٢).

ألسنتكم إقامة القدح -وهو السهم- قبل أن يعمل له ريش ولا نصل، والمقصود: إن قراءة الأعرابي والعجمي وإن كانت بالنظر إلى خروج الألفاظ عن مخارجها ورعاية صفاتها وقواعد لسان العرب غير مستقيمة، ولكن باعتبار ترتب الثواب عليها والقبول عند الله معتبرة، وسيجيء أقوام يقيمونه -أي حروفه وألفاظه- ويجودونها بتفخيم المخارج وتمطيط الأصوات.

وقال القاري: أي يصلحون ألفاظه وكلماته ويتكلفون في مراعاة مخارجه وصفاته كما يقام القِدْح، بكسر القاف وسكون الدال، أي: يبالغون في عمل القراءة كمال المبالغة لأجل الرياء والسمعة والمباهاة والشهرة.

والحاصل أنهم يبالغون في التحسين والتطريب، ويجهدون غاية جهدهم في إصلاح الألفاظ ومراعاة صفاتها ومراعاة قواعد الفن رياءً وسمعة ومباهاة وشهرة، فليس غرضهم بهذا إلا طلب الدنيا.

وفي الحديث رفع الحرج وبناء الأمر على المساهلة فيما يتعلق بقراءة الألفاظ والحروف على السجية، والفطرة والحرص كل الحرص على فهم المعاني والعلم بالمقاصد والاتباع لشرائعه وأحكامه.

قال الطيبي: فيه رفع الحرج وبناء الأمر على المساهلة في الظاهر، وتحري الحسبة والإخلاص في العمل، والتفكر في معاني القرآن والغوص في عجائب أمره(١).

قوله: «**فَكُلٌّ حَسَنٌ**» أي: كل واحد من قرائكم حسن.

والمعنى هو ذم من يقيمون حروف القرآن كما يقام السهم قبل أن يُعدّ للرمي، فإن القائم عليه يحرص على جعله حادًا ليس فيه أي زوائد.

---

(١) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٧/ ٢٩٠).

لا تفعل

ولقد كان أصحاب رسول الله ﷺ يحذرون التابعين من الاهتمام بإقامة حروف القرآن وتضييع حدوده ومعانيه.

فعن الحارث بن قيس قال: كنت رجلاً في لساني لُكنة(١)، وكنت أتعلم القرآن، فقيل لي: ألا تعلّم العربية قبل أن تعلم القرآن؟! فذكرت ذلك لعبد الله بن مسعود، وقلت: إنهم يضحكون مني، ويقولون: تعلم العربية قبل أن تعلم القرآن، فقال: لا تفعل، فإنك في زمان تحفظ فيه حدود القرآن، ولا يبالون حفظ كثير من حروفه، وإن بعدك زمان تُحفظ فيه الحروف وتضيع فيه الحدود(٢).

وهذا فضالة بن عبيد الأنصاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول لأبي سكينة: خذ هذا المصحف وأمسك عليَّ، ولا ترُد عليَّ ألِفًا ولا واوًا، فإنه سيكون قوم يقرءون القرآن لا يسقطون منه ألفًا ولا واوًا، ثم رفع فضالة يده، فقال: اللهم لا تجعلني منهم(٣).

من موانع فهم القرآن

ولقد عدَّ الإمام أبو حامد الغزالي أن من موانع فهم القرآن: أن يكون الهَمُّ منصرفًا إلى تحقيق الحروف بإخراجها من مخارجها، وهذا يتولى حفظه شيطان وُكِّلَ بالقرَّاء ليصرفهم عن فهم معاني كلام الله عَزَّوَجَلَّ، فلا يزال يحملهم على ترديد الحرف يُخيِّل إليهم أنهم لم يُخرجوه من مخرجه، فهذا يكون تأملهم مقصورًا على

---

(١) اللكنة هي العجمة في اللسان والعي، والمقصود عدم القدرة على نطق العربية نطقًا فصيحًا (لسان العرب: ١٣/ ٣٩٠).

(٢) فضائل القرآن لابن الضريس (ص: ٢٧ برقم: ٤).

(٣) فضائل القرآن لأبي عبيد (ص: ٢١٢).

مخارج الحروف فأنَّى تنكشف لهم المعاني؟!! وأعظم ضحكة للشيطان من كان مطيعًا لمثل هذا التلبيس[(١)].

ويقول ابن الجوزي: وقد لبَّس إبليسُ على بعض المُصلين في مخارج الحروف، فتراه يقول: الحمد، الحمد، فيخرج بإعادة الكلمة عن قانون أدب الصلاة، وتارة يلبِّس عليه في تحقيق التشديد، وتارة في إخراج المغضوب، ولقد رأيت مَن يقول: المغضوب، فيخرج بُصَاقه مع إخراج الضاد لقوة تشديده، وإنما المراد تحقيق الحرف فحسب، وإبليس يُخرج هؤلاء بالزيادة عن حد التحقيق، ويشغلهم بالمبالغة في الحروف عن فهم التلاوة، وكل هذه الوساوس مِن إبليس[(٢)].

من أصناف المغرورين

وفي كتابه إحياء علوم الدين، وفي حديثه عن أصناف المغرورين؛ اعتبر الإمام أبو حامد الغزالي أن التكلف في تحقيق مخارج الحروف من أقبح أنواع الغرور.. يقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وفرقة أخرى تغلب عليهم الوسوسة في إخراج حروف الفاتحة وسائر الأذكار من مخارجها، فلا يزال يحتاط في التشديدات والفرق بين الضاد والظاء، وتصحيح مخارج الحروف في جميع صلاته، لا يهمه غيره، ولا يفكر فيما سواه، ذاهلًا عن معنى القرآن والاتعاظ به، وصرف الفهم إلى أسراره، وهذا من أقبح أنواع الغرور فإنه لم يكلف الخلق في تلاوة القرآن من تحقيق مخارج الحروف إلا بما جرت به عادتهم في الكلام.

---

(١) إحياء علوم الدين (١/ ٤٣٩).

(٢) تلبيس إبليس (ص: ١٢٦).

ومثال هؤلاء مثال من حمل رسالة إلى مجلس سلطان وأُمر أن يؤديها على وجهها، فأخذ يؤدي الرسالة، ويتأنق في مخارج حروفها ويكررها ويعيدها مرة بعد أخرى، وهو في ذلك غافل عن مقصود الرسالة ومراعاة حرمة المجلس، فما أحراه أن تقام عليه السياسة ويُرَد إلى دار المجانين ويُحكم عليه بفقد العقل[(١)].

فمن ضيع عمره في تصحيح مخارج الحروف في القرآن واقتصر عليه فهو مغرور؛ إذ المقصود من الحروف: المعاني، وإنما الحروف ظروف وأدوات[(٢)].

التحقيق صون القرآن

وجاء في كتاب المرشد الوجيز لأبي شامة المقدسي: قال رجل لسليم بن عيسى القارئ (صاحب حمزة بن حبيب): جئت لأقرأ عليك التحقيق.

فقال سليم: يا ابن أخي، شهِدت حمزة وقد أتاه رجل في مثل هذا، فبكى وقال: يا ابن أخي إن التحقيق صون القرآن، فإن صنته فقد حققته[(٣)].

وخلاصة القول كما يقول ابن القيم: أن الأئمة كرهوا التنطع والغلو في النطق بالحروف، ومن تأمل هدي رسول الله ﷺ وإقراره أهل كل لسان على قراءتهم؛ تبين له أن التنطع والتشدق والوسوسة في إخراج الحروف ليس من سنته[(٤)].

فإذا ما نظرنا للواقع سنجد عكس ذلك.. سنجد اهتمامًا شديدًا في حلقات تعليم القرآن بمخارج الحروف والتنطع فيها، مما يصرف الأذهان عن حقيقة

---

(١) إحياء علوم الدين (٣/ ٦٢٢).

(٢) المصدر السابق (٣/ ٦١٨).

(٣) المرشد الوجيز (ص: ٢٠٨).

(٤) إغاثة اللهفان (١/ ٢٥٤).

القرآن، فيكون ذلك سببًا من الأسباب التي تستدعى بها عقوبات الحرمان والذل والهوان: «**إِنَّ اللهَ يَرْفَعُ بِهَذَا الْكِتَابِ أَقْوَامًا، وَيَضَعُ بِهِ آخَرِينَ**»[(١)]، وإنا لله وإنا إليه راجعون.

وفي نهاية الحديث عن هذا الموضوع نؤكد بأن تحقيق وضبط مخارج الحروف ليس عيبًا، بل هو أمر حسن ومطلوب شريطة ألا يكون هو المقصد والغاية، وألا يهتم به حتى يدخل إلى دائرة التكلف، وألا يصرف القارئ عن فهم المراد مما يتلو.

(١) رواه مسلم (١/ ٥٥٩ برقم: ٨١٧).

ومن الممارسات الخاطئة مع القرآن:

قراءته بالألحان المحدثة

أمرنا الله عَزَّوَجَلَّ بترتيل القرآن والتغني به، قال الله تعالى:

﴿**وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا**﴾ [المزمل: ٤].

وقال رسول الله ﷺ: «**لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَمْ يَتَغَنَّ بِالْقُرْآنِ**»(١).

وقال: «**زَيِّنُوا الْقُرْآنَ بِأَصْوَاتِكُمْ، فَإِنَّ الصَّوْتَ الْحَسَنَ يَزِيدُ الْقُرْآنَ حُسْنًا**»(٢).

فترتيل القرآن وتحسين الصوت به له وظيفة عظيمة في استثارة المشاعر مع المعاني التي يحصلها العقل بالتفكر، فينشأ تبعًا لذلك الإيمان بإذن الله.

والملاحظ أن أحكام التجويد ترتبط ارتباطًا وثيقًا بالفهم والعمل، وليس بالشكل فقط، فعلى سبيل المثال: الإظهار الشفهي التام يعني في بعض الأحيان فورية التنفيذ، مثل: ﴿**قُمْ فَأَنذِرْ**﴾ [المدثر: ٢] ﴿**رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَـٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا**﴾ [آل عمران: ١٩٣].

بل نجد أن كثرة الغُنن في قوله تعالى: ﴿**وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ**﴾ [النساء: ٧٢] تساعد على توصيل دلالة الآية وهو الإبطاء والقعود وعدم النهوض للعمل والدعوة من هذا الصنف من الناس.. وهكذا.

---

(١) رواه البخاري (٩/ ١٥٤ برقم: ٧٥٢٧).

(٢) ورواه أحمد (٣٠/ ٤٥١ برقم: ١٨٤٩٤)، وابن ماجه (٢/ ٣٦٦ برقم: ١٣٤٢)، وأبو داود (٢/ ٥٩٤ برقم: ١٤٦٨)، والنسائي (٢/ ١٧٩ برقم: ١٠١٥)، والحاكم في المستدرك (١/ ٧٦٨ برقم: ٢١٢٥)، واللفظ له، وصححه ابن حجر في التلخيص الحبير (٤/ ٣٦٨ برقم: ٢٦٥٠).

تلحين القرآن

من الشائع والمألوف سماع أصوات المقرئين في سرادقات العزاء، ومن خلال ما تبثه الإذاعات وهم يقرؤون القرآن بطريقة تخالف قواعد الترتيل، ويغلب عليها الألحان المحدثة.

يقول الحافظ ابن كثير:

المطلوب شرعًا إنما هو التحسين الباعث على تدبر القرآن وفهمه، والخشوع والخضوع والانقياد للطاعة، فأما الأصوات بالنغمات المحدثة المركبة على الأوزان الملهية، والقانون الموسيقائي؛ فالقرآن يُنزه عن هذا، ويُجَلّ ويُعظَّم أن يسلك في أدائه هذا المذهب، وقد جاءت السنة بالزجر عن ذلك[١].

فعن عابس الغفاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول:

«بَادِرُوا بِالمَوْتِ سِتًّا: إِمْرَةَ السُّفَهَاءِ، وَكَثْرَةَ الشُّرَطِ، وَبَيْعَ الحُكْمِ، وَاسْتِخْفَافًا بِالدَّمِ، وَقَطِيعَةَ الرَّحِمِ، وَنَشْوًا يَتَّخِذُونَ الْقُرْآنَ مَزَامِيرَ يُقَدِّمُونَهُ يُغْنِيهُمْ، وَإِنْ كَانَ أَقَلَّ مِنْهُمْ فِقْهًا»[٢].

ومن الأخطاء كذلك:

جمع القراءات في الكلمة الواحدة

يقول ابن الجوزي: ومنهم من يجمع القراءات فيقول: «ملك، مالك، ملاك» وهو لا يجوز؛ لأنه إخراج القرآن عن نظمه[٣].

---

(١) فضائل القرآن لابن كثير (١١٤، ١١٥).

(٢) رواه أحمد في المسند (٢٥/ ٤٢٧ برقم: ١٦٠٤٠).

(٣) تلبيس إبليس (ص: ١٣٨).

ومن الممارسات الخاطئة مع القرآن:

وضع الآيات في غير موضعها، وغير ذلك من الأخطاء

كاستخدام آيات القرآن في الزينة والديكور، وكتابتها على المشغولات الذهبية والفضية والنحاسية، ونقشها على الأطباق، وعلى واجهات الحوانيت، ومداخل البنايات، وجدران المساجد... إلخ.

ومن الشائع رؤيتها على الأقلام والدفاتر وفي اللوحات والتابلوهات التي تُزين الجدران.

ولقد ساهمت هذه الأعمال في تخفيف قدر القرآن في قلوبنا، لاعتيادنا عليها، وإلفنا لحروفها، ولأنها كذلك ساهمت في مزيد من الظلم بهذه الآيات وحصرها في إطار الزينة والديكور، ومِن ثَم فُقدان هيبتها في قلوبنا، مما يتسبب في استدعاء الغضب الإلهي بالحرمان أكثر وأكثر من الانتفاع بالقرآن.

إلا اللوحات القرآنية!

فإن قيل: إن وضع اللوحات القرآنية في المنازل يختلف عن بقية الأشياء التي يكتب عليها الآيات، فنحن نضعها لاستجلاب البركة وطرد الشياطين.

نُجيب بعون الله عن هذا الأمر بمثال فيه -بإذن الله- الكفاية:

لو أن رجلًا كان قد سافر في إجازة هو وأسرته لعدة أيام، ثم عاد إلى منزله فوجد الفئران تملؤه وترتع فيه، فانزعج انزعاجًا شديدًا، وسارع بإخبار أحد أصدقائه الذي أنبأه بأن لديه حلًا سهلًا، وسينتج عنه فرار جميع الفئران، وهو شراء عدة لوحات تحمل صورًا لقطط، ثم يقوم بتعليقها على جدران المنزل.

فما رأيك أخي في هذا الاقتراح؟ وماذا تتوقع من الفئران أن تفعل؟!

هل بالفعل ستهرب عندما تشاهد صور القطط، أم أنها ستستمر في المنزل؟!

ألست توافقني القول بأننا لا نستبعد أن تُقرض وتفسد تلك اللوحات نفسها!!

فإن قلت: ولكنني أحتاج في بعض الأوقات لوضع بعض الآيات أمامي للتذكرة بمعانيها؟

جاءك بفضل الله الجواب بأنه لا بأس من ذلك، والله أعلم، على ألا يدوم وضعها طويلًا حتى لا تألفها العين، ومن ثم لا تتذكر بها فتصبح حجة عليك لا لك.

تزيين المصاحف

ومما يلحق بهذه المسألة: تزيين المصاحف وتحليتها بالزخارف وكتابتها بماء الذهب..

روى الحكيم الترمذي عن أبي الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعًا: «**إِذَا زَخْرَفْتُمْ مَسَاجِدَكُمْ، وَحَلَّيْتُمْ مَصَاحِفَكُمْ فَالدَّمَارُ عَلَيْكُمْ**»(١).

وعن شعيب بن أبي سعيد الخدري قال: قال أُبيٌّ بن كعب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: إذا حلَّيتم مصاحفكم وزوَّقتم مساجدكم فالدَّمار عليكم(٢).

وأُتي عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بمصحف قد زُيِّنَ بالذَّهب، فقال: إن أحسن ما زُيِّنَ به المصحف تلاوته بالحق(٣).

تصغير المصاحف

ذكر ابن الأنباري عن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه رأى مصحفًا صغيرًا فقال: من كتب هذا؟

---

(١) رواه الحكيم الترمذي (٦/ ٨٥) عن أبي الدرداء مرفوعًا. ورواه ابن المبارك في الزهد (برقم: ٧٩٧). وعبد الرزاق في المصنف (٣/ ١٥٤).

(٢) راه ابن أبي شيبة في المصنف (٢/ ٢٦٢ برقم: ٨٧٩٩).

(٣) رواه أبو عبيد في فضائل القرآن (ص: ٣٩٦).

قال رجل: أنا، فضربه بالدِّرة، وقال: عظِّموا القرآن.

ويُعلق القرطبي على هذا الخبر فيقول:

قال العلماء: ومن المساهلة فيه، وترك الحفل به: أن يُصغَّر فيكون عُرضة للأيدي الخاطئة، وذوي الأمانات المختلفة الناقصة، ولن يفعل هذا أحد بما عنده إلا إذا قلَّ مقداره عنده، وخف على قلبه أمره(١).

ومن صور استخدام آيات القرآن في غير موضعها ما ذكره ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وَلَيْسَ لأحد اسْتِعْمَال الْقُرآن لغير مَا أنزله الله لَهُ؛ وَبِذَلِك فسر الْعلمَاء الحَدِيث المأثور: (لَا يُناظر بِكِتَاب الله) أَي: لَا يُجْعَل لَهُ نَظِير يذكر مَعَه ، كَقَوْل الْقَائِل لمن قدم لحَاجَة : لقد جِئْت عَلَىَ قدر يَا مُوسَى، وَقَوله عِنْد الْخُصُومَة: مَتى هَذَا الْوَعْد، وَالله يشْهد إِنَّهُم لَكَاذِبُونَ.

ثمَّ إِن خرجه مخرج الاستخفاف بِالْقُرْآنِ والاستهزاء بِهِ: كفر صَاحبه !!

وَأما إِن تَلا الْآيَة عِنْد الحكم الَّذِي أنزلت لَهُ، أَو يُنَاسِبه من الْأَحْكَام: فَحسن؛ وَمن هَذَا الْبَاب: مَا يبنه الْفُقَهَاء من الْأَحْكَام الثَّابِتَة بِالْقِيَاسِ، وَمَا يتَكَلَّم فِيهِ الْمَشَايِخ والوعاظ»(٢).

ليست هذه فقط

إن الأخطاء التي نمارسها مع القرآن الكريم أكبر بكثير مما ذُكِر.. نعم، قد لا يقع قارئ هذه الصفحات في كثير منها، لكنها تحدث في الأمة، والله عَزَّوَجَلَّ يُعامل الأمة على أنها جسد واحد، تأمل قوله تعالى: ﴿وَلَا تَلۡمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ﴾ [الحجرات: ١١]، فهل يُعقل أن يلمز ويطعن المرء نفسه؟!! فكيف يطالبنا الله عَزَّوَجَلَّ بعدم لمز النفس؟!

---

(١) التذكار في أفضل الأذكار (ص: ١٤٤).

(٢) مختصر الفتاوى المصرية (ص: ١٧٢).

الجواب هو أن الله عَزَّوَجَلَّ يعامل الأمة على أنها جسد واحد، وعندما يلمز المرء أخاه فكأنما لمز نفسه.

فالذي يحدث في الأمة من شرقها إلى غربها من ممارسات خاطئة ومتنوعة مع القرآن تجعل العقوبات الإلهية بالحرمان والذل والهوان تُصيب الجميع، وقد لا يستثنى من ذلك إلا من استشعر الخطر الداهم، وشمّر عن سواعد الجد في خوض رحلة العودة الحقيقية إلى القرآن، يصحبه فيها عزم أكيد على بذل غاية جهده في الوصول إليه، ودلالة الناس على هذا الطريق، مع استعداد تام للتضحية وتحمل المشاق والعنت في سبيل ذلك: ﴿ **وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ** ﴾ [الأعراف: ١٧٠].

﴿ **وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا** ﴾ [الفرقان: ٥٢].

كلمة أخيرة حول الممارسات الخاطئة مع القرآن

تضمنت الصفحات السابقة العديد من الممارسات الخاطئة التي نمارسها مع القرآن، وهي ليست على سبيل الحصر، فهناك ممارسات أخرى متنوعة تُضعِف من هيبة القرآن في قلوبنا وتستدعي العقوبة الإلهية بالحرمان من روح القرآن وأثره؛ لذلك علينا جميعًا ألا نكتفي بما قيل سابقًا، بل نراجع كل أفعالنا مع القرآن وندقق فيها، ونتوقف عن كل ما فيه شبهة امتهان له.

الفصل السادس

كيف استُدرجت الأمة لهذا التعامل الخاطئ مع القرآن؟

كيف استُدرجت الأمة لهذا التعامل الخاطئ مع القرآن؟

في الصفحات السابقة تم ذكر تحذيرات النبي ﷺ وصحابته -رضوان الله عليهم- من تخفيف القرآن، وانتقاله عند المسلمين من كونه قولًا ثقيلًا يحتاج إلى مكابدة وجهد ومشقة للانتفاع به، إلى قول خفيف يُقرأ قراءة سريعة لا يُهتم بمقاصد نزوله ولا اتباع توجيهاته.

وذكرنا -بفضل الله- أن الأجيال التالية لجيل الصحابة لم تهتم كثيرًا بتحذيراتهم، وبدأت في التعامل غير الصحيح مع القرآن، مما استدعى العقوبات الإلهية بابتعاد روح القرآن ونوره عن ألفاظه، مما أدى إلى مزيد من تخفيف قدر القرآن في القلوب، ومزيد من الانشغال عنه، وكان من نتيجة ذلك غياب التغيير الحقيقي لأبناء الأمة، وانحرافها عن الخط المرسوم لها في قيادة البشرية.

وتطرق الحديث في الصفحات السابقة عن قدر القرآن المجيد، وكونه يحتوي على أعظم آيات الله عَزَّوَجَلَّ؛ لذلك فإن الإعراض عنه سواء كان ذلك بالغفلة أو التكذيب يُعرِّض صاحبه لعقوبات متتالية ومتصاعدة من الله عَزَّوَجَلَّ.

إن الهدف الأساس الذي ترنو هذه الصفحات إلى تحقيقه -بإذن الله- هو تأجيج الشعور بالخطر تجاه القرآن، والنظر في أفعالنا معه بعين المحاسبة والنقد، لذلك تم التوسع في ذكر أخطائنا تجاهه.

.. وقبل أن ينتقل الحديث إلى ما ينبغي علينا فعله كي نُعيد للقرآن هيبته في القلوب، ونضع أنفسنا في طريق تلقي الفيض الإلهي فتُفتح القلوب بإذن الفتاح

العليم لنور القرآن وروحه؛ تبقى نقطة مهمة ينبغي التطرق إليها وهي: **كيف استُدرجت الأمة على مر تاريخها حتى وصل الحال مع القرآن لما نراه الآن**..

(كتاب مقدس) من الناحية الشكلية!!

تُحفظ ألفاظه، وتُضيَّع حدوده، ومعانيه!!

والله ثم والله لو بلغ أحدنا أن هناك أناسًا في مكان (ما) يعاملون كتابًا من الكتب القيمة التي بين أيديهم بمثل ما نعامل به القرآن لاتهمهم بنقص في قواهم العقلية.

فكيف وصلنا لهذا الحال مع القرآن؟!

.. صفحات هذا الفصل تلقي -بعون الله- الضوء بصفة عامة على تاريخ هجر القرآن، وأسباب الوصول لهذه الحالة الغريبة التي نحياها معه.

هذا الموضوع -بلا شك- يحتاج إلى بحث منفصل يتم فيه التوسع في تتبع منحنى التعامل مع القرآن على مر تاريخ الأمة، ولعدم خروج الكتاب عن موضوعه؛ اقتصر الحديث عن هذا المعنى بإجمال واختصار شديدين.

المعركة المُستَعِرة، والعدو الأول

الإجابة عن السؤال السابق (كيف استدرجت الأمة لهذا التعامل الخاطئ مع القرآن؟) يستدعي تذكر طبيعة المعركة التي يخوضها إبليس ضد آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ وبنيه، فلقد توعَّد إبليس بعد طرده من رحمة الله أن يعمل جاهدًا على الانتقام من آدم وبنيه، بإضلالهم وسوقهم إلى النار، حتى ينتقم لنفسه مما حدث له بسبب آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ -كما يظن- وحتى يثبت للجميع أنه أفضل منه، وأيضًا تعبيرًا عن حسده وحقده عليه: ﴿**لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴿١٧﴾**﴾ [الأعراف: ١٦، ١٧].

إنها عداوة تاريخية أبدية بين إبليس وبني آدم لا يمكن نسيانها، وكيف ننساها وإبليس لم يطلب المهلة من الله عَزَّوَجَلَّ إلا ليُضل الناس: ﴿**قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَىٰ يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ﴿٨١﴾ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾**﴾ [ص: ٧٩ - ٨٣].

ولقد حذرنا الله عَزَّوَجَلَّ مراراً من عداوته: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ۖ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ ﴿٥﴾ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿٦﴾**﴾ [فاطر: ٥، ٦].

.. لقد توعَّد إبليسُ بني آدم بأن يصرفهم عن عبادة الله، ونجح في ذلك نجاحًا كبيرًا، وبخاصة قبل البعثة المحمدية، حيث أصبحت الغالبية العظمى من الناس تسير وراء الشيطان، وليس أدل على ذلك من قول رسول الله ﷺ وهو يخبرنا عن حال الناس قبل بعثته: «**إِنَّ اللهَ نَظَرَ إِلَى أَهْلِ الأَرْضِ فَمَقَتَهُمْ عَرَبَهُمْ وَعَجَمَهُمْ، إِلَّا**

بَقَايَا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ»[(١)].

فقد نجح مع اليهود والنصارى في إضلالهم بتحريف التوراة والإنجيل، فتبدلت اليهودية والنصرانية، وابتعدَ أهلُها عن صراط الله المستقيم، وضلَّت البشرية إلا أعدادًا قليلة منهم.

وفي وسط هذا الانتصار الساحق للشيطان كانت البعثة المحمدية، التي تحمل أعظم كتاب وأعظم معجزة.. فماذا تظن بإبليس وهو يرى إرهاصات فجر جديد للبشرية، ونور سيُعيد الناس إلى صراط ربهم، ومِن ثَمّ تفشل خططه، وتفسد أمانيه، وتخيب مساعيه؟!

ماذا تظنه أن يفعل؟!

في أثناء تفكيرك في الإجابة عن هذا السؤال أسرد عليك ما نقلته كتب السيرة عما حدث من الشيطان في ليلة العقبة الثانية بعد بيعة الأنصار، التي كان من أبرز نتائجها إقامة الدولة الإسلامية في يثرب:

قال كعب بن مالك رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: كان أول من ضرب على يد رسول الله ﷺ البراء بن معرور، ثم تتابع القوم، فلما بايعنا رسول الله ﷺ صرخ الشيطان من رأس العقبة بأبعد صوت سمعته قط: يا أهل الجباجب - والجباجب: المنازل - هل لكم في مذمم والصباة معه؟ قد أجمعوا على حربكم ـ قال علي يعني ابن إسحاق ما يقول عدو الله محمد ـ فقال رسول الله ﷺ: «**هَذا أَزَبُّ العَقَبَةِ هَذا ابْنُ أَزْيَبَ، اسْمَعْ أَيْ عَدُوَّ اللهِ أما واللهِ، لَأَفْرُغَنَّ لَكَ**»[(٢)].

---

(١) رواه مسلم (٤/ ٢١٩٧ برقم: ٢٨٦٥).

(٢) رواه أحمد (٢٥/ ٩٤ برقم: ١٥٧٩٨)، و«أزب»: من أسماء الشياطين.

فلا بد -إذن- ونحن نبحث عن كيفية استدراج الأمة نحو هذا الوضع الشاذ مع القرآن ألا نغفل عن دور الشيطان في ذلك، ويكفيك تأكيدًا لهذا المعنى تفكرك في أن العبادة الوحيدة التي أُمرنا بالاستعاذة من الشيطان قبل القيام بها هي قراءة القرآن: ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴾ [النحل: ٩٨].

فنحن لا نستعيذ بالله من الشيطان قبل أن نتصدق، أو نصوم، أو نذكر الله، أو...

أتدري أخي لماذا؟

لأن الشيطان يعلم بأن الهداية والتغيير والشفاء سيتحقق -بإذن الله- لو تم الوصال بين القلب والقرآن، لذلك فهو سيعمل جاهدًا على الحيلولة دون حدوث ذلك تنفيذًا للوعد الذي قطعه على نفسه:

﴿ قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ [الأعراف: ١٦].

ولأن الله عَزَّوَجَلَّ يريد لنا الخير والنجاح في امتحان العودة إلى الجنة بسلوك الصراط المستقيم؛ فقد أخبرنا بمداخل الشيطان وكيفية التحرز منها، ومن أهمها الاستعاذة واللوذ به سبحانه قبل الشروع في قراءة القرآن حتى يخنس، ومن ثم ينفتح الطريق لنور القرآن وروحه فيصل للقلب:

﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ ﴾ [النحل: ٩٨، ٩٩].

عداوة اليهود الأبدية لأمة الإسلام

ونحن نتحدث عن البُعد التاريخي في استدراج الأمة نحو الوضع الشاذ في تعامل أبنائها مع القرآن، فإن العنصر الأول الذي ينبغي أن نقف عنده طويلًا هو كيد الشيطان المتوقع والمتواصل والمتغير الأشكال كما أسلفنا.

أما العنصر الثاني الذي لا يقل أهمية عن الأول فهو: كيد اليهود.

فكما نعلم أن الله عَزَّوَجَلَّ قد جعل في ذرية إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ النبوة والكتاب وتبليغ رسالات الله للناس بتوحيده وعبادته: ﴿وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ﴾ [العنكبوت: ٢٧]، وكان لإبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ إسحاق وإسماعيل عليهم السلام ، فكانت النبوة والكتاب في البداية في ذرية إسحاق عَلَيْهِ السَّلَامُ بدءًا من يعقوب (إسرائيل) عَلَيْهِ السَّلَامُ فيوسف حيث سكن إخوته في زمانه (مصر) واستوطنوها حتى أرسل الله موسى وهارون عَلَيْهِمَا السَّلَامُ إلى فرعون يدعوانه لعبادته سبحانه، فرفض فرعون الدعوة، وزاد تنكيله ببني إسرائيل فصبروا على إيذائه حتى أهلكه الله عَزَّوَجَلَّ، ونصرهم عليه، وفضلهم على العالمين لقيامهم -في الغالب- آنذاك بحقوق عبادته: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٧].

وبدلًا من أن يشكر بنو إسرائيل ربهم على نعمه المتوالية عليهم حدث العكس؛ شعروا بأنهم مفضلون بذواتهم على بقية البشر، وأنهم صنف ممتاز لا يرقى إليه غيرهم من الناس، فتكبروا وتطاولوا، واستمر حلم الله بهم، واستمر إرسال الرسل وإنزال الكتب فيهم، فأرسل إليهم داود وسليمان وأيوب وزكريا ويحيى وغيرهم

من الأنبياء الكرام عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، لكنهم لم يعودوا إلى المسار الصحيح، فأرسل الله إليهم سبحانه آية عظيمة ممثلة في إرسال عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ لكي يُصحح انحرافهم، لكنهم لم يفيقوا ويرتدعوا، بل حاولوا قتله فرفعه الله عَزَّوَجَلَّ إليه، وغضب عليهم:

﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الْأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ ۚ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥٥﴾ وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ﴾ [النساء: ١٥٥ – ١٥٧].

وكان اليهود يقرءون في كتبهم عن نبي سيُرسَل ويهاجر إلى يثرب، فظنوا أنه سيكون منهم كما كان الحال في السابق، فاستوطنوا يثرب انتظارًا لمجيئه ففوجئوا بالطامة الكبرى عليهم، وهي أن الرسول الجديد لم يُبعث من بينهم، بل من أمة العرب.. من بني إسماعيل، فكان الرفض التام والقاطع له، والعداوة الشديدة لرسالته، منطلقين في ذلك من شعورهم بأحقيتهم في بقاء الرسالة عندهم، واستعظام أن يكون الرسول من أمة أخرى وبخاصة العرب وكيف لا وهم يرونهم خدمًا لهم، ويرون أنفسهم أسياد الأرض، وأبناء الله وأحباءه، ويلخص هذا المعنى الحوار الذي دار بين حُيَي بن أخطب وأخيه أبي ياسر اليهوديين، وذلك في أعقاب رؤيتهما الأولى للنبي ﷺ، ولقد نقلت هذا الحوار أم المؤمنين صفية بنت حُيي بن أخطب فتقول: كنت أحَبَّ ولد أبي إليه، وإلى عمِّي أبي ياسر، لم ألقهما قط مع ولد لهما أهش إليهما إلا أخذاني دونه.

قالت: فلما قدم رسول الله ﷺ المدينة ونزل قباء في بني عمرو بن عوف غدا إليه أبي؛ حيي بن أخطب، وعمِّي أبو ياسر بن أخطب مُغَلِّسِين، قالت: فلم يرجعا

حتى كانا مع غروب الشمس، قالت: فأتيا كَالَّيْن كسلانين ساقطين يمشيان الهُوَيْنَى. قالت: فهششت إليهما كما كنت أصنع، فوالله ما التفت إليَّ واحد منهما، مع ما بهما من الغم. قالت: وسمعت عمِّي أبا ياسر، وهو يقول لأبي حيي بن أخطب: أهو هو؟ قال: نعم والله، قال: تعرفه بعينه وصفته؟ قال: نعم والله، قال: فماذا في نفسك منه؟ قال: عداوته والله ما بقيت(١).

فهم إذن لم يؤمنوا بالرسول ﷺ ولا برسالته ليس بسبب شكهم فيها، ولكنه الكِبر والحقد والحسد والخوف من اهتزاز مكانتهم وصورتهم التي رسموها لأنفسهم وصوروا فيها أنهم أبناء الله وأحباؤه، لذلك نجد الخطاب القرآني يقول للمسلمين: ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٧٥].

من هنا ظهر حسدهم وحقدهم وعداوتهم للمسلمين: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ﴾ [البقرة: ١٠٩].

ولك أخي القارئ بهذه الخلفية التاريخية أن تتصور حجم العداوة والحقد الذي تُكِنُّه صدور اليهود تجاه المسلمين، والذي من المتوقع أن يظهر في صورة كيد دائم ورغبة مستمرة ومحاولات دائبة لإسقاط الإسلام والنيل منه وهزيمة المسلمين: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا﴾ [البقرة: ٢١٧].

---

(١) رواه ابن هشام (٢/ ٣٢٩-٣٣٠)، والبيهقي في دلائل النبوة (٣/ ٤٠٣ برقم: ٧٨٦).

ولأنهم يعلمون جيدًا قدر القرآن وقيمته(١)، ويعلمون أن عزة ورفعة أمة الإسلام مرهونتان بتمسكها بكتابها؛ لذلك فليس بمستبعد أن يكون لليهود دور كبير فيما وصلنا إليه مع القرآن، إما بطريقة مباشرة أو غير مباشرة.

من هنا يتبين بأن أعداء الله -ويقف على رأسهم الشيطان واليهود- قد بدأوا كيدهم للقرآن منذ العصر الأول، وقد تصاعد هذا الكيد حتى وصلنا إلى هذه الحال الشاذة والتقديس الشكلي للقرآن.

وغني عن البيان أننا لم نصل لهذا الوضع بصورة مفاجئة بل كان هناك تتابع ماكر في استدراج الأمة وإبعادها عن كتابها شيئًا فشيئًا حتى كان ما كان والذي يبينه قوله تعالى: ﴿فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٨٧].

وسنستعرض بعون الله معًا -أخي القارئ- الخطوات والمراحل التي أدت بنا إلى هذا الحال، والتي من خلالها استدرجت الأمة إلى هذا التعامل مع القرآن، والتي بدأت مبكرًا في العصر الأول للإسلام بأمور يسيرة وقليلة ثم ازدادت بعد ذلك رويدًا رويدًا.

أولاً: الفتوحات الكثيرة التي حدثت في عهد الخلفاء الراشدين

خاصة في زمن عمر وعثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا والتي أثمرت دخول أعداد هائلة إلى الإسلام، ولقد كان الخلفاء، وبخاصة عمر بن الخطاب يحرصون على إرسال

---

(١) ومن أمثلة ذلك ما رواه البخاري (١/ ١٨ برقم: ٤٥)، ومسلم (٤/ ٢٣١٢ برقم: ٣٠١٧) أن رجلًا من اليهود جاء إلى عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فقال: إنكم تقرءون آية في كتابكم لو علينا معشر اليهود نزلت، لاتخذنا ذلك اليوم عيدًا. قال: وأي آية؟ قال: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]، فقال عمر: والله إني لأعلم اليوم الذي نزلت على رسول الله ﷺ، والساعة التي نزلت فيها على رسول الله ﷺ: عشية عرفة، في يوم جمعة.

الأمراء والقراء لتعليم الناس القرآن في كل مكان جديد، ولكن كانت الأعداد فوق الطاقة، لذلك فمن المتوقع ألا يكون قدر القرآن وقيمته العظيمة عند هؤلاء كما كانت عند الصحابة، وكان منطقيًا أن تظهر من بينهم نماذج تتساهل في التعامل مع القرآن.

فإذا ما أضفت إلى هذا العامل أن التفكر في القرآن عملية قد تبدو للبعض مُرهقة تحتاج إلى مكابدة وصبر ومصابرة، وأن النفس تميل إلى الاستسهال وتكره المشقة، وأن الشيطان يكيد لمن يحاول الاقتراب الحقيقي من القرآن؛ فإنه من المتوقع أيضًا أن توجد نماذج لا تتعامل مع القرآن كما كان يفعل الصحابة، وهذا يؤكد بعض ما ورد عن الصحابة في نهيهم لمن يرونه يتعامل بطريقة غير صحيحة مع القرآن، كقول السيدة عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا عندما سمعت رجلًا يقرأ قراءة سريعة، فقالت: ما قرأ هذا وما سكت[١].

وعن أبي جمرة قال: قلت لابن عباس: إني سريع القراءة، وإني أقرأ القرآن في ثلاث، فقال: لأن أقرأ البقرة في ليلة، فأدَّبرها، وأرتلها أحب إليَّ من أن أقرأ كما تقول[٢].

وفي رواية عن أبي جمرة قال: قلت لابن عباس إني رجل سريع القراءة، وربما قرأت القرآن في ليلة مرة أو مرتين، فقال ابن عباس: لأن أقرأ سورة واحدة أعجب إليَّ من أن أفعل مثل الذي تفعل، فإن كنت فاعلًا -لا بد- فاقرأه قراءة تُسمع أذنيك ويعيه قلبك[٣].

---

(١) الزهد لابن المبارك (ص: ٤٢٢ برقم: ١١٩٧).

(٢) رواه أبو عبيد في فضائل القرآن (ص: ١٥٧).

(٣) رواه البيهقي في السنن الكبرى (٢/ ٥٥٥ برقم: ٤٠٦١).

وقد مر علينا أنه قد جاء رجل يقال له نهيك بن سنان إلى عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فقال له: يا أبا عبد الرحمن، كيف تقرأ هذا الحرف، ألفًا تجده أم ياء: ﴿مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ﴾ [محمد: ١٥] أو «من ماء غير ياسن؟» فقال له عبد الله: وكلَّ القرآن أحصيت غير هذا؟!

قال نهيك: إني لأقرأ المفصل في ركعة. فقال عبد الله: هذًّا كهذِّ الشعر؟! إن أقوامًا يقرءون القرآن لا يجاوز تراقيهم، ولكن إذا وقع في القلب فرسخ فيه، نفع[(١)].

وعندما جاء رجل إلى أبي الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يخبره بأن ابنه قد جمع القرآن، انزعج أبو الدرداء وقال له: اللهم غفرًا، فإنما جمع القرآن من سمع له وأطاع[(٢)].

إذن فقد كان الصحابة يقاومون مثل هذه التعاملات الخاطئة مع القرآن، وبخاصة في أوساط حديثي العهد بالإسلام، ولكن كيد الشيطان، وهوى النفس وحبها للاستسهال جعل القرآن خفيفًا على ألسنة البعض.

ومما يلحق بهذه المرحلة التي كانت في عهد الصحابة: ظهور الخوارج في زمن الإمام علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ والذين وصفهم رسول الله ﷺ بأنهم: «**يَقْرَؤُونَ الْقُرْآنَ لَا يُجَاوِزُ حَنَاجِرَهُمْ**»[(٣)].

فظهور هذه الطائفة والتي تقرأ القرآن بحناجرها فقط ولا تتفهمه أو تتفكر فيه، يؤكد على أن الانحراف عن التعامل الصحيح مع القرآن بدأ مبكرًا، وكان من أهم أسبابه إقبال أعداد كبيرة على الإسلام من الذين لم يأخذوا حظهم من إدراك قيمة

---

(١) رواه مسلم (١/ ٥٦٣ برقم: ٨٢٢).

(٢) فضائل القرآن للقاسم بن سلام (ص: ١٣٢، ١٣٣).

(٣) رواه مسلم (٢/ ٧٤٨ برقم: ١٠٦٦) عن علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

القرآن ولا تعلم آياته كما كان يحدث في عصر النبي ﷺ.

ثانيًا: تمييز القرَّاء

مصطلح (القرَّاء) كان شائعًا بين الصحابة، ويُطلق على من يحمل العديد من سور القرآن أو يحملها كلها ويفقهها -وإن كان هؤلاء قلة وسط الصحابة- وكان الخلفاء يقدمون القراء على من سواهم في المناصب لإدراكهم بأنهم أكثر الناس فقهًا في الدين وعملًا به، ولقد رأوا رسول الله ﷺ يقدم في كثير من المواضع الأكثر أخذًا للقرآن.

فعن عمرو بن سلمة الجرمي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: لما قدم وفد قومي على رسول الله ﷺ قالوا: يا رسول الله من يؤمنا؟ فقال: «**أَكْثَرُكُمْ جَمْعًا لِلْقُرْآنِ أَوْ أَخْذًا لِلْقُرْآنِ**»[(١)].

ولقد كان هذا الأمر سائدًا بين الصحابة

عن ابن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا قال: «كان سالم مولى أبي حذيفة يؤم المهاجرين الأولين، وأصحاب النبي ﷺ في مسجد قباء فيهم أبو بكر، وعمر، وأبو سلمة، وزيد، وعامر بن ربيعة»[(٢)].

وكان الخلفاء يطبقون هذا المعنى بصورة عملية، فقد التقى نافع بن عبد الحارث الخزاعي بعمر بن الخطاب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا بعُسفان، وكان عمر استعمله على مكة، فسلم على عمر، فقال له: من استخلفت على أهل الوادي؟ فقال نافع: استخلفت عليهم يا أمير المؤمنين ابن أَبْزَى. فقال عمر: وما ابن أبزى؟ فقال نافع: هو من موالينا. فقال عمر: استخلفت عليهم مولى؟! فقال: يا أمير المؤمنين: إنه قارئ لكتاب الله تعالى، عالم بالفرائض. فقال عمر: أما إن نبيكم ﷺ قد قال: «**إِنَّ**

---

(١) رواه أحمد (٣٣/ ٤٤٢ برقم: ٢٠٣٣٢)، وأبو داود (١/ ٤٣٩ برقم: ٥٨٧).

(٢) رواه البخاري (٩/ ٧١ برقم: ٧١٧٥).

اللهَ يَرْفَعُ بِهَذَا الْكِتَابِ أَقْوَامًا، وَيَضَعُ بِهِ آخَرِينَ»[١].

وفي رواية زاد في آخره: قال عمر: وإني لأرجو أن يكون عبد الرحمن بن أبزى ممن رفعه الله بالقرآن.

لقد كانت الصورة الذهنية عند الصحابة عن جمع القرآن واحدة، ولكنها لم تكن كذلك عند من جاء بعدهم من المسلمين الجدد الذين رأوا الحفاوة والتمييز الذي يلقاه القراء، ولم يفطنوا إلى أنه مرتبط بأخذهم الحقيقي للقرآن مع جمعهم له، فنشطوا إلى جمع ألفاظ القرآن دون التفقه فيه والعمل به، فبدأت تظهر أعداد ليست بالقليلة من هؤلاء، وبدأ الصحابة يستشعرون الخطر، فكانت تحذيراتهم المتكررة من خطورة هذا المسلك -كما مر علينا في الفصل السابق- ولعل ما قاله أبو موسى الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لقراء الكوفة يلخص هذه المسألة:

عن أبي كنانة أن أبا موسى الأشعري جمع الذين قرؤوا القرآن وهم قريب من ثلاثمائة، فعظَّم القرآن وقال: «إن هذا القرآن كائن لكم ذكرًا، وكائن لكم أجرًا، أو كان عليكم وزرًا، فاتبعوا القرآن، ولا يتبعكم القرآن، فإنه من يتبع القرآن يهبط به على رياض الجنة، ومن يتبعه القرآن يزخ في قفاه فيقذفه في جهنم»[٢].

ثالثا: أخطر المراحل: افتراق القرآن والسلطان

لقد تنبأ رسول الله ﷺ بأن القرآن والسلطان سيفترقان، فعن معاذ بن جبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عن رسول الله ﷺ: «**خُذُوا الْعَطَاءَ مَا دَامَ عَطَاءً، فَإِذَا صَارَ رِشْوَةً فِي الدِّينِ فَلَا تَأْخُذُوهُ، وَلَسْتُمْ بِتَارِكِيهِ، يَمْنَعُكُمُ الْفَقْرُ وَالحَاجَةُ، أَلَا إِنَّ رَحَى الْإِسْلَامِ دَائِرَةٌ،**

---

(١) رواه مسلم (١/ ٥٥٩ برقم: ٨١٧).

(٢) رواه ابن أبي شيبة في المصنف (٦/ ١٢٦ برقم: ٣٠٠١٤).

فَدُورُوا مَعَ الْكِتَابِ حَيْثُ دَارَ، أَلَا إِنَّ الْكِتَابَ وَالسُّلْطَانَ سَيَفْتَرِقَانِ، فَلَا تُفَارِقُوا الْكِتَابَ، أَلَا إِنَّهُ سَيَكُونُ عَلَيْكُمْ أُمَرَاءُ يَقْضُونَ لِأَنْفُسِهِمْ مَا لَا يَقْضُونَ لَكُمْ، إِنْ عَصَيْتُمُوهُمْ قَتَلُوكُمْ، وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ أَضَلُّوكُمْ» قالوا: يا رسول الله، كيف نصنع؟ قال: «**كَمَا صَنَعَ أَصْحَابُ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ، نُشِرُوا بِالْمَنَاشِيرِ، وَحُمِلُوا عَلَى الْخَشَبِ، مَوْتٌ فِي طَاعَةِ اللهِ خَيْرٌ مِنْ حَيَاةٍ فِي مَعْصِيَةِ اللهِ**»(١).

فبعد أن كان السلطان في زمن الخلافة الراشدة هو الذي يطبق القرآن ويحمل الناس على تطبيقه كاملًا، ويشجعهم على تعلمه، ويحذرهم من التعامل الخاطئ معه؛ حدث أن انفصل السلطان عن القرآن بتولية إمارة المسلمين من لا يستحق، فاختلت الموازين، وسُفكت الدماء، وانتشرت المظالم، وخاف الناس على أنفسهم، وانشغلوا بأمورهم الخاصة، وأصبحوا يهابون السلطان، واختلت موازين التوثيق والتضعيف، والتميز والترقي، فلم تصبح على أساس الكفاءة والصلاح، وازداد ابتعاد المسلمين عن القرآن، وذلك لافتراقه عن السلطان كما أسلفنا.

والجدير بالذكر أن هذا الابتعاد قد زاد بما فعله مؤسسو الدولة العباسية من سفك شديد للدماء، وظلم، وقتل، وسجن، وتشريد.

رابعًا: الانفتاح على الثقافات الأخرى

كان من آثار الفتوحات الإسلامية اطلاع المسلمين على تراث الأمم الأخرى كالفرس والروم، وبدأت مرحلة الترجمة والأخذ من هذه الثقافات وعدم التمييز بين غثها وسمينها، وبعد أن كان المصدر الوحيد للتوجيه والتلقي هو القرآن الكريم والسنة المطهرة؛ تعددت المصادر، واختلط النبع الرائق، وحدث ما كان يخشى منه الرسول ﷺ من الانبهار بكتب أخرى غير القرآن، فساهم هذا العامل الخطير في

(١) رواه الطبراني في المعجم الكبير (٢٠/ ٩٠ برقم: ١٧٢)، وأبو نعيم في حلية الأولياء (٥/ ١٦٥).

تخفيف قدر القرآن في قلوب المسلمين، وتسرب إلى القلب والعقل شيئًا فشيئًا تقدير كتب أخرى غيره حتى تمت إزاحته من المرتبة الأولى، وتراجعت قيمته تدريجيًا حتى وصلت إلى ما وصلت إليه.

ولقد حدث هذا أيام الدولة الأموية وازداد بقوة في أيام الدولة العباسية، التي وصل فيها الأمر إلى التشجيع الكبير للترجمة، ورصد المكافآت لكل من يترجم شيئًا إلى العربية.

إن هذه المرحلة تُعد من أخطر المراحل التي أثرت بالسلب على قيمة القرآن في قلوب المسلمين، ولعلنا بذلك نُدرك بعض أسباب غضب الصحابة الشديد من كل من يقتني كتابًا آخر غير القرآن لعلمهم بخطورة ذلك -على المدى البعيد- في إضعاف مهابة القرآن وقدره في نفوس المسلمين.

خامسًا: ظهور آثار البعد عن القرآن على فكر الأمة وثقافتها

كان من نتاج ما سبق وغيره أن ظهرت آثار البعد عن الانتفاع بالقرآن كمصدر متفرد لتحصيل العلم والإيمان والهداية والشفاء، ومن ذلك:

- تغيير الأوزان النسبية للعلوم.
- نشأة علم الكلام وظهور الفرق.
- نشأة الصوفية وتطورها.
- تغيير مدلولات بعض المفاهيم القرآنية.
- وضع منهجية لتلقي العلوم والترقي فيها.

وإليك -أخي القارئ- بعض الكلمات الموجزة عن هذه العناصر الخمسة التي نتج عنها بعد ذلك مزيد من ابتعاد القرآن عن مكانه الأصلي، ومزيد من هجره، ومزيد من تخفيف قدره في القلب.

تغيير الأوزان النسبية للعلوم

القرآن العظيم كتاب هداية يحمل معاني هادية وأحكامًا يلتزم بها المرء في عبادته لربه، والملاحظ في القرآن أن الحديث عن المعاني الهادية يحتل المساحة الكبرى في القرآن، وفي المقابل فإن الحديث عن الأحكام الشرعية التفصيلية يشكل حوالي عشرة بالمائة من الآيات أو أقل، تأمل قوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ﴾[1] [النحل: ١١٨].

فالآية لم تكرر ذكر ما تم تحريمه على الذين هادوا باعتبار أنه ذُكِر من قبل في القرآن، وفي المقابل نجد تكرارًا لحقائق بعينها مرات ومرات.

وهذا الأمر له حكمة، فالإنسان يحتاج دومًا إلى تذكرة وبيان لما ينبغي أن يفعله أمام مستجدات الحياة وتقلباتها.. يحتاج إلى دوام تذكرة بالله سبحانه وبأسمائه وصفاته وبسننه الحاكمة للحياة، وبالعبودية المستحقة في كل موقف، حيث تتنوع بتنوعه ما بين توكل، وإنابة، وخشية، ورجاء، وفرح، واستبشار، ورهبة، ورغبة، وشكر، وصبر، وتوبة واستغفار، وتعظيم، وتقديس.

ويحتاج دومًا إلى تذكُّر حقيقة الدنيا وأنها دار امتحان، وحتمية الموت والبعث والحساب، والميزان... إلخ.

ويحتاج إلى الحذر من معاصي القلوب والجوارح، كالغرور والكبر والعجب، والرياء، والحسد والبغي، والحقد، وسوء الظن، والتعلق بالدنيا، واقتراف المحرمات.

---

(١) تتراوح آيات الأحكام بين الثلاثمائة والثمانمائة آية على نحو ما أحصاه المفسرون، وكذلك فإن الأحاديث والآثار الواردة في الأحكام -على أوسع جمع- لم تزد عن خمسة آلاف حديث وأثر، من نحو بضعة وأربعين ألف حديث نبوي، وعشرات الآلاف من آثار الصحابة والتابعين، والله أعلم.

ويحتاج إلى من يُذكِّره بكيفية التعامل مع الآخرين وحقوقهم عليه.. وغير ذلك من المعاني الهادية اللازمة لاستقامة طريق رحلته وعودته إلى الله سبحانه وتعالى.

وفي خضم احتياجه الدائم إلى هذه المعاني فإنه يحتاج كذلك إلى من يُذكِّره ويُعَلِّمه الأحكام العملية لعبادات الجوارح.. نعم، هو لا يحتاج إلى دوام التذكرة بها، مثل احتياجه للمعاني السابقة؛ لأنه إذا طبقها مرة فلن ينساها بإذن الله.

فالوضوء على سبيل المثال قد تم تناوله من خلال آية أو آيتين، وهذا في تقدير الله عَزَّوَجَلَّ مساحة كافية مناسبة لهذه العبادة مع ما سيتم شرحه لتفاصيلها في السنة، وكذلك المواريث قد تم تناولها في بضع آيات، ولم يتم تكرارها في أكثر من سورة كالمعاني التي أسلفنا ذكرها.

أما التعرف على الله الواحد أو الرب أو الملك أو الرقيب... فكل واحد منها يتم تناوله من خلال عشرات ومئات الآيات؛ وذلك لاحتياج المرء الدائم لدوام التذكرة بها.

هذه الأوزان النسبية للمعاني لم تأت عبثًا -حاشا لله- بل لعلمه سبحانه بأولويات احتياجات العبد، لذلك نجد في عدة مواضع من القرآن يتكرر قوله تعالى: ﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الواقعة: ٨٠].

فالرب الذي يربي عباده ويتعاهدهم بما يصلحهم أنزل لهم في القرآن ما يحتاجون إليه في رحلتهم إليه. وعندما هُجِر الانتفاع بالقرآن، وابتعد قدره وسلطانه في نفوس المسلمين كقيمة علمية وتربوية فذة، تم تغيير الأوزان النسبية للعلوم، وازداد الاهتمام بالأحكام العملية التي سُميت بعد ذلك (بالفقه)، وتم التوسع الشديد فيها وصُنفت الكتب التي تضع قواعده وتشرحها، وتضع لهذه الشروح الحواشي، والمختصرات، والتهذيبات.

وفي المقابل أُهملت المعاني الأخرى الهادية، ولم يتم وضعها في سلم أولويات طالب العلم بالترتيب والحجم الذي هي عليه في القرآن، فأدى هذا إلى مزيد من الابتعاد عن أخلاق القرآن وشموله وأولوياته.

نشأة علم الكلام وظهور الفِرَق

الله عَزَّوَجَلَّ ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ﴾ [الشورى: ١١].

ولقد أتاح لنا في القرآن الكثير من الآيات التي تعرفنا بقدره العظيم، وصفات جلاله وكماله، وأخبرنا بأن علينا الاستدلال عليه من خلال التفكر في أسمائه وصفاته وآثارها في الحياة، ونهانا عن التفكر في ذاته، واختبر استسلامنا لهذه الحقائق بالآيات التي تتحدث عن ذاته كقوله تعالى: ﴿يَدُ ٱللَّهِ فَوۡقَ أَيۡدِيهِمۡۚ﴾ [الفتح: ١٠].

وقوله: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ [طه: ٥].

وأخبرنا بأنه ينبغي علينا حين نمر على هذه الآيات أن نؤمن بها ولا نفكر في كنهها، وسُميت هذه الآيات بالمتشابهات: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۡهُ ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٞۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٞ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦۖ وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [آل عمران: ٧].

فالقرآن يُنشئ ويقوي ويُنمي في قلب صاحبه مهابة الله عَزَّوَجَلَّ وتقديسه وتنزيهه، ويجعله يمر على الآيات المتشابهة، دون التفكير في كُنهِها كما أمره ربه جل شأنه.

وعندما ضعفت قيمة القرآن تدريجيًا في نفوس المسلمين في القرون الأولى

-كما مر علينا- ظهرت بعض الطوائف التي تبحث في القضايا التي سكت عنها القرآن كالقدَر، وذات الله عَزَّوَجَلَّ، فاستثار ذلك الفعل عقول طوائف أخرى للرد عليها ونفي الشُبه التي أثاروها.

وتطور الأمر شيئًا فشيئًا، وظهر من يرى أننا مجبرون على أفعالنا، وظهر من يغالي في تنزيه الله حتى نفى عنه بعض الصفات، وتطور الأمر أكثر حتى تجمع أصحاب كل فكر تحت راية، ونشأت بذلك الفرق كالمعتزلة، والجبرية، والقدرية، وكان ذلك من أخطر الأمراض التي ابتليت بها الأمة كعقوبة للابتعاد عن القرآن.

واقترب المعتزلة من بعض حكام الدولة العباسية، وأقنعوهم بتبني آرائهم، ومنها أن القرآن مخلوق وليس كلام الله، فرفض الإمام أحمد بن حنبل هذه المقولة، وجاهر برفضه، فتم سجنه وتعذيبه، وعاشت الأمة سنين مظلمة تحت وطأة هذه الفتنة، التي ما كانت لتحدث لو كان القرآن في مكانه الطبيعي.

ظهور الصوفية

المسلم في حاجة دائمة لإصلاح قلبه وتزكية نفسه، ولا يوجد وسيلة تفعل ذلك مثل القرآن: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ﴾ [يونس: ٥٧].

فالقرآن الحكيم يزيد الإيمان ويزكي النفوس دون إفراط ولا تفريط: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبۡدِهِ ٱلۡكِتَٰبَ وَلَمۡ يَجۡعَل لَّهُۥ عِوَجَاۜ﴾ [الكهف: ١].

.. القرآن لا يدعو للعزلة وترك الناس، ولا يدعو للحركة فقط بالجسد مع إهمال تزكية النفس، فهو يشكل منهجًا تربويًا متوازنًا متفردًا لا يوجد له مثيل ولا بديل لكل من يريد التغيير المتكامل: ﴿تَنزِيلٞ مِّنۡ حَكِيمٍ حَمِيدٖ﴾ [فصلت: ٤٢]، ﴿أَلَا

﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤].

فنموذج المسلم الرباني المجاهد المتواضع الفاهم لدينه لا يمكن ظهوره بدون القرآن، كما كان الصحابة رضوان الله عليهم: «رهبانًا بالليل، فرسانًا بالنهار» وعندما حدث هجران تدريجي للقرآن الحكيم، احتاج المسلمون في العصور التالية لعصر الصحابة لما يمد قلوبهم بالإيمان ويزكي نفوسهم ويقاوم شهواتهم -بخاصة الخفية- من حب الذات والعلو على الآخرين.

وازداد الاحتياج لإصلاح القلوب وتزكية النفوس بعد الفتوحات الكثيرة واتساع رقعة الدولة الإسلامية وما صاحب ذلك من شيوع مظاهر الثراء والترف، مما ولَّد عند البعض رد فعل عكسي بالزهد في الدنيا وترك التنعم بها.

من هنا ظهرت فكرة الصوفية بصورة تدريجية والتي رفعت شعار (صفاء القلب).

ظهرت في البداية كفكرة منضبطة بأحكام الشرع، ثم تطورت تدريجيًا لتطرح منهجا تربويًا للأفراد من خلال الالتزام بأوراد مخصوصة، وخلوات، ورياضات، ووُضعت لها مناهج، وبدأت المخالفات الشرعية تظهر فيها؛ من مغالاة في حب الشيوخ والتعلق بهم، ورفعهم من الأتباع إلى درجة عالية تتنافى في بعض الأحيان مع معاني وآداب العبودية الخالصة لله عَزَّوَجَلَّ، وغيرها من المخالفات، وكذلك فإن غالب مناهج الصوفية ووسائلها لا تُعطي للجهاد في سبيل إعلاء كلمة الله وتبليغ دعوته مساحة معتبرة كما هو في الشرع.

لقد كان ظهور الصوفية نتيجة متوقعة لهجر القرآن، وذلك لشعور الكثيرين بالاحتياج إلى الإشباع الروحي والإيماني، ولقد تصدرت الصوفية لتملأ هذه المساحة الفارغة لكنها لم تملأها بصورة صحيحة دائمًا، بل كانت سلبياتها أكثر من

إيجابياتها، ومن هذه السلبيات ازدياد الشعور عند أبنائها بعدم الاحتياج للقرآن كمصدر متفرد لتحصيل العلم والإيمان، ويكفيك -أخي القارئ- تأكيدًا لهذا المعنى عندما تقرأ قول بعضهم: لو جازت الصلاة بغير القرآن لجازت بحِكَم ابن عطاء الله السكندري!! وإنا لله وإنا إليه راجعون، فهذا قول مردود على صاحبه، ويقف في وجهه ابن عطاء نفسه رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

تغيير مدلولات بعض المفاهيم القرآنية

.. كان من نتيجة الابتعاد عن القرآن كمصدر متفرد لتحصيل العلم والإيمان أن حدث توجه وانبهار نحو الثقافات الأخرى، ونشأة علم الكلام، وظهور فِرقه، وكذلك التوسع في الشرح والبيان للأحكام العملية التفصيلية أكثر من المعاني الهادية إلى صراط الله المستقيم كما أسلفنا، فأثمر ذلك بمرور الوقت تغيير مدلولات بعض المفاهيم القرآنية وابتعادها في أذهان الكثير عن حقيقتها كالفقه والعلم والتوحيد.

ولقد نبَّه الإمام أبو حامد الغزالي في كتابه (إحياء علوم الدين) على هذا الانحراف، فكان مما قاله (مختصرًا):

اللفظ الأول: الفقه

لقد كان اسم الفقه في العصر الأول يطلق على علم طريق الآخرة ومعرفة دقائق آفات النفوس، ومفسدات الأعمال، وقوة الإحاطة بحقارة الدنيا، وشدة التطلع إلى نعيم الآخرة، واستيلاء الخوف على القلب، ويدلك عليه قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لِّيَتَفَقَّهُواْ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٢]، فما يحصل به الإنذار والتخويف هو هذا الفقه، دون تفريعات الطلاق والعتاق

واللعان والسلم والإجارة[١]، فذلك لا يحصل به إنذار ولا تخويف، بل التجرد له على الدوام يُقسي القلب وينزع الخشية منه كما نشاهد الآن من المتجردين له، ولعمري إن الفقه والفهم في اللغة اسمان بمعنى واحد، قال تعالى: ﴿لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾ [الحشر: ١٣]، فأحال قلة خوفهم من الله واستعظامهم سطوة الخلق على قلة الفقه.

وسُئل سعد بن إبراهيم الزهري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أي أهل المدينة أفقه؟ فقال: أتقاهم لله تعالى، وروى عن أنس بن مالك رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قوله ليزيد الرقاشي وزياد النميري: لم تكن مجالس الذكر مثل مجالسكم هذه، يقص أحدكم وعظه على أصحابه، ويسرد الحديث سردًا، إنما كنا نقعد فنذكر الإيمان ونتدبر القرآن ونتفقه في الدين، ونعُد نعم الله علينا تفقهًا.

فسمَّى تدبرَ القرآن وعدَّ النعَم تفقُّهًا.

اللفظ الثاني: العلم

وقد كان يطلق ذلك على العلم بالله تعالى وبآياته وبأفعاله في عباده وخلقه، فتغير حتى صار يُطلق على من يشتغل بالمناظرة مع الخصوم في المسائل الفقهية وغيرها، فيقال: هو العالم على الحقيقة، وهو الفحل في العلم، ومن لا يمارس ذلك ولا يشتغل به يُعد من جملة الضعفاء، ولا يعدونه في زمرة أهل العلم.. مع أن ما ورد من فضائل العلم والعلماء أكثره في العلماء بالله تعالى، وبأحكامه، وبأفعاله وصفاته.

اللفظ الثالث: التوحيد

جوهر التوحيد أن تُرى الأمور كلها من الله، فيثمر ذلك: الرضا، والتوكل.. فنأخذ

---

(١) ليس معنى ذلك هو إهمال هذه المسائل؛ بل المقصد هو وضعها في مكانها المناسب في ترتيب الأولويات في الدين، واقتصارها على المتخصصين.

بالأسباب ونتوكل على الله في إنجاحها، ونرضى بالنتيجة، كما كان حاله ﷺ: يأخذ بالأسباب على أعلى مستوى في التخطيط والتنفيذ كما في رحلة الهجرة ومع كل هذه الدقة والإتقان كان التوكل التام على رب الأسباب: «**مَا ظَنُّكَ بِاثْنَيْنِ اللهُ ثَالِثُهُمَا؟**».

لكن هذا اللفظ العظيم (التوحيد) أصبح بعد ذلك متعلقًا بعلم الكلام ومعرفة طريق المجادلة والإحاطة بطرق مناقضات الخصوم، مع أن جميع ما يخص هذه الصناعة لم يكن يُعرف منها شيء في العصر الأول، بل كان يشتد منهم النكير على من كان يفتح بابًا من الجدل والمماراة، فلقد كان العلم بالقرآن هو العلم كله، وكان التوحيد عندهم عبارة عن أمر آخر لا يفهمه أكثر المتكلمين، وإن فهموه لم يتصفوا به، وهو أن يرى الأمور كلها من الله عَزَّوَجَلَّ رؤية تقطع التِفَاتهُ وتعلقه بالأسباب والوسائط[1].

... ومما استُدرجت به الأمة:

وضع منهجية لتلقي العلوم والترقي فيها

حدث في أواخر عهد الدولة الأموية البدء في كتابة السنة وتدوينها، وهذا أمر طيب وضروري، ولكن كان ذلك على حساب القرآن بسبب الاندفاع الشديد الذي صاحب هذا الأمر، لدرجة أن الإمام شعبة بن الحجاج كان يقول: اعلموا يا قوم أنكم كلما تقدمتم في الحديث تأخرتم من القرآن[2].

وبدأت تتفرع العلوم ويوضع لها أصول وقواعد، ويظهر لها شيوخ وتلاميذ، واستتبع ذلك وضع منهجية لتلقي العلوم، جعلوا في بدايتها حفظ ألفاظ القرآن،

---

(١) إحياء علوم الدين باختصار.

(٢) حلية الأولياء لأبي نعيم (٧/ ١٤٥).

فصار لزامًا على طالب العلم أن ينشط في حفظ ألفاظ القرآن في أسرع وقت حتى يتمكن من الترقي في طلب العلم، فنتج عن هذا كله مزيد من تأخير وتقليل قدر القرآن في النفوس.

ومما استدرجت به الأمة كذلك:

سادسًا: كثرة التصانيف في فضائل القرآن، وتضمينها أخبارًا لا تصح

مما أسهم بصورة سلبية على تعامل المسلمين مع القرآن قيام العلماء القدماء بكتابة كتب في فضائل القرآن، وتضمينها أخبارًا كثيرة عن تعامل بعض السلف مع القرآن بطريقة تتعارض مع ما قطعت به نصوص كثيرة في القرآن والسنة، بضرورة التفكر في القرآن والترسل في قراءته، فشكلت هذه الآثار متكأً يحتج بها الكثير من المسلمين في الإسراع في قراءة القرآن بفهم وبدون فهم، والإسراع كذلك في حفظ ألفاظه دون التفقه فيه والعمل به.

ومما تضمنته هذه الكتب، والتي -للأسف- صنفها علماء مشهود لهم بالصلاح كابن كثير والنووي، قولهم بأن الإمام الشافعي كان يختم القرآن ستين ختمة في رمضان!! وأن فلانًا من السلف كان يختم كل يوم ختمة بين الظهر والعصر، وأخرى بين المغرب والعشاء!! وأن فلانًا كان يختم كل ليلة أربع ختمات!!

بل نقل بعضهم أكثر من ذلك كمن كان يختم في الطواف عدة ختمات!! وأن الإمام أحمد بن حنبل رأى رب العزة في المنام فقال له الله تعالى: اقرأ القرآن بفهم وبدون فهم!! وغير ذلك من الأخبار التي لا تصح سندًا، وإن صحت فهي لا تُلزمنا لمخالفتها لمقاصد نزول القرآن، ونصوصه القاطعة بضرورة التفكر فيه والترسل في قراءته للانتفاع الحقيقي به، ويؤكده ما كان عليه الصحابة رضوان الله عليهم، والفصل في هذا القول هو تطبيق رسول الله ﷺ الذي أمرنا بالاقتداء به ولا حجة

لأحد يخالفه.

تقول السيدة عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا: «**كَانَ ﷺ لا يَقرَأ القُرآنَ في أقَل مِن ثَلاثٍ**»[١].

ومما يدعو للأسف أنك قلما تتصفح كتابًا قد صُنِّف في فضائل القرآن لا تجد فيه مثل هذه الأخبار، وكأنهم كانوا يجمعون في كتبهم كل ما قيل من آثار دون تمحيص لها، فأدى ذلك إلى وجود مبررات لدى الكثيرين للإسراع في قراءة القرآن لتحصيل الأجر والثواب فقط، وكذلك الإسراع في حفظ ألفاظه دون التفقه فيه والعمل به، وكانت تلك الآثار المخالفة للثوابت حُجتهم في ذلك.

سابعًا: مرحلة الاستشراق والغزو الفكري

بعد فشل الحملات الصليبية على العالم الإسلامي، وبعد فتح القسطنطينية، وإقامة الخلافة العثمانية؛ حدث زلزال في أوروبا فعقدوا المؤتمرات الطويلة التي تبحث عن كيفية وقف الزحف الإسلامي، وإسقاط دولة الإسلام، وكان من نتائج هذه المؤتمرات ضرورة دراسة الإسلام جيدًا حتى يتم التعرف على مكامن القوة فيه، فأرسلوا مئات بل آلاف الرجال إلى بلاد الإسلام في زي التجار وطلبة العلم، واختلطوا بالمسلمين، ونقلوا كل ما يمكن نقله من الكتب إلى أوربا، حيث تم العكوف عليها ودراستها، وخلصوا إلى نتائج خطيرة نتج عنها الحملة الفرنسية والإنجليزية وكذلك حملات التنصير، وأخطرها كان الغزو الفكري للأمة الذي يهدف إلى احتلال عقول أبنائها، واستبدال مفاهيم الإسلام بمفاهيم أخرى، وكان للقرآن النصيب الأكبر في هذا الغزو.

وفي هذا المعنى يقول صاحب الظلال رَحِمَهُ ٱللَّهُ وهو يتحدث في (ظلال القرآن) عما يحول بين المسلمين وبين الانتفاع بالقرآن:

---

(١) رواه ابن سعد في الطبقات (١/ ٣٧٦).

كما يحول بينهم وبين هذا القرآن كيد أربعة عشر قرنًا من الحقد اليهودي والصليبي؛ الذي لم يكُف لحظة واحدة عن حرب هذا الدين وكتابه القويم، وعن محاولة إلهاء أهله عنه، وإبعادهم عن توجيهه المباشر. بعدما علم اليهود والنصارى من تجاربهم الطويلة: ألا طاقة لهم بأهل هذا الدين ما ظلوا عاكفين على هذا الكتاب عكوف الجيل الأول لا عكوف التغني بآياته وحياتهم كلها بعيدة عن توجيهاته!.. هو كيد مطرد مصرٌّ لئيم خبيث.. ثمرته النهائية هذه الأوضاع التي يعيش فيها المسلمون(١).

ومما يؤكد هذا الأمر قراءة بعض أقوالهم حول قيمة القرآن وضرورة إبعاد المسلمين عن الانتفاع به، كقول جلادستون: ما دام هذا القرآن موجودًا، فلن تستطيع أوروبا السيطرة على الشرق، ولا أن تكون هي نفسها في أمان.. فقام رجل ومزق المصحف، فقال جلادستون: ما أردت تمزيق أوراقه.. إنما أردت تمزيق آياته من صدور المسلمين(٢).

ثامنًا: أخطاء في العصر الحديث

وقد سبق ذكرها في الاهتمام بالشكل دون الجوهر، وتحقيق مكاسب مادية من وراء حفظ القرآن كله أو بعضه، دون ربط ذلك بالالتزام بأوامره، والتوسع في استخدام الآلات الحديثة في بث آيات القرآن بالليل والنهار دون الإنصات لها.

وكذلك فإن ترك الكثير من المسلمين العمل من أجل نصرة الدين وإقامته في الأرض وما استتبع ذلك من ترك الجهاد في سبيل الله، لمن أهم الأسباب التي جلبت علينا الحرمان من فهم القرآن والاهتداء بهديه والاستشفاء بشفائه بإذن الله.

---

(١) في ظلال القرآن (٣/ ١٤٢١).

(٢) قادة الغرب يقولون: دمروا الإسلام أبيدوا أهله - لجلال العالم (ص: ٣١).

الفصل السابع

من أين نبــــدأ؟

من أين نبدأ؟

أخي المسلم.. أختي المسلمة

إننا في مصيبة.. كارثة.. لقد حُجِبت عنا روح القرآن وأثره المعجز، وفُتحت علينا ألفاظه.. حُجبت روحه وأثره فصرنا لا نقدر على تحصيل شيء منه.. لا نقدر على تحصيل الخشوع والإيمان والشفاء والتغيير.

وفي الوقت ذاته لا ندرك أننا محرومون، فالحجاب الذي حُجبت به روح القرآن: ﴿حِجَابًا مَّسْتُورًا﴾ [الإسراء: ٤٥].

ولعل من المناسب في هذا المقام أن نتذكر مثال القوم الذين ركبوا سفينة فتحطمت، وألقى بهم الموج على جزيرة بعيدة، فما لبثوا أن نفد الطعام منهم، وبدأوا في أكل ورق الشجر، وشيئًا فشيئًا طال بهم المقام على هذه الجزيرة حتى نشأ فيهم جيل لا يعرف طعامًا غير ورق الشجر... فمهما حدثهم آباؤهم الذين كانوا على السفينة عن ألوان الطعام التي يأكلها الناس خارج الجزيرة لا يشعرون بالخسارة والفقد؛ إذ لم يكن لديهم أي صورة ذهنية عما يتحدث عنه الآباء، ولا يتخيلون طعامًا آخر غير ورق الشجر.

استقرار الصورة الذهنية عن القرآن

وعلى هذا فقس حالنا مع القرآن، فبمرور الزمن وتعاقب الأجيال، استقر أمر القرآن في الأذهان على ما هو حادث الآن؛ ألفاظ نتفنن في خدمتها من خلال الاجتهاد في نطقها على أحسن ما يكون، والإكثار من قراءتها دون ربطها بالمعنى، وحفظها دون العمل بها، وقمنا بإسقاط كل ما ورد عن فضائل القرآن على أفعالنا معه، فنتج عن ذلك عدم شعورنا بالاحتياج إلى القرآن، وانطبق حالنا إلى حد كبير

مع قول عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «كيف أنتم إذا لبستكم فتنة يربو فيها الصغير، ويهرم فيها الكبير، وتُتخذ سُنة مبتدعة يجري عليها الناس، فإذا غُيِّرَ منها شيء قيل: قد غُيِّرت السُّنة، قيل: متى ذلك يا أبا عبد الرحمن؟ قال: إذا كثُر قرَّاؤكم، وقلَّ فقهاؤكم، وكثُر أُمراؤكم، وقلَّ أمناؤكم، والتُمِسَت الدنيا بعمل الآخرة، وتُفُقِّه لغير الدين»[1].

وماذا بعد؟

والآن، وبعد هذه الرحلة التي سرنا فيها مع صفحات هذا الكتاب، هل سيستمر تعاملنا مع القرآن على ما كان عليه أم سيتغير؟!

.. ألم يأن لنا أن نشمر عن سواعد الجد، ونعزم على خوض غمار رحلة العودة الحقيقية للقرآن، وإزاحة الحجاب المستور بيننا وبينه؟!

يقينًا -أخي القارئ- أن هناك من المسلمين من سيفعل ذلك، لأن الله عَزَّوَجَلَّ قد وعد بإتمام نوره: ﴿وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ﴾ [الصف: ٨].

﴿وَيَأۡبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ﴾ [التوبة: ٣٢].

وكيف يكون ذلك بدون عودة روح القرآن وأثره إلى قلوب الجيل الذي سيستعمله الله في إتمام نوره؟!

.. هذه واحدة، والثانية أن الرسول ﷺ الذي لا ينطق عن الهوى تنبأ بالمراحل التي تمر بها الأمة الإسلامية والتي تبدأ بالنبوة، ثم الخلافة الراشدة، ثم الملك العضوض، ثم الملك الجبري، ثم الخلافة على منهاج النبوة.. يقول ﷺ: «**تَكُونُ**

---

(١) رواه ابن أبي شيبة (٧/ ٤٥٢ برقم: ٣٧١٥٦)، والدارمي (١/ ٢٧٨ برقم: ١٩١)، والحاكم (٤/ ٥٦٠ برقم: ٨٥٧٠) وصححه ووافقه الذهبي، وابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله (١/ ٦٥٤ برقم: ١١٣٥)، واللفظ له.

النُّبُوَّةُ فِيكُمْ مَا شَاءَ اللهُ أَنْ تَكُونَ، ثُمَّ يَرْفَعُهَا إِذَا شَاءَ أَنْ يَرْفَعَهَا، ثُمَّ تَكُونُ خِلَافَةٌ عَلَى مِنْهَاجِ النُّبُوَّةِ فَتَكُونُ مَا شَاءَ اللهُ أَنْ تَكُونَ، ثُمَّ يَرْفَعُهَا إِذَا شَاءَ اللهُ أَنْ يَرْفَعَهَا، ثُمَّ تَكُونُ مُلْكًا عَاضًّا[١] فَيَكُونُ مَا شَاءَ اللهُ أَنْ يَكُونَ، ثُمَّ يَرْفَعُهَا إِذَا شَاءَ أَنْ يَرْفَعَهَا، ثُمَّ تَكُونُ مُلْكًا جَبْرِيَّةً فَتَكُونُ مَا شَاءَ اللهُ أَنْ تَكُونَ، ثُمَّ يَرْفَعُهَا إِذَا شَاءَ أَنْ يَرْفَعَهَا، ثُمَّ تَكُونُ خِلَافَةٌ عَلَى مِنْهَاجِ النُّبُوَّةِ، ثُمَّ سَكَتَ»[٢].

.. هذه المرحلة لا يمكن لها أن تظهر للوجود إلا إذا عادت روح القرآن إلى القلوب، لأن منهاج النبوة يعني السير على منهج النبوة من حيث التطبيق الكامل والشامل للإسلام في كل مناحي الحياة، ومن حيث صفات أفراد هذا الجيل، ومن حيث طبيعة المنهج الذي يلتفون حوله، والذي لم يكن -في عهد النبوة- سوى القرآن.

إن الناظر المتفحص لتاريخ الإسلام يجد أن الفترة المضيئة المتفردة، والتي حدثت فيها شبه مطابقة بين المنهج النظري وتطبيقه الواقعي هي فترة النبوة والخلافة الراشدة، حيث كان القرآن هو المصدر الأساس والمتفرد للتوجيه والتربية، وعندما حدث انحراف -والذي بدأ طفيفًا- في التعامل معه؛ حدثت الفجوة بين المنهج النظري وتطبيقه في الواقع، ثم اتسعت تلك الفجوة شيئًا فشيئًا بعد أن زاد انحراف الأمة في التعامل الصحيح مع القرآن حتى وصلنا لما نحن عليه الآن.

ومع هذا كله فإن هناك بشريات تشير إلى أن تلك النبوءة النبوية تقترب من التحقيق -بإذن الله- في هذا الزمان، وتحقيقها يستدعي عودة روح القرآن وأثره إلى القلوب ليظهر الجيل القرآني الذي يسير على منهج النبوة فيحقق الله به: خلافة على منهاج النبوة. فلماذا لا نكون نحن -أنا وأنت أخي القارئ- من هؤلاء؟!

---

(١) العاض: الظالم المتعسّف.

(٢) رواه الإمام أحمد في المسند (٣٠/ ٣٥٥ برقم: ١٨٤٠٦).

..نعم، سيحتاج الأمر إلى مجهود كبير، وتضحيات عظيمة، ولكن الجائزة التي وعد الله بها كبيرة كبيرة!

الخطوات اللازمة لرحلة العودة

قبل الحديث عن تلك الخطوات، فهناك نقطة محورية ينبغي أن تكون واضحة أمامنا حين نتحدث عن بداية رحلة العودة إلى القرآن وهي:

الدخول إلى القرآن من بابه الصحيح

لكي تتم لنا الاستفادة الحقيقية من القرآن ويكون دليلًا يهدينا إلى الله عَزَّوَجَلَّ، وسببًا يقربنا إليه ويصلنا به، ودواءً نستشفي به من أمراضنا، ومصدرًا متفردًا لزيادة الإيمان في قلوبنا، وجلاءً للهموم والغموم والأحزان ومنبعًا صافيًا لتحصيل العلم النافع.. لكي يتم لنا كل هذا وغيره.. لا بد من الدخول إليه من بابه الصحيح..

إن الباب الصحيح -الذي لا باب غيره- للانتفاع بالقرآن وتحقيق مراد الله بنزوله يستلزم الاعتقاد الجازم أنه المصدر المتفرد الذي لا مثيل له لتحصيل الهداية الشاملة الكاملة، والشفاء التام، والعلم النافع، والتغيير الجذري، وأن يتم التعامل معه بناء على هذا الاعتقاد، وهو ما تعبر عنه عبارة «**الإيمان قبل القرآن**».. أي: الإيمان بأن القرآن هو المصدر الوحيد للهداية الشاملة التامة وأنه لا يمكن تحصيلها بدونه..

.. والإيمان بأن القرآن هو الدواء الناجع المتفرد لشفاء القلب وعودته إلى صحته وفطرته..

.. والإيمان بأن القرآن هو المصدر الأسمى للعلم النافع المقرب إلى الله، والمورث لخشيته، وأنه لا يوجد مصدر آخر يضاهيه أو يقترب منه..

.. والإيمان بأن القرآن هو القادر -بإذن الله- على تغيير أي إنسان، ومن أي وضع سلبي هو فيه إلى الحال الذي يرضي الله عَزَّوَجَلَّ، فيلحقه بصفوف عباد الله الصالحين المصلحين..

.. علينا أن نستحضر هذا المعنى حين ندخل إلى القرآن.. فالغاية من نزول القرآن هي: تحصيل الهداية التامة والشفاء الكامل والتغيير الجذري.. فينبغي أن يكون منطلق علاقتنا بالقرآن مرتبطًا بهذه الغاية.. ويكون الهدف الأول من اللقاء معه تحصيل هدايته وشفائه وتقويمه: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩].

والدليل العملي على صحة هذا الإيمان وتلبسنا به هو مراقبة حالة الترقب واللهفة لتلاوة القرآن، والتعامل معه بنفسية الأمي الشغوف المستعد للتنازل عن تصوراته ومفاهيمه وما فيها من خطأ أو خلط واستسلامه لتصورات ومفاهيم القرآن، وكذلك مراقبة مدى استعداده للعمل بما علم من القرآن.

فإن اتفقت معي أخي الكريم على إغلاق كل الأبواب مع القرآن إلا الباب الوحيد الصحيح الذي سبق بيانه -بفضل الله- وعزمت على خوض رحلة العودة إلى القرآن وإزاحة الحجاب المستور الذي يحول بيننا وبين روحه وأثره؛ فاعلم أن علينا القيام بعدة أعمال مجتمعة، أسردها لك بإجمال ثم تفصيل يسير لكل منها بعون الله:

أولاً: إذكاء الشعور بالخطر والمسؤولية التضامنية تجاه ما فعله المسلمون مع القرآن.

ثانيًا : التوبة الصادقة المنطلقة من الشعور بالندم تجاه ما فعلناه من أخطاء مع القرآن.

ثالثًا : الإقلاع عن كل الممارسات الخاطئة تجاه القرآن.

رابعًا: التضرع المتواصل لله عَزَّوَجَلَّ بأن يعيد إلينا روح القرآن وأثره.

خامسًا: حسم أمر الأسئلة والشبهات التي تُضعف العزم نحو العودة الحقيقية إلى القرآن.

سادسًا: التحضير الجيد للقاء مع القرآن.

سابعًا: الإنصات التام أثناء التلاوة

ثامنًا: طول المكث مع القرآن.

تاسعًا: العمل على زيادة الثقة بالقرآن.

عاشرًا: عقد مجالس للمدارسات القرآنية، واستخلاص التكاليف العملية بعد كل مجلس.

حادي عشر: الدعوة إلى الانتفاع بالقرآن.

أولاً: إذكاء الشعور بالخطر والمسؤولية التضامنية تجاه ما فعله المسلمون مع القرآن.

أول وأهم خطوة ينبغي أن نخطوها في رحلة العودة واستجلاب روح القرآن المحجوبة عن قلوبنا؛ هي إذكاء الشعور الشديد بالخطر تجاه تقصيرنا في حق القرآن، والجرائم التي ارتكبناها معه...

وكيف لا؟ والشعور بالخطر هو وقود العزائم!

ولعل قراءة ما قيل في الصفحات الماضية يستثير هذا الشعور؛ ومع أهمية ذلك إلا أنه لا يكفي للوصول لحالة التشمير اللازمة لخوض رحلة العودة؛ لذلك نحتاج -مع هذه القراءة- إلى أن نجلس مع أنفسنا جلسات طويلة نحصر فيها جميع الممارسات الخاطئة مع القرآن على مستوانا الفردي والأُسري والمجتمعي، ونقوم بتدوين ذلك.

وعلينا أن نجتهد ونحن نمارس هذا الإحصاء في استحضار قدر القرآن العظيم عند الله عَزَّوَجَلَّ، وأنه سبحانه اختص به أمة الإسلام، ونستحضر كذلك الوعيد المذكور في القرآن والسنة لمن أعرض وغفل عنه، ولم ينتفع به فيما نزل من أجله.

وعلينا كذلك أن نذكر أنفسنا بما قيل في الصفحات السابقة عن أخطائنا مع القرآن، ثم نجتهد في إسقاطها على واقعنا، فنكتب بالتفصيل الشديد ما نقع فيه من أخطاء؛ سواء كانت تلك الأخطاء مما يقع فيه الواحد منا، أو تقع من أي فرد من

أفراد الأمة، باعتبار أن الله عَزَّوَجَلَّ ينظر إلينا كأمة واحدة وجسد واحد(١).

---

(١) إليك أخي القارئ مثالًا مفصلًا لهذه الممارسات، لك -إن شئت- أن تحتذي به، ثم تقوم باستكمال ما لم يُذكر فيه:

- القراءة في الأسواق.
- القراءة في أماكن اللغو ووسائل المواصلات المزدحمة.
- كتابة آيات على الحوانيت تربط بينها وبين نشاط الحانوت.
- النوم على صوت قارئ القرآن دون إنصات.
- تركه يبث من الراديو ليخاطب جدران المنزل أو السيارة
- القراءة والشخص مرهق ويغلبه النعاس.
- القراءة بلا ترتيل.
- الخلط بين القراءات.
- التنطع في التجويد.
- كتابة الآيات على الحوائط والأسوار.
- وصل الآيات ببعضها وعدم الالتزام بالسنة في الوقوف على رأس الآية.
- الحفظ السريع دون فهم.
- المراجعة السريعة دون فهم.
- عمل مسابقات في المتشابهات.
- ضرب الأولاد على عدم حفظه.
- عمل معسكرات للحفظ السريع لألفاظ القرآن دون فهم أو تطبيق.
- تصغير المصحف جدًا.
- طباعة ملابس عليها آيات قرآنية.
- وضع المصحف بالسيارة دون القراءة فيه.
- تشغيل القرآن في الفضائيات على خلفية مواد إعلانية غير منضبطة.
- إيذاء الناس ببث آياته من الآلات الحديثة بصوت عال.
- إدخال الآيات القرآنية في الأغاني والقصائد الشعرية.
- بداية الأفراح والمناسبات بالقرآن ثم الأغاني.
- استخدامه مادة للهزار والمزاح.

ثانيًا: التوبة الصادقة إلى الله المنطلقة من الشعور بالندم تجاه أخطائنا مع القرآن

علينا أن نجتهد بغاية وسعنا في التوبة إلى الله عَزَّوَجَلَّ عما فعلناه مع القرآن من امتهان وعدم تقدير، وأن نداوم على الاعتذار له سبحانه عن أنفسنا أولًا وعن الأمة ثانيًا، وأن نبالغ في إظهار ذلك، شريطة أن يكون منطلقًا من حالة شعورية يسيطر عليها الندم والحياء من الله عَزَّوَجَلَّ.. ومع أهمية التوبة الفردية، إلا أن التوبة الجماعية لها دور عظيم كذلك في رفع العذاب وتجنب غضب الله عَزَّوَجَلَّ كما حدث مع قوم يونس(١).

فإن قلت: ولكني قد لا أشعر بالندم الذي تتحدث عنه والذي من شأنه أن يستبد بالقلب ويهيمن عليه، فماذا أفعل؟!

اعلم أخي بأن أهم شرط للتوبة هو الندم الشديد، وكلما استبد الندم بالقلب واعتصره كان الرجاء في قبول الله عَزَّوَجَلَّ للتوبة أشد، ومن أهم الوسائل التي تستثير الندم نحو ما فعلناه مع القرآن: الاجتهاد في إحصاء الأخطاء التي وقعنا فيها على المستوى الفردي والمجتمعي.

---

(١) قال الحافظ ابن كثير في تفسير قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [يونس: ٩٨] (٢/ ٣٩٣): قال قتادة: لم ينفع قرية كفرت ثم آمنت حين حضرها العذاب فتركت إلا قوم يونس لما فقدوا نبيهم وظنّوا أن العذاب قد دنا منهم قذف الله في قلوبهم التوبة، ولبسوا المسوح، وفرقوا بين كل بهيمة وولدها، وعجوا إلى الله أربعين ليلة، فلما عرف الله منهم الصدق من قلوبهم، والتوبة والندامة على ما مضى منهم؛ كشف الله عنهم العذاب بعد أن تدلى عليهم.

.. نعم، الأخطاء كثيرة كثيرة، فما من لحظة تمر إلا والممارسات الخاطئة مع القرآن تتزايد وتتزايد من امتهان واستهزاء وغفلة وعدم هيبة أو تقدير في شتى بقاع الأرض، ولكن علينا الاجتهاد في إحصائها ليشتد ندمنا وشعورنا بالخطر.

ثالثًا: الإقلاع عن كل الممارسات الخاطئة مع القرآن على المستوى الفردي والجماعي

علينا أن نحدد مما سبق إحصاؤه من الممارسات الخاطئة ما نقع فيه نحن كأفراد، ونعزم على الإقلاع عنها، ونستعين بالله على ذلك، ونبدأ بالتطبيق الفوري لهذا العزم.

مع ضرورة التنبيه بأن علينا تنفيذ هذه الخطوة على أنفسنا، ومن لنا عليه سلطان فقط، كالزوجة والأبناء، ولا نقوم بها مع الآخرين ولو كانوا الأبوين أو الأشقاء..

لا ينبغي عليك أخي القارئ أن تُزيل وتنزع اللوحات التي تحمل آيات قرآنية من بيت أبويك أو أقاربك أو..، ولا ينبغي عليك أن تفعل ذلك مع بقية الممارسات الخاطئة، بل عليك -إذا ما سنحت الفرصة- أن توضح لهم الأمر بهدوء وحكمة، فإن قبلوا أن يقوموا هم بذلك فبها ونعمت، وإن لم يقبلوا فقد أعذرت إلى الله، وتذكر قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ [النساء: ٩٤].

وليس معنى عدم قيامك بوقف الممارسات الخاطئة مع من ليس لك عليه سلطان ألّا تُنكر ذلك بقلبك!! بل عليك أن تُري الله من قلبك إنكارًا وضيقًا لهذه الأفعال، لعل ذلك يكون سببًا في استجلاب رحمته، وفتح القلوب لروح القرآن وتأثيره.

ماذا نفعل مع الكتب؟!

كما قيل سابقًا؛ فإننا نريد أن نُعيد للقرآن مهابته وقدره في قلوبنا، وأن نجعله -بعون الله- يحتل المرتبة الأولى في الاهتمام والتقدير بين الكتب الأخرى، وعلامة النجاح في تحقيق هذا الهدف هو التوجه التلقائي للعقول والقلوب إلى القرآن عند إرادة البحث في أي موضوع يتعلق تعلقًا مباشرًا بمعاني الإسلام، وأن يكون التوجه للكتب تابعًا لذلك إن كانت هناك حاجة كإزالة التباس أو التعرف على فهم الآخرين، أو التوسع في التعرف على الموضوع.

ومن المعلوم أن هذا الأمر لن يحدث بين عشية وضحاها، بل سيحتاج إلى وقت ومجهود.. فإلى أن يحدث ذلك بصورة تلقائية علينا أن نُلزم أنفسنا به، فعلى سبيل المثال: عند إرادة التعرف على معنى من المعاني كالصدق أو الجهاد أو الإنفاق أو حقيقة العبودية لله أو التقوى أو التوكل أو الإخلاص أو خطورة الغرور والكبر... إلخ. علينا أن نتوجه للقرآن فنبحث فيه ونستخرج منه الآيات التي تتحدث عن المعنى المطلوب، وذلك من خلال تخصيص ختمة كاملة لذلك -مثلًا- أو الجلوس مع الأصدقاء وطرح الموضوع عليهم والتفكير الجماعي فيه، وتسجيل الآيات التي يستخرجونها، أو من خلال البحث عن الكلمات التي تخدم المعنى في المعجم المفهرس لألفاظ القرآن واستخراج الآيات من خلاله، وبعد ذلك نقوم بوضع العناصر المناسبة للموضوع من خلال الآيات، وشرح تلك العناصر بالآيات كذلك، وكلما تفكرنا أكثر في الآيات فإننا بعون الله سنجد الكثير والكثير.

وبعد أن ننتهي من استخراج الآيات التي تخدم المعنى وتشرحه من القرآن، يمكننا الانتقال للسنة واستخراج الأحاديث الدالة على المعنى وإلحاقها بالآيات في مواضعها.

فإذا شعرنا أن الموضوع لم يكتمل بعد، وأنه بحاجة إلى بعض التفصيل فلا بأس من النظر في الكتابات التي تتحدث عنه.

فإن قلت: ولكن هناك مواضيع من الصعب الحصول عليها من القرآن كالأحكام الشرعية، والمعاملات المعاصرة.

بخصوص الأحكام الشرعية فإنها لا تُشكل أكثر من عُشر آيات القرآن، وعلينا أن نتعامل معها بحذر شديد، وألا نستخرج منها أحكاماً نطبقها في حياتنا دون الرجوع إلى العلماء والفقهاء في ذلك، فهذه منطقة محظورة -إن جاز التعبير- على العوام من أمثالنا، ولا مانع من التعرف على المعاني التي تحملها والتفكر في جوانبها الإيمانية والتربوية.

وبخصوص المعاملات المعاصرة فإنه ينطبق عليها ما ينطبق على الأحكام الفقهية.

مع الأخذ في الاعتبار أن الحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها فهو أحق الناس بها.

ماذا نفعل مع المُقَرر من الحفظ في المدارس والكليات الدينية؟

هذه المسألة من أخطر المسائل في أمر التعامل مع القرآن، ووقف الممارسات الخاطئة معه؛ لأن هذا الأمر ليس باختيار الأفراد، فالقدر المقرر حفظه على طلبة المدارس والكليات الدينية كبير للدرجة التي يصعب معها حفظ الألفاظ والتعرف على معانيها، والعمل مدة من الزمن بمقتضاها.. فما الحل في هذه الإشكالية؟

الحل المثالي أن ينتبه القائمون على هذه المدارس بخطورة إلزام الطلاب

بحفظ كم كبير من الآيات في مدة قصيرة، لأن ذلك من شأنه أن يرسم القرآن في أذهانهم ألفاظًا بلا معنى ولا دلالة، وأنه كذلك يستدعي العقوبة الإلهية بمزيد من الحرمان من القرآن.

وإلى أن يحدث ذلك؛ فالواجب يُحتم علينا أن نفكر في كيفية التعامل مع هذا الأمر، وأن نجتهد في الإلحاح على الله بأن يلهمنا الرشد والصواب والسداد في الخروج الصحيح من هذه الأزمة.

ويمكن تقسيم هذه المدارس إلى قسمين

فهناك قسم من المدارس والكليات يُلزم الطلاب بحفظ جزء أو جزأين من أجزاء القرآن الثلاثين على مدار العام.. هذا الكم يمكن تقسيمه على أسابيع العام، وأن يكون نصيب الأسبوع عدة آيات (من خمس إلى عشر آيات) ويتم قراءتها بتأن، والبحث عن معانيها وما تدل عليه من عمل، والاجتهاد في القيام به قدر المستطاع طيلة الأسبوع قبل الانتقال إلى الآيات الأُخر.

وعلى الأب والأم أن يتولى هذا الأمر بنفسه، أو يُحضر من وضحت لديه الرؤية حول حقيقة القرآن فيقوم بذلك مع الأبناء.

أما القسم الثاني الذي يتم فيه إلزام الطلاب بعدة أجزاء في السنة الواحدة، فلا أدري ماذا نفعل معه!!

هل يقوم الطالب بحفظ ما يستطيع حفظه بالطريقة الصحيحة السابقة ويترك الباقي؟! لا أدري!!

ماذا نفعل بأنفسنا؟!

أما بخصوص عموم المسلمين فمن الضروري أن يكون في جوف الواحد منا بعض سور القرآن للصلاة والدعوة بها، وقراءتها عند الحاجة في الأماكن التي لا تتوافر فيها مصاحف. ويُنصح بالبدء بسور الجزء الأخير من القرآن، وأن يكون ذلك مرتبطًا بالمعاني الإيمانية والقيام بالأعمال التي تدل عليها السورة.

رابعًا: دوام التضرع إلى الله عزوجل بأن يعيد لقلوبنا روح القرآن وأثره

أخي:

إن الواقع المشاهد الذي نحياه يخبرنا بأن الله عَزَّوَجَلَّ قد غضب لكتابه، فحجب روحه وتأثيره عن قلوبنا، لذلك علينا مع التوبة وبعدها أن نلح عليه سبحانه ونناشده، ونتضرع إليه كي يزيل هذا الحجاب المستور الذي يحول بين قلوبنا وبين روح القرآن.

والتضرع حالة تنتفض فيها الأعضاء نتيجة التفاعل الشديد للمشاعر مع الدعاء، فعلينا -إذن- أن نتضرع ونتضرع إلى الله في كل الأوقات، وبخاصة في الثلث الأخير من الليل وفي السجود وبين الأذان والإقامة ويوم الجمعة،... إلخ.

وعلى قدر شعورنا بالاحتياج لروح القرآن ستكون قوة التضرع بإذن الله.

خامسًا: حسم أمر الأسئلة والشبهات التي تُثار حول التعامل مع القرآن والتي من شأنها أن تُضعف العزم نحو السير في طريق عودة روحه وأثره إلى القلوب

إن ابتعاد الأمة عن القرآن لم يكن وليد هذا العصر، ولكن كان ذلك نتاج قرون خلت، ولقد ورثنا أعرافًا، وأفكارًا عن التعامل مع القرآن تحتاج إلى تصحيح ومراجعة وضبط، ولو تركناها دون حسم في نفوسنا فمن شأنها أن تُضعف عزم البعض عندما يتعرض لها من بعض المجادلين له.

ولقد تضمنت صفحات هذا الكتاب الرد على بعض هذه الأمور، ولكن هناك مسائل كثيرة لم يتم الرد عليها، وتحتاج إلى حسم ووضوح رؤية، حتى لا يُفاجأ بها أحدنا وهو في رحلة العودة فتُضعف عزمه، وتُوهن إرادته في المُضي قُدما للأمام.

وإليك أخي القارئ بعضًا من هذه التساؤلات والشبهات:

- كيف تقرأ القرآن وأنت لا تعرف قواعد اللغة العربية ولا أساليبها؟!
- التفكُّر في القرآن خاص بالعلماء فقط.
- من قال في القرآن برأيه فليتبوَّأ مقعدَه من النار؛ فإياك أن تستخرج خواطر من القرآن.
- لا تقترب من القرآن لأن قلبك مليء بالأمراض.
- لماذا لا نفعل مثل بعض السلف فنخصص قراءتين للقرآن: قراءة سريعة للثواب، وقراءة هادئة للتفكر؟!

- أريد أن أدخل الجنة.. أريد أكبر قدر من الحسنات، فلماذا لا أُكثر من قراءة القرآن بدون تفكر.
- ورد أن الشافعي كان يختم في رمضان ستين ختمة، فلماذا لا نفعل مثله؟
- هل تعلُّم وتعليم أحكام القرآن فقط هو المقصود بقول الرسول ﷺ : «**خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَهُ**»[1].
- لماذا يتأثر الأعاجم بالقرآن وهم لا يفهمونه؟!
- الحافظ للقرآن يُقدَّم للإمامة وغيرها، فلماذا لا نحرص على الحفظ؟
- لماذا لا نُحفِّظ أولادنا القرآن ألفاظًا فقط ثم نعلمهم معانيه عندما يكبرون؟!
- أجد وجوه الحُفَّاظ سَمْحة، يكسوها النور، وفي حياتهم بركة، وهم قد بدءوا بحفظه ألفاظًا فقط، أليس هذا دليلًا على أهمية الحفظ؟!
- أضطر للقراءة السريعة والمراجعة خوفًا من التعرض لعقوبة النسيان.
- هل القراءة في شهر رمضان مستثناة من التفكر؟ فرمضان موسم لمضاعفة الحسنات.
- أضطر للقراءة السريعة في نهاية الشهر كي أستطيع ختم القرآن مع انتهاء الشهر.
- الخوف من التلقي المباشر من القرآن.
- يوم القيامة يكون التفاضل والترقي في الجنة بمقدار الحفظ.

---

(١) رواه البخاري (٦/ ١٩٢ برقم: ٥٠٢٧).

وغير ذلك من الأسئلة التي قد ترد للبعض، أو يواجهه بها غيره فتزعزع ثقته فيما قيل، لذلك عليك أخي القارئ أن تقرأ صفحات هذا الكتاب أكثر من مرة، فهي بإذن الله قد تكون كفيلة بالرد على هذه التساؤلات؛ لأننا نحسب -والله أعلم- أنها تطرح الموضوع من أصله، وعليك بالعودة إلى بعض الكتب التي أكرم الله كاتب هذه السطور بكتابتها عن القرآن وكيفية التعامل الصحيح معه والانتفاع به، فستجد فيها -بإذن الله- الرد على غالبية هذه الأسئلة... ومن هذه الكتب:

- **«العودة إلى القرآن»**
- **«إنه القرآن سر نهضتنا»**
- **«تحقيق الوصال بين القلب والقرآن»**
- **«الطريق الوحيد»**(١).

---

(١) هذه الكتب متاحة -بفضل الله- على الموقع الإلكتروني «الإيمان أولًا» www.alemanawalan.com ما عدا كتاب «الطريق الوحيد» سيكون متاحًا قريبًا بإذن الله.

سادسًا: التحضير الجيد للقاء مع القرآن

علينا أن نستعد جيدًا للقاء مع القرآن، وذلك بأن نتخير أفضل أوقات اليوم جاهزية من حيث سكون النفس، وعدم الشعور بالإجهاد، وعدم تشتت الذهن..

وعلينا باختيار وتجهيز مكان هادئ لهذا اللقاء، وأن نذهب إليه ونحن على وضوء، ونقوم بغلق الهاتف المحمول.

وعلينا أن نتصدق ولو بالقليل قبل بدء اللقاء.

وحبذا لو قرأنا بعض الآيات أو الأحاديث أو الكلمات التي تتحدث عن قدر القرآن وعظمته وحكمته الباهرة وتأثيره الفذ..

وقبل الشروع في القراءة علينا أن نتضرع إلى الله بأن يزيل الحجاب بين روح القرآن وقلوبنا، وأن يسمح لأنواره أن تغزو كياننا، وأن يفهمنا ويعلمنا من خلال القرآن ما لم نكن نعلم.

.. ومن صور الإعداد الجيد للقاء القرآني كذلك: تجهيز أسئلة مُسبقة.

ومما يؤكد هذا المعنى قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ﴾ [يوسف: ٧].

فالسائل عن سنن الله في الدعوات، وعن طبيعة الطريق، وعن أساليب الشيطان، وعن فقه الدعوة، وعن الصبر، وعن الربانية، وغير ذلك، سيجد إجابات لأسئلته في قصة يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وإخوته.

ولعل هذا الأمر سيكون سهلًا -بإذن الله- وغير متكلف بعد أن نُلزم أنفسنا بالتوجه نحو القرآن أولًا قبل الكتب عند إرادة البحث عن موضوع (ما)، فهذه الطريقة ستجعل أذهاننا تفكر دومًا في آيات القرآن ومواضع الإجابة عن الأسئلة فيها، مع الأخذ في الاعتبار أن تكون الأسئلة في العلم النافع الذي ينفعنا في رحلتنا إلى الله عَزَّوَجَلَّ، كما يقول ابن تيمية: من تدبر القرآن طالبًا الهدى منه تبين له الحق[1].

وأنفع أسئلة تلك التي يشعر المرء باحتياجه إليها، سواء كان ذلك في حقائق الإيمان، أو تزكية النفس، أو في الحركة والجهاد في سبيل الله، أو غير ذلك.

(١) العقيدة الواسطية لابن تيمية نقلًا عن تدبر القرآن للسنيدي (ص: ١١١، ١١٢).

سابعًا: الإنصات التام أثناء التلاوة

أيضًا هناك وسيلة في غاية الأهمية لا بد أن تصاحبنا أثناء تلاوتنا للقرآن، وهي الإنصات التام -قدر المستطاع- لما نقرأ أو نسمع من الآيات..

فما هو المقصود بالإنصات؟

الإنصات هو أعلى درجات تركيز المرء مع الصوت، سواء أكان هذا الصوت يأتيه من مصدر خارجي، أم كان يردده بلسانه، أم يقرؤه بعينه.

فقد يحدث أن يسمع الشخص كلامًا وهو شارد الذهن يفكر في موضوع (ما)؛ مما يجعله لا يستمع لما يتلقاه بالكلية ولا يفهم المراد من الكلام.

وقد يحدث أن يسمع كلامًا وهو يريد سماعه لكنه ليس بصافي الذهن، فهو هنا يستمع للكلام ويعرف محتواه، ولكنه غير مستغرق معه، كأن يفكر في موضوع آخر في الوقت ذاته، أو يستمع إلى كلام آخر، أو يناجي من حوله، كقوله تعالى:

﴿إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ﴾ [الإسراء: ٤٧].

فإذا ما شعر المرء بأهمية ما يسمع أو يقرأ، وكان الكلام مما تشتد حاجته إليه:... تجده يُصغي سمعه وينصت، فينتقل من مرحلة الاستماع إلى مرحلة الإنصات والإصغاء؛ حيث التركيز التام لما يتلقى لدرجة الاستغراق والتوحد مع ما يتلقاه.

وهذا الصنف الثالث هو الذي حثنا الله جل شأنه على الاتصاف بحالهم عند التعامل مع القرآن العظيم، سواء أتلوناه بألسنتنا أم استمعنا إليه من غيرنا: ﴿ وَإِذَا

قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾ ﴾ [الأعراف: ٢٠٤].

ويقص علينا القرآن المجيد قصة الجن حين استمعوا القرآن للمرة الأولى، فقد أدركوا أهميته القصوى، وحاجتهم الماسة إليه فماذا قالوا؟! ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ ۖ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ﴾ [الأحقاف: ٢٩].

فحري بنا أن نفعل مثل ما فعلوا حتى ننتفع بالقرآن: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٧].

ثامنًا: طول المكث مع القرآن

بعد أن أكرمنا الله عَزَّوَجَلَّ بالإعداد الجيد للقاء القرآني علينا أن نُعد أنفسنا لطول المُكث معه.

- وأن نتوضأ ونستاك.
- ونستعيذ بالله من الشيطان.
- وأن نقرأ من المصحف، وبترتيل وصوت مسموع.
- وأن نقرأه بحزن قدر المستطاع.
- وأن نجتهد في إشعار أنفسنا بأن الله عَزَّوَجَلَّ يخاطبنا من خلال القرآن.
- وأن نُعمل عقولنا في فهم الآيات -ولو بصورة إجمالية- وأن نتفكر فيها.
- ونقوم بالأعمال التي يُمكن أن تُؤدى في هذا الوقت، فعندما نجد الآيات تتحدث عن عظمة الله وقدرته وعلمه؛ فعلينا بالتسبيح، وعندما نجد الآيات تتحدث عن النار فعلينا أن نتفكر فيها ونستعيذ بالله منها، وعند الجنة نستبشر ونسأل الله دخولها برحمته، وعندما نجد سؤالًا نُجيب عليه، وهكذا.
- وحبذا لو كررنا الآية أو الآيات التي نتفاعل معها ونتأثر بها.

فإن قلت: وهل هناك حد أدنى للقاء مع القرآن؟

الإجابة؛ أنه كلما طالت المدة كان أفضل، ولكن إن لم يتيسر ذلك، وكان المتاح أوقاتًا متقطعة كنصف الساعة مثلًا، فلا بأس من ذلك، على أن يكرر اللقاء أكثر من مرة خلال اليوم، فمن المتوقع أنه في كل مرة سيكون لنا -بإذن الله- حال مختلفة ندخل به على القرآن ونجد فيه ما يتجاوب مع هذه الحال.

تاسعًا: العمل على زيادة الثقة بالقرآن

إن أهم إشكالية نعاني منها هي ضعف الثقة في القرآن، فالقرآن أصبح في قلوبنا كالثوب البالي الذي لا يؤبه له، لذلك فإن من أهم وسائل العودة إلى القرآن، إعادة بناء الثقة فيه شيئًا فشيئًا...

ومن الوسائل المعينة على ذلك

البحث في القرآن ذاته عن قدر القرآن وعظمته، وعن تأثيره، وعن صفاته، ثم ننتقل إلى السنة وأقوال الصحابة والسلف.

وهناك بعض الكتابات التي يُمكن النظر فيها على سبيل التكميل والاستئناس، فالقرآن -بإذن الله- يكفي ليكون وسيلة ناجعة لبناء الثقة فيه، وأنصح نفسي وإخواني بأن يكون النظر في الكتب أمرًا ثانويًا قدر المستطاع.

مع ضرورة الانتباه إلى ما قد تحويه هذه الكتب من كلمات قد توهن العزم، وتُضعف الإرادة من خلال طرحها بعض أقوال السابقين عن كثرة القراءة بفهم وبغير فهم، وعن الحفظ السريع بالطريقة السائدة الآن، والتي تم بفضل الله بيان ما عليها من ملاحظات، فلينتبه القارئ لهذا الأمر حتى لا يظن أننا نشجع على كل ما في هذه الكتب من حفظ سريع أو قراءة سريعة.

ولنجعل الضابط الذي يضبط كلام هذه الكتب هو ما تضمنه القرآن عن القرآن، وما تضمنته السنة وأقوال وأفعال الصحابة رضوان الله عليهم[١].

(١) من هذه الكتب التي يمكنها -بإذن الله- أن تُرشد القارئ -بعد القرآن والسنة- إلى طريق بناء الثقة في القرآن:

- «أخلاق حملة القرآن» للآجري.
- «فهم القرآن للحارث بن أسد المحاسبي».
- «الإعجاز التأثيري في القرآن» لمصطفى السعيد.
- «هكذا عاشوا مع القرآن» لأسماء الرويشد
- «روح الأمة» للشاهد البوشيخي.
- «كيف نتعامل مع القرآن» لمحمد الغزالي.
- «التأثر بالقرآن» لبدر ناصر البدر.
- «الاستغناء بالقرآن في طلب العلم والإيمان» لابن رجب الحنبلي.
- تفسير الآيات التي تتحدث عن القرآن من تفسير «في ظلال القرآن».
- «منهج السلف في التعامل مع القرآن» لبدر ناصر البدر.
- «جيل قرآني فريد» من كتاب «معالم في الطريق».
- «فضائل القرآن» لأبي عبيد الهروي.
- «فضائل القرآن» للمستغفري.
- «فضائل القرآن» للفريابي.
- «قاعدة في فضائل القرآن» لابن تيمية.
- «مجالس القرآن» لفريد الأنصاري.
- «مقدمة في ظلال القرآن».
- «بلاغ الرسالة القرآنية» لفريد الأنصاري.

عاشرًا: عقد مجالس للمدارسات القرآنية واستخلاص التكاليف العملية بعد كل مجلس[١]

من الوسائل المعينة -بإذن الله- على إعادة الثقة في القرآن وعودة روحه إلى قلوبنا: تعلم آياته واستخراج ما فيها من علم وإيمان، وما تدل عليه من عمل، وهذا أمر غاية في الأهمية، وكان يحدث بين الصحابة، ووردت السنة بندبه كما قال رسول الله ﷺ: «**وَمَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ فِي بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ اللهِ يَتْلُونَ كِتَابَ اللهِ، وَيَتَدَارَسُونَهُ بَيْنَهُمْ إِلَّا نَزَلَتْ عَلَيْهِمُ السَّكِينَةُ، وَغَشِيَتْهُمُ الرَّحْمَةُ، وَحَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ، وَذَكَرَهُمُ اللهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ**»[٢].

ويمكن أن تتم هذه المدارسات مرة كل أسبوع -مثلًا- وأن يتم فيها مدارسة عدد قليل من الآيات، ويُفضّل البدء بمدارسة الجزء الأخير.

وهناك طريقة أخرى للمدارسة، وهي مدارسة مقاطع قرآنية تتناول مواضيع محددة لها علاقة بواقع الأفراد، كمدارسة آيات من سورة الأنفال تتناول غزوة بدر وما فيها من مواقف إيمانية تربوية، وكذلك غزوة أحد من خلال سورة آل عمران، والأحزاب من خلال سورة الأحزاب، وبني النضير من خلال سورة الحشر، وصلح الحديبية من خلال سورة الفتح...

---

(١) من المناسب أن يكون العمل على عودة هيبة القرآن إلى قلوبنا ليصبح قولًا ثقيلًا أولوية بالنسبة لنا في بداية رحلة العودة إلى القرآن، ويسبق هذه الوسيلة.

(٢) رواه مسلم (٤/ ٢٠٧٤ برقم: ٢٦٩٩).

حادي عشر: الدعوة إلى الانتفاع بالقرآن

أخي القارئ: ما من لحظة تمر علينا إلا ويحدث فيها آلاف الممارسات الخاطئة مع القرآن في مشارق الأرض ومغاربها، لذلك ليس بمستغرب تلك العقوبة التي نُعاقَب بها بالحجاب المستور بين قلوبنا وبين روح القرآن وتأثيره.

من هنا ندرك حجم المسئولية الملقاة على عاتق كل من بدأ رحلة العودة إلى القرآن، فالله عَزَّوَجَلَّ عندما أراه بفضله هذا الأمر، فإنه سبحانه يريد منه أن يبذل غاية جهده مع نفسه أولًا لكي يزيل أسباب وجود الحجاب المستور والطبع فتعود روح القرآن إلى قلبه، ويريد منه كذلك أن يبذل غاية جهده في دلالة المسلمين إلى هذا الخير العميم، وأن يرشدهم لقدر القرآن وعظمته، وينبههم لخطورة أفعالهم الخاطئة معه.

جاء في الحديث: «**إِنَّ للهِ تَعَالَى قَوْمًا يَخْتَصُّهُمْ بِالنِّعَمِ لِمَنَافِعِ الْعِبَادِ، وَيُقِرُّهَا فِيهِمْ مَا بَذَلُوهَا، فَإِذَا مَنَعُوهَا نَزَعَهَا مِنْهُمْ فَحَوَّلَهَا إِلَى غَيْرِهِمْ**»[(١)].

علينا جميعًا أن نفكر في كيفية دلالة العلماء والدعاة وطلبة العلم لهذا الأمر الخطير، وأن يكون حديثنا معهم يكسوه الأدب، ويتشبع بالحكمة والتواضع، وأن نتذكر دائمًا قوله تعالى: ﴿**كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ**﴾ [النساء: ٩٤].

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في اصطناع المعروف وفي قضاء الحوائج (برقم: ٥)، والطبراني في الكبير (١٣/ ٢٠٧) والأوسط (٥/ ٢٢٨)، والبيهقي في شعب الإيمان (١٠/ ١١٧ برقم: ٧٢٥٦) عن ابن عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا، وحسنه ابن مفلح في الآداب الشرعية (٢/ ١٨١).

ولا ننسى الدعاء لنا ولهم بأن يفتح الله قلوبنا لروح وأنوار كتابه.

وتذكر أخي أنه لا يكفي صلاحك بالقرآن وتمسكك به، بل لا بد أن توقف نفسك للدعوة إليه، وأن تُمسِّكه للآخرين، فيتمثل فيك قوله تعالى:

﴿ وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴾

[الأعراف: ١٧٠].

وصايا على الطريق

وقبل أن نغادر صفحات هذا الفصل أوصي نفسي وإياك -أخي القارئ- ببعض الوصايا والنصائح، علينا أن نستصحبها في رحلة عودتنا إلى القرآن واستجلاب روحه وأثره إلى قلوبنا...

أولاً: عدم الاغترار ببعض الإيجابيات

قد يحدث لنا بعض العلامات الإيجابية كالرؤى الصالحة نراها أو تُرى لنا...

هذه العلامات ينبغي أن نتعامل معها بحذر شديد، وألا نقف عندها، أو نعتبرها دليلًا لرضى الله عنا أو أفضليتنا على غيرنا، بل نجتهد في نسيانها وعدم التحدث بها، فهي في الحقيقة فتنة وابتلاء، علينا أن نرى جانبها الإيجابي فقط، وهو التثبيت والاستمرار في الطريق، ونترك ونتحاشى جوانبها السلبية مثل الشعور بالتميز والسبق على الآخرين أو الاغترار بها والركون إليها.

ثانيًا: إياك والعزلة

قد يجد البعض حلاوة ومتعة في لقائه بالقرآن تجعله يكسل عن مخالطة الناس والعمل في الدعوة، باعتبار أن هذه الأمور تُقسي قلبه -كما يزعم- وتفقده تلك الحلاوة والمتعة؛ فيؤدي هذا المنزلق إلى الانعزال والميل إلى الوحدة، وهذا من أشد مكايد ومصايد الشيطان، فهو يريد في البداية أن يُبعدنا عن بعضنا البعض، ثم ينفرد بكل فرد على حدة، ولقد أخبرنا سبحانه أن الإنسان في خُسر، إلا من آمن

وعمل صالحا والتزم مع إخوانه بالتواصي بالحق والتواصي بالصبر: ﴿وَالْعَصْرِ ۝١ إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ۝٣﴾ [العصر: ١ - ٣].

ويقول رسول الله ﷺ: «**فَعَلَيْكَ بِالْجَمَاعَةِ فَإِنَّ الذِّئْبَ يَأْكُلُ الْقَاصِيَةَ**»(١).

ومن أقوال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «كدر الجماعة ولا صفو الفرد».

وقيل أيضًا: «نجتمع على نصف الحق، ولا نتفرق على الحق كله».

ولنعلم -أخي- أن من علامات الاتصال الحقيقي بالقرآن فهمه وتدبره؛ والذي إن حدث فسيدفعنا للعمل -بإذن الله- بمقتضى آياته والتي تحُثنا وتدفعنا بدورها إلى الجهاد والدعوة والبذل ونفع الآخرين، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: ﴿وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الحج: ٧٧]، ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٢].

فاحذر ثم احذر من هذا المُنزَلَق الخطير..

واعلم بأننا لن نكتشف أنفسنا وما فيها من ثغرات إلا عند الوجود بين الناس..

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فإن المشروع الإسلامي الذي يهدف إلى إقامة الدين، وقيام الخلافة الإسلامية، وأستاذية العالم يحتاج إلى جهودنا جميعًا، فكيف لو تركنا العمل فيه؟! ألن يكون لذلك تأثير سلبي علينا، ويستدعي العقوبة من الله عز وجل كما مر علينا؟!

---

(١) رواه أحمد (٣٦/ ٤٢ برقم: ٢١٧١٠)، وأبو داود (١/ ٤١٠ برقم: ٥٤٧)، والنسائي (٢/ ١٠٦ برقم: ٨٤٧)، وابن خزيمة (٢/ ٣٧١ برقم: ١٤٨٦)، وابن حبان (٥/ ٤٥٧ برقم: ٢١٠١)، والحاكم (١/ ٣٣٠ برقم: ٧٦٥، ٢/ ٥٢٤ برقم: ٣٧٩٦) عن أبي الدرداء رضي الله عنه، وقال: صحيح، ووافقه الذهبي.

.. نعم، قد لا تجد وأنت تعمل فيه تلك الحلاوة التي تجدها عند قراءتك للقرآن وخلوتك معه، ولكن صبِّر نفسك بأن هذا هو ما يحبه الله عَزَّوَجَلَّ ويرضيه، وينبغي علينا أن نفعل ما يحبه الله لا ما تحبه أنفسنا.

ثالثًا: خفض الجناح والتواضع وعدم الاستعلاء على الآخرين

ومن المنزلقات والقواطع التي يمكنها أن تقطع رحلة عودتنا إلى القرآن؛ الشعور بأن معنا شيئًا ليس عند غيرنا، فيؤدي هذا إلى الاستعلاء على الآخرين، والانتقاص منهم، والتقليل من شأن جهودهم، وتسفيه آرائهم.. فيكون ذلك سببًا لاستدعاء غضب الله علينا وحرماننا من روح القرآن، وإحباط أعمالنا والعياذ بالله.

يقول رسول الله ﷺ: «**فَأَمَّا الْمُهْلِكَاتُ: فَشُحٌّ مُطَاعٌ، وَهَوًى مُتَّبَعٌ، وَإِعْجَابُ الْمَرْءِ بِنَفْسِهِ**»[(١)].

فبالغ أخي في التواضع لإخوانك، واخفض جناحك لهم.

ولا تستكثر ما منَّ الله به عليك، فتمن به على ربك، وعلى إخوانك، بل الله يمن عليك وعلينا وعلى الناس أجمعين.

وأسوق إلى نفسي وإليك -أخي- هذا الحديث، وما فيه من تخويف:

عن حذيفة قال: قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّ مَا أَتَخَوَّفُ عَلَيْكُمْ رَجُلٌ قَرَأَ الْقُرْآنَ حَتَّى إِذَا رُئِيَتْ بَهْجَتُهُ عَلَيْهِ، وَكَانَ رِدْئًا لِلإِسْلَامِ، غَيَّرَهُ إِلَى مَا شَاءَ اللهُ فَانْسَلَخَ مِنْهُ وَنَبَذَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ وَسَعَى عَلَى جَارِهِ بِالسَّيْفِ وَرَمَاهُ بِالشِّرْكِ**»، قال: قلت: يا نبي الله أيهما

---

(١) رواه الطبراني في الأوسط (٦/ ٤٧ برقم: ٥٧٥٤) عن ابن عمر رَضِوَاللَّهُعَنْهُمَا، ورواه البزار (٨/ ٢٩٥ برقم: ٣٣٦) عن ابن عباس رَضِوَاللَّهُعَنْهُمَا، ورواه الطبراني في الأوسط أيضًا (٥/ ٣٢٨ برقم: ٥٤٥٢) عن أنس رَضِوَاللَّهُعَنْهُ، وكذلك أبو نعيم في حلية الأولياء (٢/ ٣٤٣)، (٦/ ٢٨٦)، والبيهقي في شعب الإيمان (٢/ ٢٠٣ برقم: ٧٣١).

أولى بالشرك؟ المرمي؟ أم الرامي؟ قال: «**بَلِ الرَّامِي**»[(١)].

رابعًا: عدم الاستغناء عن التوجيه التربوي

كما ذكرنا من قبل فالقرآن هو الذي يقوم بتغيير الفرد -بإذن الله- ولكن هذا التغيير يحتاج إلى من يتابعه ويتأكد من مطابقته للصورة المطلوبة، ويحتاج الفرد كذلك إلى من يُراقب فهمه، ويشحذ همته، ويوجه حركته في المشروع الإسلامي لتُثمر أفضل النتائج بإذن الله.

من هنا يتضح أهمية تواصل الفرد مع (موجِّه تربوي) وكذلك الوجود وسط إخوانه الذين يشكلون معًا بيئة تربوية يمارسون فيها معاني الإسلام وما تعلموه من القرآن، ويتدارسون فيها آياته، فعليك -أخي- بالاجتهاد في التواجد في هذه البيئة والتواصل مع الموجهين التربويين؛ فإن لم تجد فعليك بالاجتهاد في البحث عنهم حتى يوصلك الله إليهم.

وحتى يحدث هذا فوسائل الاتصال الحديثة يسّرت التواصل عن بُعد مع من يقومون بذلك.

خامسًا: الحكمة في الدعوة إلى التعامل الصحيح مع القرآن الكريم

كما أسلفنا؛ فإن الهجر الحقيقي للقرآن قد بدأ بعد جيل الصحابة، لذلك فإن العودة إليه تحتاج إلى جهد كبير وإلى حكمة عظيمة في دعوة الناس إليه، لذلك أنصح نفسي وإياك -أخي- أن نجتهد في التحلي بها غاية الإمكان.

ومن صور الحكمة في الدعوة إلى التعامل الصحيح مع القرآن:

---

(١) رواه البزار (٧/ ٢٢٠ برقم: ٢٧٩٣)، وقال: إسناده حسن، ورواه ابن حبان في صحيحه واللفظ له (١/ ٢٨١ برقم: ٨١)، وحسنه ابن كثير في تفسيره (٣/ ٥٠٩).

- تخيَّر أفضل الأوقات والمناسبات في طرح الموضوع.
- التدرج في الدعوة.
- تخير الألفاظ المناسبة التي تُجَمِّع ولا تُفرق.

لنتذكر: إذا أردت أن تكون إمامي فكن أمامي، فأفضل طريق للدعوة هي الدعوة بالقدوة، وعندما يرى الناس الأثر الإيجابي للقرآن في ذات الداعي فإنهم سينجذبون إلى كلامه، ويصدقونه بتلقائية.

تذكر: لا إكراه في اعتناق الإسلام، فكيف بما هو دون ذلك؟! فلا تقهر أحدًا على تبنِّي ما تعتقد مهما كانت درجة صلتك به.

لنحذر الاستهزاء بالآخرين أو تسفيه آرائهم.

لنحذر لهجة الاستعلاء والأستاذية، ولنتكلم بلغة الناصح الشفيق الذي يرى الناس جميعًا أفضل منه، والناصح في القرآن لا يقول: أنصحكم، بل يقول: أنصح لكم. ﴿ **أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ** ﴾ [الأعراف: ٦٢].

سادسًا: الإخلاص وابتغاء رضا الله وجنته

هذه الوصية أوصي نفسي وإياك بها، فالأسباب التي قد تدفعنا لعدم الإخلاص عديدة... يقول رسول لله ﷺ: «**تَعَلَّمُوا الْقُرْآنَ، وَسَلُوا بِهِ الْجَنَّةَ، قَبْلَ أَنْ يَتَعَلَّمَهُ قَوْمٌ، يَسْأَلُونَ بِهِ الدُّنْيَا، فَإِنَّ الْقُرْآنَ يَتَعَلَّمُهُ ثَلَاثَةٌ: رَجُلٌ يُبَاهِي بِهِ، وَرَجُلٌ يَسْتَأْكِلُ بِهِ، وَرَجُلٌ يَقْرَأُ للهِ عَزَّ وَجَلَّ**»[1].

---

(١) رواه البيهقي في شعب الإيمان (٤/ ١٩٨ برقم: ٢٣٨٩).

الفصل الثامن

مظاهر النجاح
وعلامات الاتصال بالقرآن

مظاهر النجاح وعلامات الاتصال بالقرآن

بفضل من الله وحده تناولت صفحات هذا الكتاب الحديث عن قدر القرآن، وواقعنا معه، وحاجتنا الماسة إليه، وضرورة العودة الحقيقية إليه، وكيفية تحقيق ذلك بإذن الله.

ولأن الحكم على الشيء فرع عن تصوره، فلا بد من عرض التصور الصحيح لمظاهر النجاح في الاتصال الحقيقي بالقرآن حتى يتسنى لنا الحكم على حالنا، والتعرف على واقعنا، ومدى قربه أو ابتعاده عنه.

وإننا بحاجة كذلك للتعرف على هذه المظاهر لتكون لنا بمثابة الراية التي نرنو للوصول إليها، والمقياس الذي نقيس به مقدار تقدمنا نحو القرآن.

والجدير بالذكر أن المظاهر التي ستتضمنها -بإذن الله- الصفحات القادمة ليست على سبيل الحصر، لكنها تُشكل نسبة كبيرة من علامات الاتصال الحقيقي بالقرآن -لفظه وروحه- ويقف على رأسها مظهر في غاية الأهمية والخطورة، ولا بد من تحققه فيمن يتصل بالقرآن ويدخل إلى دائرة تأثير معجزته، فتسطع أنواره وتسري روحه في قلبه.

هذا المظهر هو: التغيير الإيجابي الجذري في شخصية المسلم على أساس معاني الإسلام الشامل الذي يتناول جميع جوانب الشخصية الأربعة (المعرفية، والإيمانية، والنفسية «تزكية النفس»، والحركية) ولقد سبق بفضل الله الحديث عن هذه العلامة في بداية الفصل الأول، وفي الصفحات القادمة سيتم عرض بقية العلامات، والله المستعان.

إشارات تحذيرية
قبل التعرَّف على علامات الاتصال بالقرآن

أخي.. لعلك ترى أن هذه الوسائل -السابق ذكرها- للعودة إلى القرآن لا تناسب الواقع الصعب لغربة القرآن بيننا.

... نعم، فما مضى في فصول هذا الكتاب يؤكد أننا معاقبون بالحرمان من روح القرآن وأثره المزلزل للنفوس، وأن من صور هذا العقاب أن يُضرَب على آذاننا فلا نسمع، ويغشى على أبصارنا فلا نرى، ويغطى على قلوبنا فلا نعقل... ومن ثَم فنحن لا نشعر بهذا الحرمان.

ولذلك فإن هذه الوسائل اختبار يكشف حقيقة إدراكنا لغربة القرآن وشعورنا بهذا الخطر.

فمن سمعها فرأى فيها واجبات عملية يأخذ ببعضها، ويجادل في بعضها، ويتكاسل عن بعض آخر... فهو ما زال بعيدًا، لم يدرك بعد حقيقة الأمر، ولم يحسن الاستماع لهذا النذير.

ومن أخذها وجدّ فيها واعتبر الأخذ بها هو الغاية والمقصود من العودة إلى القرآن فهو كذلك لم يدرك حقيقة المشكلة؛ فهذه الوسائل لا تعدو أن تكون سببًا يظهر العبد من خلاله احتياجه وحرصه واضطراره لمولاه، وافتقاره إلى هدايته ونوره، عسى أن تدركه رحمة الله حينئذ.

فليس الآخذ بهذه الوسائل المجتهد فيها هو الذي وصل إلى نور القرآن وأثره،

إنما هو -إن صحَّت نيتُه، وقويَ عزمُه- سارٍ في الطريق، ملتمسٌ الهدى، منتظرٌ رحمة ربه.

هل نطلب المستحيل؟

قد يقول قائل: إذا كانت هذه الوسائل غير مقصودة لذاتها في رحلة العودة إلى القرآن، وليست سوى سبيل إلى الله، ليكشف عنا بعضًا مما نحن فيه من الحرمان المخيف من القرآن وروحه وأثره. فما هو المقصود إذن؟ وما هي الحالة الصحيحة التي ننشد الوصول إليها؟

والجواب -بعون الله- في صفحات هذا الفصل «**مظاهر النجاح وعلامات الاتصال بالقرآن**»، فلعل هذه العلامات بإذن الله تقرب الصورة، وتظهر بعض التفاصيل للنموذج القرآني الصحيح، وعلامات الوصال الصحيح بالقرآن.

غير أنِّي لا أخفي عليك -أخي القارئ- أننا -كفريق عمل- ترددنا كثيرًا بين الإبقاء على هذا الفصل وحذفه؛... فمن حيث هو قد يظهر بفضل الله صورة عملية للاتصال الحقيقي بالقرآن الذي حدث مع الجيل الأول، هو كذلك قد يكون بابًا واسعًا للغرور والعياذ بالله، وإعادة الشعور بالأمن تجاه القرآن.

فهذه العلامات لها قارئان

قارئ يرى من خلالها تقصيره وعجزه وبُعد المسافة الشديد بينه وبين القرآن.

فهذا -بإذن الله- المستفيد منها، المنتفع بها.

وقارئ يرى من خلالها نفسه، فيتوهم ما ليس بكائن، ويظن ما ليس بحقيقي، فإذا قرأ عن علامة «**التغيير الجذري الشامل**» -مثلًا- نظر إلى ما فيه من الخير الذي

أودعه الله فيه، وغفل عن عيوب نفسه ونسي خطاياه، وظن أنه المقصود بهذا التغيير، أو إذا قرأ عن علامة «الزلزلة والانهيار عند سماع القرآن أو تلاوته» أسقط ذلك على بكائه أحيانا عند قراءة القرآن أو سماعه من بعض القراء.

وهكذا.. حتى تكون هذه المادة -والعياذ بالله- سببًا لمزيد من الغرور والعمى والضلال له... ولا حول ولا قوة إلا بالله.

ولا عجب، فالله عَزَّوَجَلَّ يقول في صفة أولي الألباب أنهم يستمعون القول فيتَّبعون أحسنه: ﴿ **ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ** ﴾ [الزمر: ١٨].

فهناك من يستمع القول ويتبع أحسنه، وهناك من يستمع القول فيأخذ بشر ما فيه، كما قال رسول الله ﷺ: «**مَثَلُ الَّذِي يَسْمَعُ الْحِكْمَةَ وَيَتَّبِعُ شَرَّ مَا يَسْمَعُ، كَمَثَلِ رَجُلٍ أَتَى رَاعِيًا، فَقَالَ لَهُ: أَجْزِرْنِي شَاةً مِنْ غَنَمِكَ، فَقَالَ: اذْهَبْ فَخُذْ بِأُذُنِ خَيْرِهَا شَاةً، فَذَهَبَ فَأَخَذَ بِأُذُنِ كَلْبِ الْغَنَمِ**»(١).

وبقدر ما نرجو من خير من وراء صفحات هذا الفصل فإننا في غاية الخوف من قارئ يأخذ بشر ما فيها، فتهدم له سائر ما في الكتاب وما فيه من معانٍ تدعو إلى الانتفاضة من أجل العودة إلى القرآن، والاقتراب منه، وإزالة حجب الصمم والعمى عنه، وتحذر من الاغترار ببعض المظاهر الكاذبة في التعامل معه.

ويعلم الله أن هذه المخاوف ليست من فراغ، فلقد درس هذا الكتاب أناس، اجتهدوا في تطبيق وسائله، ثم فتنتهم هذه الأوراق، وكانت سببًا في انتكاستهم وبُعدهم الشديد... وإنا لله وإنا إليه راجعون.

---

(١) رواه أحمد في المسند (١٥/ ١٤٨ برقم: ٩٢٦٠)، وابن ماجه (٥/ ٢٧١ برقم: ٤١٧٢).

لتعلم أخي القارئ، وأذكر نفسي معك، أن المقصود الأعظم للعبد أن يغفر الله له، والسبيل لهذه المغفرة هو الاستقامة على التقوى والعبودية لله جل شأنه.

ولقد أنزل الله عَزَّوَجَلَّ هذا القرآن نورًا وهدىً يأخذنا به إلى عفوه ورضاه وجنته، كما قال تعالى: ﴿الٓر كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ١ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۚ إِنَّنِي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ ٢ وَأَنِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُمَتِّعۡكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى وَيُؤۡتِ كُلَّ ذِي فَضۡلٖ فَضۡلَهُۥۖ وَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٖ كَبِيرٍ ٣ إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ٤﴾ [هود: ١ - ٤].

ومن وراء هذا كله شيطان رجيم يتربص بنا، وقد أقسم على غوايتنا، ونجح -مع الأسف الشديد- مع كثيرين من قبلنا... ومع هذا الشيطان نفوسنا الأمّارة بالسوء.

ولقد جعل الله عَزَّوَجَلَّ الدنيا دار فتن وامتحان وبلاء... فما يصيب العبد فيها من خير أو شر هو فتنة لها ما بعدها: ﴿وَنَبۡلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلۡخَيۡرِ فِتۡنَةٗۖ وَإِلَيۡنَا تُرۡجَعُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٥].

فالدنيا ليست دار جزاء، وإذا عاجل الله فيها العبد بعقوبة على ذنب وقع فيه فهو تذكير وتنبيه، وامتحان جديد للعبد، فإما يتوب ويرجع، وإما يصر ويتمادى، وإذا عاجل الله فيها العبد بنعمة لعمل صالح أداه فهو تثبيت وشكر، وامتحان جديد كذلك، فإما أن يثبت ويشكر، وإما أن يغتر ويعجب، فالله تعالى سريع الحساب، والله تعالى غفور شكور.

وكما أن باب التوبة مفتوح للعبد ما لم يغرغر، فإن باب الاختبار كذلك قائم في كل نعمة وكل مضرة.

وكما لا ينبغي أن ييأس العبد من روح الله إذا أذنب وتوالت عليه العقوبات، فلا ينبغي أن يأمن مكر الله إذا أحسن وتوالت عليه النعم.

ومن ثم، أحذر نفسي وإياك من الغرور بما قد يفتحه الله للعبد من بوارق الفتن إثر اجتهاده الظاهر مع القرآن.

كما أحذر نفسي وإياك من التماس هذه العلامات الواردة بهذا الفصل، أو قياس حالنا عليها قياسًا يظهر تحققنا بها، أو قربنا منها... فهذا باب شر وفتن لا خير من ورائه أبدًا.

بل هو باب إلى المزيد من الغرور، والعمى والصمم، والحرمان من القرآن.

أحذر نفسي وإياك -أخي- من انتظار الكرامة أو الالتفات إليها أو الفرح بها...

يقول الرازي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في التفسير: قال المحققون: أكثر ما اتفق من الانقطاع من حضرة الله إنما وقع في مقام الكرامات، فلا جرم ترى المحققين يخافون من الكرامات كما يخافون من أنواع البلاء(١).

وفي الحديث: «**إِنَّ مَا أَتَخَوَّفُ عَلَيْكُمْ رَجُلٌ قَرَأَ الْقُرْآنَ حَتَّى إِذَا رُئِيَتْ بَهْجَتُهُ عَلَيْهِ، وَكَانَ رِدْئًا لِلإِسْلَامِ، غَيَّرَهُ إِلَى مَا شَاءَ اللهُ فَانْسَلَخَ مِنْهُ وَنَبَذَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ وَسَعَى عَلَى جَارِهِ بِالسَّيْفِ وَرَمَاهُ بِالشِّرْكِ**»، قال: قلت: يا نبي الله أيهما أولى بالشرك؟ المرمي؟ أم الرامي؟ قال: «**بَلِ الرَّامِي**»(٢).

ولنعلم أن الاستقامة خير كرامة، فمن أقام على حذره وخوفه من الحرمان من

---

(١) التفسير الكبير (٢١/ ٤٣٨).

(٢) رواه البزار (٧/ ٢٢٠ برقم: ٢٧٩٣)، وقال: إسناده حسن، ورواه ابن حبان في صحيحه واللفظ له (١/ ٢٨١ برقم: ٨١)، وحسنه ابن كثير في تفسيره (٣/ ٥٠٩).

القرآن، وأقام على طلبه الهدى من الله به، وحرص على التزام أخلاقه ومعانيه من التواضع والانكسار والتقوى.... كان هو صاحب الكرامة الحقيقية على الله: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣].

فهذا هو المقصود من الفتن التي قد يلقي الله بها في طريق العبد اختبارًا له، كما قال تعالى: ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴿١٦﴾ لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾

[الجن: ١٦، ١٧].

فمَن عرضَ له شيء من ذلك فليستغفر الله، وليتضرَّع إليه في دعائه حذرًا من أن تصيبه الفتنة فيهلك والعياذ بالله.

والله المستعان، وهو على كل شيء وكيل.

العلامة الأولى:

التغيير الإيجابي الشامل[١]

العلامة الثانية:

الزلزلة

القرآن العظيم يحتوي على أشد قوة تأثيرية على وجه الأرض، هذا ما أخبرنا الله -جل شأنه- به، لذا فمن المتوقع أنه إذا اتصل به شخص ما -أيًّا كان وضعه- أن يُحدث فيه زلزلة داخلية عنيفة، تهزه وترُجُّه، وتجعله ينهار ويسجد لمُنزل القرآن سبحانه.

ولقد تضمن القرآن في عدة مواضع وصفًا لهذه العلامة وأصحابها، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾ [الإسراء: ١٠٧ - ١٠٩].

فالآيات تخبرنا بتأثير القرآن السريع والمذهل على هؤلاء الذين ذكرتهم الآية، فعندما استمعوا لآياته لم يتمالكوا أنفسهم، وخارت قواهم، وانهاروا منكبين على الأرض سجدًا لله عَزَّوَجَلَّ وإكبارًا له، وعبروا عن هذا الإكبار والانبهار بالتسبيح، ولم يستطيعوا السيطرة على دموعهم فكان بكاؤهم دليلًا آخر على تأثير القرآن فيهم.

---

(١) العلامة الأولى وهي التغيير الإيجابي الشامل تم بفضل الله الحديث عنها في بداية الفصل الأول، وأنصح نفسي والقارئ الكريم بالعودة لقراءتها مرة ثانية.

وفي هذا المعنى يقول صاحب الظلال تعقيبًا على هذه الآيات: «إنهم لا يتمالكون أنفسهم، فهم لا يسجدون، ولكن ﴿يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا﴾ ثم تنطق ألسنتهم بما خالج مشاعرهم من إحساس بعظمة الله وصدق وعده: ﴿سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا﴾.

ويغلبهم التأثر؛ فإذا الدموع تنطلق معبرة عن ذلك التأثر الغامر الذي لا تصوره الألفاظ: ﴿وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾ فوق ما استقبلوه به من خشوع»[1].

إن الانهيار أمام قوة تأثير الآيات لمن أهم علامات الاتصال الحقيقي بها:

﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَٰنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾ [مريم: ٥٨].

﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [السجدة: ١٥].

ويحكي صاحب الظلال عن واقعة حدثت له تصف شيئًا قريبًا من هذه الزلزلة فيقول: «كنت بين رفقة نسمر حين طرق أسماعنا صوت قارئ للقرآن من قريب، يتلو سورة النجم، فانقطع بيننا الحديث لنستمع وننصت للقرآن الكريم. وكان صوت القارئ مؤثرًا وهو يرتل القرآن ترتيلًا حسنًا.

وشيئًا فشيئًا عِشت معه فيما يتلوه، عِشت مع قلب محمد ﷺ في رحلته إلى الملأ الأعلى.. عِشت معه وهو في رحلته العُلوية الطليقة بقدر ما يُسعفني خيالي وتُحلِّق بي رُؤاي، وبقدر ما تُطيق مشاعري وأحاسيسي..

.. **ويستطرد قائلًا:** وارتجف كياني تحت وقع اللمسات المتتابعة في المقطع الأخير من السورة..

---

(١) في ظلال القرآن (٤/ ٢٢٥٤).

واستمعت إلى صوت النذير الأخير قبل الكارثة الداهمة: ﴿هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ ﴿٥٦﴾ أَزِفَتِ ٱلْـَٔازِفَةُ ﴿٥٧﴾ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ ﴿٥٨﴾﴾ [النجم: ٥٦ - ٥٨].

ثم جاءت الصيحة الأخيرة واهتز كياني كله أمام التبكيت الرعيب: ﴿أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ﴿٥٩﴾ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ﴿٦٠﴾ وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ ﴿٦١﴾﴾ [النجم: ٥٩ - ٦١].

فلما سمعت: ﴿فَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ وَٱعْبُدُوا۟﴾ [النجم: ٦٢] كانت الرجفة قد سرت من قلبي حقًا إلى أوصالي، واستحالت رجفة عضلية مادية ذات مظهر مادي، لم أملك مقاومته، فظل جسمي كله يختلج، ولا أتمالك أن أثبته، ولا أن أكفكف دموعًا هاتنة، لا أملك احتباسها مع الجهد والمحاولة»(١).

فما لهم لا يسجدون؟!

ومما يدعو إلى التأمل العميق أن الله عَزَّوَجَلَّ في معرض خطابه الذي يذم فيه الكفار وينكر عليهم عدم إيمانهم، قد اشتمل كذلك الإنكار عليهم بعدم السجود عند سماع آيات القرآن: ﴿فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ ٱلْقُرْءَانُ لَا يَسْجُدُونَ﴾ [الانشقاق: ٢٠، ٢١].

وكأن رد الفعل الطبيعي لأي شخص يستمع القرآن هو السجود.

نعم؛ إن جوهر السجود هو خضوع القلب وهبوطه وخشوعه واستكانته لله عَزَّوَجَلَّ استكانة تسيطر على المشاعر وتستبد بها، فهو -إذن- يبدأ من القلب ويترجمه الجسد، فإن اكتفى المرء بسجود قلبه في غير الآيات التي يُسن فيها سجود الجسد فبها ونعمت.

---

(١) في ظلال القرآن (٦/ ٣٤٢٠، ٣٤٢١).

«إن كلمات القرآن الكريم كلها تأثير، لأنها من كلام الله رب العالمين، وإن كانت ألفاظه من ألفاظ كلام الناس، لكن الله تعالى أفاض عليها من فيضه، ونفخ فيها من روحه، ومن ثَم تفعل هذه الكلمات هذا الفعل العجيب في النفوس، ويزداد تعميق هذا السلطان القاهر على القلوب»(١).

ويقول أبو عمران الجوني: «والله لقد صرف إلينا ربنا عَزَّوَجَلَّ في هذا القرآن ما لو صرفه إلى الجبال لحتَّها وحَنَاها»(٢).

وقرأ مالك بن دينار قوله تعالى: ﴿لَوۡ أَنزَلۡنَا هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ عَلَىٰ جَبَلٖ﴾ [الحشر: ٢١].

ثم قال: أقسِمُ لكم لا يؤمن عبدٌ بهذا القرآن **إلا صدع قلبه**(٣).

وقال الضحاك في تفسيره لهذه الآية: «يقول تعالى: لو أنزلت هذا القرآن على جبل فأمرته بالذي أمرتكم به، وخوفته بالذي خوفتكم به؛ إذًا يصدع ويخشع من خشية الله، فأنتم أحق أن تخشوا وتذلوا وتلين قلوبكم لذكر الله»(٤).

تأثير القرآن على كفار مكة

لقد أقر كفار مكة بقوة تأثير القرآن، لكنهم لم يؤمنوا بسبب كبرهم وعنادهم وخوفهم على امتيازاتهم ومكانتهم بين الناس، لذلك كانوا يقولون: ﴿لَوۡلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنَ ٱلۡقَرۡيَتَيۡنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١]، والدليل على إقرارهم بقوة تأثير القرآن عليهم أنهم قالوا عنه سحر، ومن المعلوم أن جوهر السحر هو تأثير قاهر غلاب يأخذ بالقلوب والألباب: ﴿وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٖ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمۡ هَٰذَا سِحۡرٞ مُّبِينٌ﴾ [الأحقاف: ٧].

---

(١) الإعجاز التأثيري للقرآن الكريم لمصطفى السعيد (ص: ٨٢).

(٢) حلية الأولياء لأبي نعيم الأصفهاني (٢/ ٣١١).

(٣) أخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء (٢/ ٣٧٨).

(٤) الدر المنثور للسيوطي (٩/ ٤٧٤).

لقد أقروا بتأثير القرآن لكن الكِبر منعهم من الإيمان: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلۡحَقُّ قَالُواْ هَٰذَا سِحۡرٞ وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ ٣٠ وَقَالُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنَ ٱلۡقَرۡيَتَيۡنِ عَظِيمٍ ٣١﴾ [الزخرف: ٣٠، ٣١].

لذلك كانوا يتواصون بعدم سماعه والتشويش عليه حتى لا يصل تأثيره إلى عموم الناس فيسلموا بسماعه:

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَغۡلِبُونَ﴾ [فصلت: ٢٦].

إن هذا القول من كفار مكة الذي تحمله الآية «ليدل على الذعر الذي كان يضطرب في نفوسهم، من تأثير هذا القرآن فيهم وفي أتباعهم، وهم يرون هؤلاء الأتباع يُسحرون -من وجهة نظرهم- بين عشية وضحاها من تأثير الآية والآيتين، والسورة والسورتين، يتلوها محمد أو أحد أتباعه السابقين، فتنقاد إليهم النفوس، وتهوي إليهم الأفئدة.

ولولا أنهم أحسوا في أعماقهم هزَّة روَّعتهم؛ ما أمروا أتباعهم هذا الأمر، وما أشاعوا في قومهم بهذا التحذير، الذي هو أدل من كل قول على عمق التأثير[١]».

ومما يؤكد هذا المعنى ما نقلته إلينا كتب السيرة من تأثر المشركين بالقرآن كالوليد ابن المغيرة الذي عبّر عن تأثره بقوله: والله إن لقوله الذي يقول حلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإنه لمثمر أعلاه مغدق أسفله، وإنه ليعلو وما يعلى وإنه ليحطم ما تحته[٢].

وفي يوم من أيام مكة قرأ النبي ﷺ النجم بمكة فسجد فيها وسجد من معه غير

---

(١) التصوير الفني في القرآن (ص: ١٤، ١٥).

(٢) أخرجه الحاكم (٢/ ٥٥٠ برقم: ٣٨٧٢) وصححه، ووافقه الذهبي، والبيهقي في شعب الإيمان (١/ ٢٨٧ برقم: ١٣٣)، وحسنه العراقي في تخريج الإحياء (١/ ٣٢٤).

شيخ أخذ كفًا من حصى -أو تراب- فرفعه إلى جبهته، وقال: يكفيني هذا[(١)] وكان هذا الرجل هو أمية بن خلف الذي قتل كافرًا يوم بدر.

لقد سجد المشركون وهم يمارون في الوحي والقرآن، وهم يجادلون في الله والرسول!

سجدوا تحت هذه المطارق الهائلة التي وقعت على قلوبهم والرسول ﷺ يتلو هذه السورة عليهم، وفيهم المسلمون والمشركون، ويسجد فيسجد الجميع، المسلمون والمشركون.

لا يملكون أن يقاوموا وقع هذا القرآن؛ ولا أن يتماسكوا لهذا السلطان.. ثم أفاقوا بعد فترة فإذا هم في ذهول من سجودهم كذهولهم وهم يسجدون»[(٢)].

ويصف جبير بن مطعم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حاله عندما استمع القرآن وكان مشركًا، فيقول: سمعت النبي ﷺ يقرأ في المغرب بالطور، فلما بلغ هذه الآية: ﴿ **أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ ﴿٣٧﴾** ﴾ [الطور: ٣٥ - ٣٧] **كاد قلبي أن يطير!**[(٣)]

التأثير المباشر للقرآن الكريم في الدعوة إلى الإسلام

معجزة القرآن تشمل الإعجاز البياني والإعجاز الغيبي والإعجاز التشريعي، وأنواعًا أخرى ذكرها العلماء، ولكن جوهر معجزته وسرها الأعظم في «إعجازه

(١) رواه البخاري (٢/ ٤٠ برقم: ١٠٦٧)، رواية أخرى: عن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: «أول سورة أنزلت فيها سجدة: والنجم، قال: فسجد رسول الله ﷺ وسجد من خلفه إلا رجلًا رأيته أخذ كفًا من تراب فسجد عليه»، فرأيته بعد ذلك قتل كافرًا، وهو أمية بن خلف. (صحيح البخاري ٦/ ١٤٢ برقم: ٤٨٦٣).

(٢) في ظلال القرآن (٦/ ٣٤١٩).

(٣) رواه البخاري (٦/ ١٤٠ برقم: ٤٨٥٤).

التأثيري»[١]، وهي المعجزة التي تُشعر من يتعرض لها بأن شيئًا مذهلًا يسيطر على عقله ومشاعره، ويأخذ بمجامع القلب، ويضعه تحت سيطرته التامة. لذلك كانت الدعوة للإسلام من خلال (تلاوة) القرآن هي الوسيلة الأولى التي استخدمها النبي ﷺ وصحابته، فللقرآن معجزة تأثيرية جبارة لو تعرض لها إنسان **لانهار أمامها وأذعن واستسلم لمُنزله**؛ شريطة ألا يكون بداخله من الكبر ما يقاوم ذلك الإذعان والاستسلام.

ولقد قرَّر القرآن هذه الحقيقة في قوله تعالى: ﴿**وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ**﴾ [التوبة: ٦].

«فلو لم يكن للقرآن العظيم من تأثير بالغ في قلوب سامعيه؛ لَمَا كان هو الحد الفاصل لنهاية إجارة المشرك»[٢].

وهناك نماذج عملية كثيرة تثبت أن ما يقذفه القرآن من تأثير رهيب كان السبب الأول لإسلام الكثير من الصحابة كأبي ذر الغفاري، والطفيل بن عمرو الدوسي، وعمر بن الخطاب، وأسيد بن حضير، وسعد بن معاذ، وأبي موسى الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

تأثير القرآن على لبيد بن ربيعة

ونختم الحديث حول هذه النقطة بذكر تأثير القرآن على أحد فحول الشعر الجاهلي، وأحد أصحاب المعلقات السبع الذين سارت بشعرهم الركبان، ألا وهو لبيد بن ربيعة، فبعد إسلامه لم يقل إلا بيتًا واحدًا، وهو قوله:

---

(١) يقول محمد فريد وجدي: لما كان القرآن روحًا من أمر الله فلا جرم كانت له روحانية خاصة هي عندنا جهة إعجازه والسبب الأكبر في انقطاع الإنس والجن عن محاكاة أقصر سورة من سوره، وارتعاد فرائص الصناديد والجبابرة عند سماعه. دائرة المعارف الإسلامية الجزء السابع مادة (قرأ).

(٢) عظمة القرآن لمحمود الدوسري (ص: ٣٢٨).

والحمد لله الذي لم يأتني أجلي حتى لبست من الإسلام سربالًا

وها هو أمير المؤمنين عمر بن الخطاب يقول له يومًا ما: أنشدني من شعرك، فيقرأ سورة البقرة، ويقول له: ما كنت لأقول الشعر بعد أن علمني الله سورة البقرة(١).

عن الشعبي قال: كتب عمر بن الخطاب إلى المغيرة بن شعبة وهو عامله على الكوفة: أن استنشد من قِبَلك من الشعراء ما قالوا في الجاهلية والإسلام، فأرسل إلى الأغلب العجلي، فقال: أنشدني، فقال:

أرجزًا تريد أم قصيدًا فقد سألت هيِّنًا موجودًا

قال: ثم أرسل إلى لبيد بن ربيعة، فقال: أنشدني، فقال: إن شئت أنشدتك مما قد عفي عنه من شعر الجاهلية، قال: لا أنشدني ما قلت في الإسلام. فانطلق إلى أديم فكتب فيه سورة البقرة، فقال: أبدلني الله مكان الشعر هذا.

وفي رواية قال: أبدلني اللَّهُ بالشِّعر سورة البقرة وآل عمران(٢).

ماذا حدث للبيد الشاعر؟

فإن قلت: هل تعني أن من أهم علامات دخول نور القرآن وسريان روحه فيه هو ذلك التأثر الشديد في المشاعر الذي يصيب القارئ أو السامع للقرآن، مما يدفعه للسجود أو البكاء دون أن يتمالك نفسه؟

..نعم، هو كذلك، ولكن هذا الوصف يوضح التأثر المشاعري المزلزل فقط،

(١) المعجزة القرآنية لمحمد حسن هيتو (ص: ٤٣، ٤٤).

(٢) الإشراف في منازل الأشراف لابن أبي الدنيا (برقم: ١٤)، وذكرها الحافظ ابن حجر في الإصابة (٥/ ٥٠٠).

وهناك زلزلة أخرى تحدث في الفكر والتصور، وإليك -أخي القارئ- هذا المثل لتوضيح معنى زلزلة الأفكار والقناعات والتصورات التي يحدثها القرآن:

لو أن ملكًا لدولة متقدمة في مضمار التكنولوجيا ووسائل الرفاهية قد استقدم إلى مملكته رجلًا من بلدة نائية فقيرة، أُميٌّ لا يعرف شيئًا، وعَيِّنَ له مرافقًا يعلِّمه قوانين المدينة، ويعرِّفه بها، وبوسائل التقدم والرفاهية فيها، ويُدرِّس له علومًا متخصصه ليعده أن يكون من العلماء المتخصصين.

لا شك أن هذا الرجل الأمي بعد أن يرى هذه المدينة وينبهر بها، سيمحو من ذهنه كل نظام الحياة الذي عاشه من قبل، وسيبدأ في التأقلم مع ظروفه الجديدة، ولكي ينجح في ذلك سيرجع لمرافقه هذا، يسأله في كل شيء، وينفذ تعليماته بدقة، وكلما واجهه موقف لا يعرف ماذا يفعل فيه رجع إليه بالسؤال، وكلما رأى شيئًا جديدًا، استفهم منه عن وظيفته واستخدامه.

هذا تصور قريب من حقيقة الزلزلة التي يُحدثها القرآن في الأفكار والتصورات.. فهي تمحو كل تصور خاطئ ملأ عقولنا، وتضعنا في حالة انبهار غير عادي، وتهز ثقتنا في كل ما تلقيناه سابقًا، لدرجة تجعلنا نتوقف عند كل ما نفعل كأنه أمر جديد ننتظر قرار القرآن فيه.. وهذا يُفسر ما حدث للبيد حين ترك الشعر.

حالة يضع القرآن أهله فيها، كأنهم ولدوا من جديد، أو كأنهم انتقلوا إلى عالم آخر فصار لزامًا عليهم أن يراجعوا مشاعرهم وتصوراتهم وسلوكياتهم على ميزان القرآن دون النظر لسابق رأيهم وخبرتهم فيها[1].

---

(١) لعلنا من خلال ما قيل ندرك بعض تأثير اسم سورة الزلزلة لتهيئة النفس البشرية المؤمنة لتعيد ترتيب حساباتها ودرجة حساسيتها، وتضبط جهاز استقبالها على هذه الموجة: ﴿فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ =

ومما يُعرف به أهل القرآن:

ثالثًا: زيادة الإيمان مع كل لقاء بالقرآن

من معاني الإيمان: التصديق والثقة، وهو ينشأ -بإذن الله- عند إعمال الفكر في معنى من المعاني شريطة أن تتجاوب المشاعر مع مدلول هذا التفكر.

فعندما يتفكر المرء في حقيقة الدنيا، وتمتزج مشاعره بهذا التفكير وتتفاعل معه؛ من المتوقع أن يثمر -بإذن الله- زهدًا في الدنيا. فإذا ما داوم على هذا التفكر والتفاعل زاد الزهد، وأيضًا: إذا ما اتجه الفكر نحو حقيقة الآخرة وتعانقت العاطفة مع هذا الفكر فإن ذلك من شأنه أن يثمر -بإذن الله- رغبة في الآخرة، وتزداد هذه الرغبة كلما تكرر هذا الأمر... وتلك هي زيادة الإيمان.

وإذا ما اتجه الفكر نحو اسم من أسماء الله الحسنى، وتجاوبت المشاعر مع هذا الفكر فإن النتيجة المتوقعة -بإذن الله- هي زيادة الإيمان بالله من خلال معاني هذا الاسم.

فإذا ما أسقطنا هذه الحقيقة على القرآن لوجدنا أنه من النتائج الثابتة المترتبة على اللقاء بالقرآن (تلاوة أو استماعًا) هو **زيادة الإيمان بكل ما ينبغي الإيمان به،** مما ينفع المرء في الدنيا والآخرة، فالقرآن يستثير كوامن العقل للتفكر في جوانب الإيمان المختلفة **ويمزج هذا التفكر بدوام الطَّرْق على المشاعر حتى تستثار، ومن ثَم يحدث التعانق بين الفكر والعاطفة، فينشأ الإيمان -بإذن الله- ويخرج المرء بعد لقائه بالقرآن وهو أشد حبًا لله، وخشيةً منه، ورجاءً فيه، وافتقاراً إليه، وتوكلًا عليه.. ويكون كذلك أشد زهدًا في الدنيا، ورغبةً في الآخرة.**

= ﴿خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝٨﴾ [الزلزلة: ٧، ٨] لأنه لا يمكن أن يصبح ميزان الأعمال بهذه الدرجة من الحساسية الشديدة إلا بعد صدمة الزلزلة وأهوال الكلمات الأولى من السورة وآياتها.

ويؤكد ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ [الأنفال: ٢]، وقوله: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٤].

قال علي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: كانت السورة إذا نزلت على عهد رسول الله ﷺ أو الآية أو أكثر زادت المؤمنين إيمانًا وخشوعًا، ونهتهم فانتهوا(١).

وأذكر لك -أخي القارئ- مثالاً للتأثير الإيماني لسورة من سور القرآن على بعض الصحابة:

فقد نزل رجل من العرب ضيفًا على عامر بن ربيعة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، فأكرم عامر مثواه، وكلّم فيه رسول الله ﷺ، فجاءه الرجل فقال: إني استقطعت رسول الله ﷺ واديًا ما في العرب وادٍ أفضل منه، وقد أردت أن أقطع لك منه قطعة تكون لك ولعقبك من بعدك. قال عامر: لا حاجة لي في قطيعتك، نزلت اليوم سورة أذهلتنا عن الدنيا: ﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾(٢) [الأنبياء: ١].

وروي أن رجلًا من أصحاب النبي ﷺ كان يبني جدارًا فمر به آخر في يوم نزول هذه السورة فقال الذي كان يبني الجدار: ماذا نزل اليوم من القرآن؟ فقال الآخر: نزل اليوم: ﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنبياء: ١]، فنفض يده من البنيان وقال: والله لا بنيت أبدًا وقد اقترب الحساب(٣).

---

(١) عزاه المتقي الهندي في كنز العمال (برقم: ٤٢١٦) لأبي بكر الوراق في أماليه، والعسكري في المواعظ. وقال: سنده حسن.

(٢) رواه أبو نعيم في الحلية (١/ ١٧٩).

(٣) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (١١/ ٢٦٦).

مع الأخذ في الاعتبار أن التوازن في ضبط حركة الإنسان يجعله كلما زاد زهدًا فيها زاد إصرارًا على السعي والإكثار من أعمال البر والخير، حتى يزيد رصيده في الآخرة التي تعلق قلبه بها بعد فراغه من التعلق بالدنيا.

ومن علامات أهل القرآن:

رابعًا: تدبر آياته

ومن علامات حُسن الانتفاع بالقرآن: تدبر آياته، وليس فهمها فقط، فقراءة القرآن تختلف عن قراءة أي كتاب آخر، فنحن حين نتناول كتابًا من الكتب ونقرأ فيه فإن هدفنا الأساس يكاد ينحصر في فهم عباراته ومدلولاته، أما بخصوص القرآن فلا ينبغي أن يقتصر الأمر على مجرد فهم آياته؛ بل لا بد وأن يتعداه إلى النظر في معانيها وتجاوب المشاعر معها والاتعاظ بها ورسوخ مدلولها في القلب بتكرار عرضها عليه.

ونحتاج بدايةً إلى توضيح معنى تدبر القرآن، وهل المقصد منه إعمال العقل فقط في الآيات التي نتلوها أم أن الأمر يحتاج لأكثر من ذلك؟

الجواب -بعون الله- أن الله عَزَّوَجَلَّ أنزل القرآن لنتفكر فيه تفكرًا يقود إلى التدبر بمعناه الصحيح: ﴿**وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ**﴾ [النحل: ٤٤]، والتفكر الصحيح يقود إلى تذكر حقائق الإيمان، وكلما تعرَّض العقل أكثر للقرآن وزاد تفكره فيه تفتحت نوافذه شيئًا فشيئًا، وزادت مساحة التذكر ليعود شيء من أثرها على القلب فيرسخ فيه وهو ما يُطلق عليه «التدبر» وهذه هي حقيقة عمل القرآن مع القلب: ﴿**كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ**﴾ [ص: ٢٩].

فالتدبر معناه: طلب دُبر الشيء، أي عاقبته، وما يؤول إليه معناه.. فآثار معاني التأله لله والإخلاص له والتوكل عليه والاستعانة به ومحبته وخشيته ورجائه وحُسن الظن فيه ومهابته وإجلاله وتعظيمه والخضوع له... عندما تصل تلك الآثار إلى القلب وترسخ فيه؛ حينئذ نكون قد سرنا في طريق التدبر وانتفاع القلب بالقرآن،

وكما قال عبدالله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وهو يصف صور الانتفاع الحقيقي بالقرآن: «...**إِنَّ قَوْمًا يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ لَا يُجَاوِزُ تَرَاقِيَهُمْ، وَلَكِنْ إِذَا وَقَعَ فِي الْقَلْبِ، فَرَسَخَ فِيهِ نَفَعَ**»[١].

.. فالتدبر مكانه القلب، أي أن العقل محل التفكر والتذكر، والقلب يتأثر ويتعظ، فإن انتفت عنه الموانع وفُتحت أقفاله يحدث التدبر أي وصول معاني القرآن ورسوخها فيه -بإذن الله- ومن ثم احتلالها جزءًا من مشاعره، وباستمرار التدبر تهيمن هذه المعاني على القلب فيُسلم كله لله، .. وفي قوله تعالى: ﴿ **أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ** ﴾ [محمد: ٢٤] إشارة إلى أن ما يمنع الناس من تدبر القرآن هي الأقفال التي تُغلق القلوب، لذلك فإن إطلاق لفظ تدبر القرآن دون توضيح المقصود منه قد يؤدي إلى الخلط بين التفكر العقلي والتدبر القلبي بل من المتوقع أن نتجه نحو التفكر العقلي لإمكانية قيامنا به من ناحية، ولصعوبة التدبر القلبي من ناحيةٍ أخرى.

إن تدبر القرآن عملٌ قلبي -غالبًا- لانستطيعه بسبب الأقفال التي تُغلق القلوب، أما اللفظ الصحيح الذي ينبغي أن نتعاطاه ويعبر عن واقعنا فهو: «**التفكر في القرآن**»، لأن التفكر أمر يقدر عليه الجميع -بإذن الله- بشيء من الجهد.

وحين نقرأ كلام العلماء بأهمية وضرورة تدبر القرآن فعلينا أن نستحضر هذا المعنى، وأن التدبر بمعناه الصحيح يستلزم التفكر والتذكر وفتح أقفال القلب وليس فقط إعمال العقل في فهم الآيات مهما كان تنوع المعاني المستخرجة.

الطريق إلى التدبر

إن التفكر الصحيح في آيات القرآن بنفسية الأُمِّي الشغوف للمعرفة؛ الذي

---

(١) رواه الإمام مسلم (١/ ٥٦٣ برقم: ٨٢٢).

يخشى لقاء الله ويبحث عما يزيده رجاءً فيه وحذرًا من عقابه سيثمر بعون الله وتوفيقه: تذكرًا واتعاظًا.. وكلما تعرض المرء بهذه النفسية للقرآن أكثر وأكثر وتجرد له تفتحت نوافذ عقله تدريجيًا، وزاد تذكره واتعاظه، ورق الحجاب المضروب على قلبه، حتى يزول ذلك الحجاب -بإذن الله- فتباشر حقائق الإيمان القلب وتحتل جزء معتبرًا من مشاعره، وشيئًا فشيئًا تزداد هذه المساحة حتى تصير لها الكلمة العليا في القلب بإذن الفتاح العليم، ويدوم ذلك مع استمرار تجرد المرء للقرآن بهذه النفسية ليصبح القلب بعد فترة ليست بالطويلة: قلبًا سليمًا أبيض لا تضره فتنة ما دامت السماوات والأرض.. نسأل الله عَزَّوَجَلَّ أن يمن علينا بمثل هذا القلب.

قال علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ألا إن الفقيه كل الفقيه، الذي لا يقنِّط الناس من رحمة الله، ولا يؤمنهم من عذاب الله، ولا يرخص لهم في معاصي الله،

ولا يدع القرآن رغبة عنه إلى غيره

ولا خير في عبادة لا علم فيها،

ولا خير في علم لا فهم فيه،

ولا خير في قراءة لا تدبر فيها(١).

من ثمرات التدبر

إن التدبر بمعناه الحقيقي هو الوسيلة الأكيدة لتحقيق الهدف من نزول القرآن، فهو بوابة التذكر والعظة والاعتبار، وهو الذي يؤجج -بإذن الله- الشعور بالندم تجاه ما يرتكبه المرء من آثام أو ما يقصر فيه من واجبات، وهو الطريق الآمِن لشحذ

---

(١) رواه أبو نعيم في الحلية (١/ ٧٧)، وذكره الغزالي في إحياء علوم الدين (١/ ٢٨٢) وقال: وإذا لم يتمكن من التدبر إلا بترديد فليردد.

الهمم وزيادة الإيمان، وتقوية الإرادة، وهو البداية الحقيقية للتخلق بأخلاق القرآن.

والتدبر الصحيح **لا بد أن يصحبه تجاوب** من المرء، وذلك بحسب الآيات المقروءة، فهناك آيات تستدعي التجاوب معها بالمشاعر واللسان، وهناك آيات تدفع المرء نحو العمل بمقتضاها.

فعندما نقرأ قوله تعالى: ﴿**إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ**﴾ [البقرة: ١٦٤].

.. عندما نتفكر فقط في هذه الآية وذلك بفهم معانيها -ولو بصورة إجمالية- ثم نتجاوزها لما بعدها فإننا بذلك نكون قد تفكرنا فيها دون تدبر، فالتدبر يستدعي التأمل فيها والتفكير فيما ينبغي أن نفعله تجاه ما دلَّت عليه الآية من تأجيج الشعور بعظمة الله وإكباره، ليترجم اللسان هذا الشعور بالتسبيح والحمد والثناء على الله جل شأنه.

وهكذا في بقية الآيات، فمن قرأ آيات ذكر الجنة وفَهمها ولكنه لم يتأملها ولم تتأجج مشاعر الشوق نحوها، ولم يترجم هذه المشاعر بسؤال الله دخولها فإنه بذلك لم يتدبرها.

ويشرح ذلك الإمام السيوطي فيقول: وصفة التدبر أن يشغل قلبه بالتفكر في معاني ما يلفظ به، ويتأمل الأوامر والنواهي، فإن كان مما قصر عنه فيما مضى: اعتذر واستغفر، وإذا مر بآية رحمة: استبشر وسأل، أو عذاب: أشفق وتعوذ، أو تنزيه: نزَّه وعظَّم، أو دعاء: تضرع وطلب[١].

(١) الإتقان في علوم القرآن للسيوطي (١/ ٢٨٣).

من أمثلة التدبر

ومن أمثلة التدبر التي جاء ذكرها في القرآن قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعۡيُنَهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلۡحَقِّۖ﴾ [المائدة: ٨٣]، فهؤلاء المذكورون في الآية استمعوا القرآن ففهموه، **وفاضت أعينهم من الدمع تأثرًا به**، ولم يكتفوا بذلك، بل تفكروا فيما ينبغي عليهم أن يفعلوه كنتيجة مترتبة على ما سمعوه، فماذا قالوا؟ ﴿رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكۡتُبۡنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ٨٣ وَمَا لَنَا لَا نُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلۡحَقِّ وَنَطۡمَعُ أَن يُدۡخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلصَّٰلِحِينَ ٨٤﴾ [المائدة: ٨٣، ٨٤].

ومن الأمثلة التي ذكرها القرآن لمفهوم التدبر قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ١٩٠ ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [آل عمران: ١٩٠، ١٩١]، فماذا أوصلهم هذا التفكر الصحيح والتأمل في آيات السماوات والأرض؟ ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقۡتَ هَٰذَا بَٰطِلٗا﴾ [آل عمران: ١٩١] فكانت النتائج والمآلات لهذا التفكر: ﴿سُبۡحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ١٩١ رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدۡخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدۡ أَخۡزَيۡتَهُۥۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٖ ١٩٢ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعۡنَا مُنَادِيٗا يُنَادِي لِلۡإِيمَٰنِ أَنۡ ءَامِنُواْ بِرَبِّكُمۡ فَـَٔامَنَّاۚ رَبَّنَا فَٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرۡ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلۡأَبۡرَارِ ١٩٣ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخۡزِنَا يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ إِنَّكَ لَا تُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ ١٩٤﴾ [آل عمران: ١٩١ - ١٩٤].

نماذج عملية من الجيل الأول

فإذا ما نظرنا إلى الجيل الأول -الجيل القرآني الفريد- لوجدنا تحقق هذه العلامة فيهم وبصورة جلية، وكان إمامهم في ذلك الرسول ﷺ.. يقول حذيفة بن اليمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: صليت مع النبي ﷺ ذات ليلة فافتتح البقرة، فقلت: يركع عند المائة، ثم مضى، فقلت:

يصلي بها في ركعة، فمضى، فقلت: يركع بها، ثم افتتح النساء فقرأها، ثم افتتح آل عمران فقرأها، **يقرأ مترسلًا، إذا مر بآية فيها تسبيح سبح، وإذ مر بسؤال سأل، وإذا مر بتعوذ تعوَّذ،** ثم ركع فجعل يقول: «**سُبْحَانَ رَبِّيَ الْعَظِيمِ**» فكان ركوعه نحوًا من قيامه، ثم قال: «**سَمِعَ اللهُ لِمَنْ حَمِدَهُ**»، ثم قام طويلاً قريبًا مما ركع، ثم سجد فقال: «**سُبْحَانَ رَبِّيَ الْأَعْلَى**» فكان سجوده قريبًا من قيامه(١).

وعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: كان النبي ﷺ يكثر أن يقول في ركوعه وسجوده: سُبْحَانَكَ اللَّهُم ربنا وبحمدك، اللهم اغفر لي، يتأول القرآن، وذلك بعد أن نزلت سورة النصر: ﴿**إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ١ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ٢ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا ٣**﴾(٢)

[النصر: ١ - ٣].

وعندما نزلت على رسول الله ﷺ: ﴿**لِّلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَإِن تُبۡدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ أَوۡ تُخۡفُوهُ يُحَاسِبۡكُم بِهِ ٱللَّهُۖ**﴾ الآية [البقرة: ٢٨٤]، اشتد ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ، فأتوا رسول الله ﷺ ثم بركوا على الركب، فقالوا: أي رسول الله، كلفنا من الأعمال ما نطيق: الصلاة والصيام والجهاد والصدقة، وقد أنزلت عليك هذه الآية، ولا نطيقها. قال رسول الله ﷺ: «**أَتُرِيدُونَ أَنْ تَقُولُوا كَمَا قَالَ أَهْلُ الْكِتَابَيْنِ مِنْ قَبْلِكُمْ: سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا؟ بَلْ قُولُوا: سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا، غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ**» قالوا: سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير، فلما اقترأها القوم، ذلت بها ألسنتهم فأنزل الله في إثرها: ﴿**ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ**﴾ الآية

(١) رواه مسلم (١/ ٥٣٦ برقم: ٧٧٢).

(٢) أصل الحديث في الصحيحين (البخاري ١/ ١٦٣ برقم: ٨١٧، ومسلم ١/ ٣٥٠ برقم: ٤٨٤) والتصريح بأن ذلك يعني سورة النصر عند عبد الرزاق في المصنف (٢/ ١٥٥ برقم: ٢٨٧٨).

[البقرة: ٢٨٥] فلما فعلوا ذلك نسخها الله تعالى، فأنزل الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿**لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ**﴾ [البقرة: ٢٨٦] قال: **نعم**، ﴿**رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ**﴾ [البقرة: ٢٨٦] قال: **نعم**، ﴿**رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ۖ**﴾ [البقرة: ٢٨٦] قال **نعم**، ﴿**وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ ۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ**﴾ [البقرة: ٢٨٦] قال: **نعم**[(١)].

وعن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿**ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ**﴾ [الأنعام: ٨٢] شق ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ، وقالوا: أينا لا يظلم نفسه؟ فقال رسول الله ﷺ: «**لَيْسَ هُوَ كَمَا تَظُنُّونَ، إِنَّمَا هُوَ كَمَا قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ:** ﴿**يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ**﴾»[(٢)] [لقمان: ١٣].

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: لما نزلت: ﴿**مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ**﴾ [النساء: ١٢٣] بلغت من المسلمين مبلغًا شديدًا، فقال رسول الله ﷺ: «**قَارِبُوا، وَسَدِّدُوا، فَفِي كُلِّ مَا يُصَابُ بِهِ الْمُسْلِمُ كَفَّارَةٌ، حَتَّى النَّكْبَةِ يُنْكَبُهَا، أَوِ الشَّوْكَةِ يُشَاكُهَا**»[(٣)].

وعن ابن أبي ذئب عن صالح قال: كنت جارًا لابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وكان يتهجد من الليل فيقرأ الآية ثم يسكت قدر ما حدثتك، وذاك طويل، ثم يقرأ. قلت: لأي شيء فعل ذلك؟ قال: من أجل التأويل يفكر فيه[(٤)].

---

(١) رواه مسلم (١/ ١١٥ برقم: ١٢٥).

(٢) رواه البخاري (١/ ١٥ برقم: ٣٢)، ومسلم (١/ ١١٤ برقم: ١٢٤)، واللفظ له.

(٣) رواه مسلم (٤/ ١٩٩٣ برقم: ٢٥٧٤).

(٤) مختصر قيام الليل للمروزي (ص: ٢١٥).

خامسًا: الشعور بالسكينة

من العلامات البارزة للاتصال الحقيقي بالقرآن: الشعور بالسكينة والطمأنينة والراحة والأمن والهدوء، فالسكينة بمثابة الخيمة التي تنزل من السماء فتُحيط بقارئ القرآن وتَفصِله عن الجو المحيط به، فيشعر وكأنه قد انغمس في الرحمة والطمأنينة..

عن البراء بن عازب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رجلًا كان يقرأ سورة الكهف وعنده فرس مربوط بشطنين(١) فتغشته سحابة فجعلت تدور وتدنو وجعل فرسه ينفر منها فلما أصبح أتى النبي ﷺ فذكر ذلك له فقال: «**تِلْكَ السَّكِينَةُ تَنَزَّلَتْ لِلْقُرْآنِ**»(٢).

قال النووي: المختار أنها شيء من المخلوقات فيه طمأنينة ورحمة ومعه الملائكة(٣).

إن القرآن -كما يقول عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- مأدبة الله، فمن دخل فيه فهو آمن(٤).

ومما يؤكد هذا المعنى قول رسول الله ﷺ: «**وَمَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ فِي بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ اللهِ يَتْلُونَ كِتَابَ اللهِ، وَيَتَدَارَسُونَهُ بَيْنَهُمْ إِلَّا نَزَلَتْ عَلَيْهِمُ السَّكِينَةُ، وَغَشِيَتْهُمُ الرَّحْمَةُ، وَحَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ، وَذَكَرَهُمُ اللهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ**»(٥).

---

(١) شطنين: مثنى شطن وهو الحبل الطويل.

(٢) رواه البخاري (٤/ ٢٠١ برقم: ٣٦١٤)، ومسلم (١/ ٥٤٧ برقم: ٧٩٥)، واللفظ له.

(٣) صحيح مسلم بشرح النووي (٦/ ٨٢).

(٤) رواه ابن المبارك في الزهد (برقم: ٧٨٧).

(٥) رواه مسلم (٤/ ٢٠٧٤ برقم: ٢٦٩٩).

والجدير بالذكر أن الشعور بالسكينة والراحة هو وصف للجو النفسي الذي يعيش فيه قارئ القرآن أو مستمعه، ولا يتنافى هذا الشعور مع تفاعل المشاعر مع الخطاب القرآني من رغبة ورهبة وإجلال لله، كمن يجلس في غرفة مكيفة الهواء في يوم شديد الحرارة، فإنه يشعر بالراحة، ولا يتنافى هذا الشعور مع بقية مشاعره التي قد تكون متأججة في اتجاه ما نتيجة لتعرضه لمؤثر أججها، كمن بلغه مرض أبيه أو ابنه فيقينًا ستتملكه مشاعر الحزن.. هذه المشاعر لا تتنافى مع الشعور بالراحة الذي يسببه مبرد الهواء.. والله أعلم.

ومن دلائل الاتصال الحقيقي بالقرآن:

سادسًا: الشعور بالسعادة والمتعة والأنس

ما هي السَّعادة؟

هي الشعور باللذة والمتعة، لذلك يسعى الناس جميعًا لتحصيلها بشتى الطرق.

والسعادة من مخلوقات الله: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ [الزمر: ٦٢]، وهي في خزائنه: ﴿وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ﴾ [الحجر: ٢١]، ولقد أخبرنا سبحانه أن اللقاء الصحيح بالقرآن يجلب لصاحبه السعادة: ﴿مَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لِتَشۡقَىٰٓ﴾ [طه: ٢] أي بل لتسعد.

﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ فَمِنۡهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمۡ زَادَتۡهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنٗاۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَهُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٤].

ومما يؤكد هذا المعنى ما جاء في قول رسول الله ﷺ: «**مَا أَصَابَ أَحَدًا قَط هَمٌّ وَلَا حَزَنٌ فَقَالَ: اللَّهُمَّ إِنِّي عَبْدُكَ، ابْنُ عَبْدِكَ، ابْنُ أَمَتِكَ، نَاصِيَتِي بِيَدِكَ، مَاضٍ فِيَّ حُكْمُكَ، عَدْلٌ فِيَّ قَضَاؤُكَ، أَسْأَلُكَ بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ، سَمَّيْتَ بِهِ نَفْسَكَ، أَوْ عَلَّمْتَهُ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ، أَوْ أَنْزَلْتَهُ فِي كِتَابِكَ، أَوِ اسْتَأْثَرْتَ بِهِ فِي عِلْمِ الْغَيْبِ عِنْدَكَ؛ أَنْ تَجْعَلَ الْقُرْآنَ الْعَظِيمَ رَبِيعَ قَلْبِي، وَنُورَ صَدْرِي، وَجَلَاءَ حُزْنِي، وَذَهَابَ هَمِّي**»(١).

يقول ابن القيم في قوله ﷺ: «**أَنْ تَجْعَلَ الْقُرْآنَ الْعَظِيمَ رَبِيعَ قَلْبِي، وَنُورَ صَدْرِي**»

---

(١) رواه أحمد (٦/ ٢٤٦ برقم: ٣٧١٢)، والبزار (٥/ ٣٦٣ برقم: ١٩٩٤)، وابن حبان (٣/ ٢٥٣ برقم: ٩٧٢)، والطبراني في المعجم الكبير (١٠/ ١٦٩) عن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وحسنه ابن حجر في نتائج الأفكار (٤/ ١٠٠).

الربيع: المطر الذي يحيي الأرض، شبه القرآن به؛ لحياة القلوب به.. ولما كان الحزن والهم والغم يضاد حياة القلب واستنارته سأل أن يكون ذهابها بالقرآن، فإنها أحرى ألا تعود، وأما إذا ذهبت بغير القرآن من صحة أو دنيا أو زوجة أو ولد فإنها تعود بذهاب ذلك(١).

وفي هذا الدعاء دلالة واضحة على أن القرآن من أهم أسباب إزالة الهموم والأحزان، واستجلاب السعادة والفرح، ولو تأملنا في الدعاء لوجدنا أنه مرتبط ارتباطًا وثيقًا بالتعامل مع القرآن، فالرسول ﷺ يعلمنا أن نسأل الله عَزَّوَجَلَّ بأن يجعل القرآن سببًا لحياة القلب وإزالة همومه وغمومه، وهل يمكن للقرآن أن يفعل ذلك دون اللقاء به؟!

.. كلا، فإن الانتفاع بهذا الدعاء في الحقيقة يستلزم اللقاء مع القرآن تلاوة أو استماعًا.

وفي هذا المعنى يقول الإمام ابن تيمية:

«إن اللذة والفرح والسرور، وطيب الوقت والنعيم الذي لا يُمْكن التعبير عنه، إنما هو في معرفة الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى وتوحيده والإيمان به، وانفتاح الحقائق الإيمانية، والمعارف القرآنية»(٢).

وهذا يفسر لنا سبب تحمُّل عبَّاد بن بشر رَضِوَاللَّهُعَنْهُ آلام السهام الثلاثة التي أصابت جسده وهو يقرأ القرآن، فالروعة التي ملأت قلبه أنسته تلك الآلام.

ففي غزوة ذات الرقاع يقول جابر بن عبد الله رَضِوَاللَّهُعَنْهُمَا: «خرجنا مع رسول الله

---

(١) الفوائد لابن القيم (ص: ٣٩، ٤٠).

(٢) رسائل ابن تيمية من السجن (ص: ٣١).

ﷺ في غزوة ذات الرقاع، فأصيبت امرأة من المشركين، فلما انصرف رسول الله ﷺ قافلًا، وجاء زوجها وكان غائبًا، فحلف أن لا ينتهي حتى يهريق دمًا في أصحاب محمد ﷺ، فخرج يتبع أثر النبي ﷺ، فنزل النبي ﷺ منزلًا، فقال: «**مَنْ رَجُلٌ يَكْلَؤُنَا لَيْلَتَنَا هَذِهِ؟**» فانتدب رجل من المهاجرين، ورجل من الأنصار، فقالا: نحن يا رسول الله، قال: «**فَكُونُوا بِفَمِ الشِّعْبِ**»، قال: وكانوا نزلوا إلى شعب من الوادي، فلما خرج الرجلان إلى فم الشعب، قال الأنصاري للمهاجري: أي الليل أحب إليك أن أكفيكه؟ أوله أو آخره؟ قال: اكفني أوله، فاضطجع المهاجري فنام، وقام الأنصاري يصلي، وأتى الرجل، فلما رأى شخص الرجل عرف أنه ربيئة القوم، فرماه بسهم، فوضعه فيه، فنزعه فوضعه، وثبت قائمًا، ثم رماه بسهم آخر، فوضعه فيه، فنزعه فوضعه، وثبت قائمًا، ثم عاد له بثالث، فوضعه فيه، فنزعه فوضعه، ثم ركع وسجد، ثم أهب صاحبه، فقال: اجلس فقد أوتيت، فوثب، فلما رآهما الرجل عرف أن قد نذروا به فهرب، فلما رأى المهاجري ما بالأنصاري من الدماء، قال: سبحان الله؛ ألا أهببتني؟! قال: كنت في سورة أقرؤها، فلم أحب أن أقطعها حتى أنفذها، فلما تابع الرمي ركعت فأريتك.. وايم الله، لولا أن أضيع ثغرًا أمرني رسول الله ﷺ بحفظه، لقطع نفسي قبل أن أقطعها، أو أنفذها[1].

فالقرآن كما يقول محمد بن واسع: «بستان العارفين، فأينما حلوا منه حلوا في نزهة»[2].

وهذا عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يصف شعوره وهو يقرأ سور آل حم فيقول:

---

(١) علقه البخاري في الصحيح (١/ ٤٦)، ورواه أحمد في المسند واللفظ له (٢٣/ ٥١ برقم: ١٤٧٠٤)، وأبو داود (١/ ١٤١ برقم: ١٩٨)، وابن خزيمة (١/ ٢٤ برقم: ٣٦)، وابن حبان (٣/ ٣٧٥ برقم: ١٠٩٦)، والحاكم (١/ ٢٥٨ برقم: ٥٥٧)، وقال: صحيح الإسناد، ووافقه الذهبي.

(٢) حلية الأولياء (٢/ ٣٤٧).

«إذا وقعت في آل حم وقعت في روضات دمثات أتأنق فيهن»[(١)].

وكان عثمان بن عفان رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ يقول: «لو طهرت قلوبكم ما شبعتم من كلام الله»[(٢)].

دعني أستمتع بالقرآن

عن عبد الله بن عمرو رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا قال: جمعت القرآن، فقرأت به في كل ليلة، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، فقال:

«**إِنِّي أَخْشَى أَنْ يَطُولَ عَلَيْكَ زَمَانٌ أَنْ تَمَلَّ اقْرَأْهُ فِي كُلِّ شَهْرٍ**»، قلت: يا رسول الله، دعني أستمتع من قوتي وشبابي، قال: «**اقْرَأْهُ فِي كُلِّ عِشْرِينَ**»، قلت: يا رسول الله، دعني أستمتع من قوتي وشبابي، قال: «**اقْرَأْهُ فِي عَشْرٍ**»، قلت: يا رسول الله، دعني أستمتع من قوتي وشبابي، قال: «**اقْرَأْهُ فِي كُلِّ سَبْعٍ**»، قلت: يا رسول الله، دعني أستمتع من قوتي وشبابي، **فأَبَى**»[(٣)].

فقول عبد الله بن عمرو:

«دعني أستمتع من قوتي وشبابي»، وتكرار ذلك يدل دلالة واضحة على أن القرآن عندهم كان مصدر السعادة والمتعة، فهو يريد أن يستمتع بشبابه وقوته بالإكثار من تلاوة القرآن.

---

(١) رواه ابن أبي شيبة في المصنف (٦/ ١٥٣ برقم: ٣٠٢٨٥)، والروضة الدمثة: اللينة الموطئ السهلة الخضرة، ومعنى أتأنق فيهن: أتتبع محاسنهن، وأعجب بهن، وأستلذ قراءتهن، وأتمتع بمحاسنهن. [لسان العرب: أنق ١٠/ ٩].

(٢) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء (٧/ ٣٠٠).

(٣) رواه أحمد في المسند (١١/ ٦٧ برقم: ٦٥١٦)، واللفظ له، والبخاري (٦/ ١٩٦ برقم: ٥٠٥٢)، ومسلم (٢/ ٨١٤ برقم: ١١٥٩).

ويؤكد الحسن البصري على هذه العلامة فيقول: تفقدوا الحلاوة في الصلاة، **وفي القرآن**، وفي الذكر، **فإن وجدتموها فامضوا وأبشروا، وإن لم تجدوها فاعلموا أن الباب مغلق**.

وكان مالك بن دينار يقول: «إن الصديقين إذا قُرئ عليهم القرآن طربت قلوبهم إلى الآخرة»[(١)].

فالشعور بالسعادة واللذة علامة مميزة للاتصال الحقيقي بالقرآن، يقول فضل الرقاشي: ما تلذذ العابدون، ولا استطارت قلوبهم بشيء كحسن الصوت بالقرآن، وكل قلب لا يجيب على حسن الصوت بالقرآن فهو قلب ميت[(٢)].

وتصف إحدى جيران داود الطائي حاله بالليل فتقول: كان بيننا وبين داود الطائي حائط قصير، فكنت أسمع حنينه عامة الليل لا يهدأ، قالت: وربما سمعته يقول في جوف الليل: اللهم همك عطل عليَّ الهموم، وحالف بيني وبين السُهَّاد، وشوقي إلى النظر إليك منع مني اللذات والشهوات، فأنا في سجنك أيها الكريم مطلوب قالت: **ولربما ترنم في السحر بشيء من القرآن فأرى أن جميع نعيم الدنيا جمع في ترنمه تلك الساعة**[(٣)].

ونختم الكلام عن هذه العلامة بقوله ﷺ: «**أَلَا مَنِ اشْتَاقَ إِلَى اللهِ فَلْيَسْمَعْ كَلَامَ اللهِ، فَإِنَّ مَثَلَ الْقُرْآنِ كَمَثَلِ جِرَابِ مِسْكٍ أَيَّ وَقْتٍ فَتَحْتَهُ فَاحَ رِيحُهُ**»[(٤)].

---

(١) الزهد لأحمد بن حنبل (ص: ٣٠٠ برقم: ١٩٠٠).

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في الرقة والبكاء (برقم: ٨٠)، وأبو نعيم في حلية الأولياء (٦/ ٢٠٧).

(٣) حلية الأولياء (٧/ ٣٥٦).

(٤) رواه الديلمي في مسند الفردوس (١/ ١٣٨).

ومن علامات أهل القرآن:

سابعًا: تحصِيل الغِنَى

إن أهل القرآن هم أغنى أهل الأرض **وذلك بالمفهوم الحقيقي للغنى**.

فغنى المرء هو شعور يتملكه بعدم الرغبة والاحتياج لما في أيدي الآخرين، وهذا ما يُطلق عليه «الاستغناء عن الناس» أما حين تجد شخصًا دائم النظر لما في أيدي غيره، شديد التوق والتلهف لتحصيله؛ فهذا الشخص من أشد الناس فقرًا وإن كان يمتلك كنوز الدنيا، ويؤكد هذا المعنى قول رسول الله ﷺ: «**لَيْسَ الْغِنَى عَنْ كَثْرَةِ العَرَضِ، وَلَكِنَّ الْغِنَى غِنَى النَّفْسِ**»[1].

فالعزُّ والغنى الحقيقيان في الاستغناء عن الناس، كما قال جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ للنبي ﷺ: «... **وَاعْلَمْ أَنَّ شَرَفَ الْمُؤْمِنِ قِيَامُ اللَّيْلِ، وَعِزَّهُ اسْتِغْنَاؤُهُ عَنِ النَّاسِ**»[2].

فالفقر الحقيقي هو الرغبة فيما عند الآخرين، والغنى الحقيقي هو انصراف الرغبة عما لديهم.

فإن قلت: ولكن مشاعر الاحتياج والرغبة ملازمة للإنسان ولا يمكنه الانفكاك عنها، فكيف يستغني عن الناس؟

يجيب عن هذا قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿**وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرًا**﴾ [النساء: ٤٥]؛ فالافتقار التام والمطلق إلى الله، والاستغناء به عن كل ما سواه هو الغنى الذي ليس

(١) رواه البخاري (٨/ ٩٥ برقم: ٦٤٤٦)، ومسلم (٢/ ٧٢٦ برقم: ١٠٥١).

(٢) رواه الطبراني في الأوسط (٤/ ٣٠٦ برقم: ٤٢٧٨)، وحسنه المنذري في الترغيب والترهيب (١/ ٢٤٣)، ورواه الحاكم في المستدرك (٤/ ٣٦٠ برقم: ٧٩٢١) وصححه، ووافقه الذهبي.

بعده غنى، وهو ما يطلق عليه: «الاكتفاء بالله» ويشهد له ما يؤثر من الدعاء: «اللهم اجعلني أغنى خلقك بك، وأفقر خلقك إليك».

فمن وجد الله فقد وجد كل شيء، ومن فقد الله فقدْ فقدَ كل شيء.. «إلهي ماذا وجد من فقدك؟! وماذا فقد من وجدك؟!».

يقول ابن رجب: ومما ينشأ من معرفة الله تعالى: محبته والاكتفاء به، والاستغناء به عن خلقه[١].

وأعظم وسيلة لتحصيل المعرفة بالله تعالى والاستغناء به هي القرآن.. يقول رسول الله ﷺ: «**الْقُرْآنُ غِنًى لَا فَقْرَ بَعْدَهُ وَلَا غِنَاءَ دُونَهُ**»[٢].

إن تحصيل الغنى من خلال القرآن من أهم علامات أهل القرآن، ومن أعظم ثمار الاتصال الحقيقي به، ويكفيك في هذا قوله تعالى لنبيه ﷺ: ﴿**وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ**﴾ [الحجر: ٨٧، ٨٨].

فالآيات تخاطب الرسول ﷺ وأمته من بعده وكأنها تقول له: لقد أنعمنا عليك يا محمد بمصدر الغنى الحقيقي، بالفاتحة والقرآن العظيم «فلا تعجب بما عند الآخرين إعجابًا يحملك على إشغال فكرك بشهوات الدنيا التي تمتع بها المترفون، واغتر بها الجاهلون، واستغن بما آتاك الله من المثاني والقرآن العظيم»[٣].

---

(١) استنشاق نسيم الأنس من مجموع رسائل ابن رجب (٣/ ٣٣٩).

(٢) رواه المروزي في مختصر قيام الليل (ص: ١٧٥)، وأبو يعلى في المسند (٥/ ١٥٩ برقم: ٢٧٧٣)، والطبراني في الكبير (١/ ٢٥٥).

(٣) تيسير الكريم الرحمن للسعدي (ص: ٤٣٤).

يقول سفيان بن عيينة: من أُعطي القرآن فمد عينيه إلى شيء مما صغَّر القرآن فقد خالف القرآن.. ألم تسمع إلى قوله سبحانه وتعالى: ﴿**وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا**﴾ [1] [طه: ١٣١].

إن صاحب القرآن يشعر بأنه قد حيزت له الدنيا بأسرها، بل يرى كل ما عليها صغيرًا وضئيلًا بجوار ما أكرمه به ربه من نعيم الاتصال بالقرآن، فلا تجده يمد عينيه أو يطيل النظر إلى ما عند الآخرين مهما أوتوا من متاع الدنيا، وتجده كذلك لا يتابع بشغف أخبار العملات والأراضي والعقارات والسيارات، فعنده ما يكفيه، لأنه أصبح ذا ميزان قرآني رباني يعظم ما عظم الله، ويحقر ما حقره الله، فتجده يترجم عمليًّا: ﴿**قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ**﴾ [النساء: ٧٧] فيرى أن كل متاع الدنيا منذ أن خلقت إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها قليل.

---

(١) فضائل القرآن لأبي عبيد (ص: ١١٤).

ومن تلك العلامات:

ثامناً: آثار مادية على الجسد

من علامات الاتصال الحقيقي بالقرآن ظهور آثار التفاعل معه على الجسد.. من هذه الآثار:

البكاء: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ﴾ [المائدة: ٨٣].

﴿إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾ [مريم: ٥٨].

ولما مرض النبي ﷺ فاشتد مرضه، فقال: «**مُرُوا أَبَا بَكْرٍ فَلْيُصَلِّ بِالنَّاسِ**» قالت عائشة: إنه رجل رقيق، إذا قام مقامك لم يستطع أن يصلي بالناس، قال: «**مُرُوا أَبَا بَكْرٍ فَلْيُصَلِّ بِالنَّاسِ**» فعادت، فقال: «**مُرِي أَبَا بَكْرٍ فَلْيُصَلِّ بِالنَّاسِ، فَإِنَّكُنَّ صَوَاحِبُ يُوسُفَ**»(١).

ومنها: قشعريرة الجلد: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الزمر: ٢٣].

وعندما سأل عبد الله بن عروة بن الزبير جدته أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنها عما كان أصحاب رسول الله ﷺ يفعلون إذا قُرئ عليهم القرآن؟ قالت: «كانوا كما نعتهم الله، تدمع أعينهم وتقشعر جلودهم»(٢).

وكان عبد الرحمن بن عوف يقرأ القرآن على عبد الله بن عباس رضي الله عنهما، فماذا كان حاله؟

---

(١) رواه البخاري (١/ ١٣٦ برقم: ٦٧٨).

(٢) رواه ابن المبارك في الزهد (١/ ٣٥٩ برقم: ١٠١٦).

يقول ابن عباس: «فلم أر رجلًا يجد من الْقَشْعَرِيرَةِ ما يجد عبد الرحمن بن عوف عند القراءة»[١].

ومنها: شيب الرأس: فقد دخل أبو بكر الصديق يومًا على رسول الله ﷺ فقال له: يا رسول الله قد شبت قال: «**شَيَّبَتْنِي هُودٌ وَالْوَاقِعَةُ وَالْمُرْسَلَاتُ وَعَمَّ يَتَسَاءَلُونَ وَإِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ**»[٢].

ومنها: صفرة لون الوجه: يقول محمد بن كعب القرظي: «كنا نعرف قارئ القرآن بصفرة اللون»[٣].

ويصف الإمام علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ صحابة رسول الله ﷺ فيقول: والله لقد رأيت أصحاب محمد ﷺ فما أرى اليوم شيئًا يشبههم لقد كانوا يصبحون صُفرًا غبرًا، بين أعينهم أمثال ركب المعزى، قد باتوا سجدًا وقيامًا، يتلون كتاب الله، يراوحون بين جباههم وأقدامهم، فإذا أصبحوا فذُكر الله مادوا كما تميد الشجر في يوم الريح، وهملت أعينهم حتى تبل ثيابهم، والله لكأن القوم باتوا غافلين[٤].

ويقول الحسن البصري: «والله لا يؤمن عبد بهذا القرآن إلا حزِن وذبل، وإلا نصب، وإلا ذاب، وإلا تعب»[٥].

وكان رَحِمَهُ ٱللَّهُ يحلف بالله يقول: «والله يا ابن آدم، لئن قرأت القرآن ثم آمنت به، ليطولن في الدنيا حزنك، وليشتدَّن في الدنيا خوفك، وليكثرنَّ في الدنيا بكاؤك»[٦].

---

(١) الانتصار للقرآن للباقلاني (١/ ٢٠١)، ومختصر قيام الليل لمحمد بن نصر (ص: ١٤٤).

(٢) رواه الترمذي (٥/ ٤٠٢ برقم: ٣٢٩٧) وقال: حديث حسن غريب، والحاكم (٢/ ٣٧٤ برقم: ٣٣١٤)، وصححه، ووافقه الذهبي.

(٣) فضائل القرآن لأبي عبيد (ص: ١١٢).

(٤) رواه ابن أبي الدنيا في التهجد وقيام الليل (برقم: ٢٠٦)، وأبو نعيم في الحلية (١/ ٧٦).

(٥) حلية الأولياء (٢/ ١٣٣).

(٦) الزهد لأحمد بن حنبل (ص: ٢١٠ برقم: ١٤٥٣).

تاسعًا: المبادرة والمسارعة لفعل الخير

من أبرز علامات حسن الاتصال بالقرآن: ما يحدث للمرء بعد اللقاء به من مبادرة ومسارعة لفعل الخير بصوره المختلفة... إنفاق في سبيل الله، ودعوة إليه، وجهاد في سبيله، ومن بر، وصلة، وسعي في قضاء حوائج الناس.. فالقرآن يعطي لصاحبه شحنة إيمانية عالية تجعله في حالة من التوقد والاستعداد للبذل والتطبيق الآني والانبعاث نحو كل ما يقربه من حبيبه ومولاه.

ويقص علينا القرآن مثالًا للتأثير المباشر للاتصال به في المسارعة للخيرات، وهو ما حدث للنفر من الجن حين استمعوا القرآن، وتأثروا به، وفهموا مقصوده، فسارعوا إلى قومهم ينذرونهم، ويدعونهم إلى الإيمان بالله: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ۖ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا۟ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾﴾ [الأحقاف: ٢٩ - ٣١].

«لقد استمعوا صامتين منتبهين حتى النهاية، فلما انتهت التلاوة لم يلبثوا أن سارعوا إلى قومهم، وقد حملت نفوسهم ومشاعرهم منه ما لا تطيق السكوت عليه أو التلكؤ في إبلاغه والإنذار به. وهي حالة مَن امتلأ حسه بشيء جديد، وحفلت مشاعره بمؤثر قاهر غلاب، يدفعه إلى الحركة به، والاحتفال بشأنه، وإبلاغه للآخرين في جد واهتمام.

.. لقد مضوا في نذارتهم لقومهم في حماسة المقتنع المندفع، الذي يحس أن عليه واجبًا في النذارة لا بد أن يؤديه»[1].

(١) في ظلال القرآن (٦/ ٣٢٧٣، ٣٢٧٤).

ومما يؤكد هذا المعنى ما كان يحدث للرسول ﷺ، يقول ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: كان رسول الله ﷺ يعرض الكتاب على جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ في كل رمضان، فإذا أصبح رسول الله ﷺ من الليلة التي يعرض فيها ما يعرض، أصبح وهو أجود من الريح المرسلة، لا يُسأل عن شيء إلا أعطاه(١).

وهذا أبو طلحة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقرأ سورة (براءة) فأتى على هذه الآية: ﴿ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾ [التوبة: ٤١] فقال: أرى ربنا استنفرنا شيوخًا وشبابًا، جهزوني يا بني، فقال بنوه: يرحمك الله، قد غزوت مع رسول الله ﷺ حتى مات، ومع أبي بكر حتى مات، ومع عمر حتى مات، فنحن نغزو عنك، فأبى، فجهزوه فركب البحر فمات، فلم يجدوا له جزيرة يدفنوه فيها إلا بعد سبعة أيام، فلم يتغير، فدفنوه فيها(٢).

وخرج عبد الرحمن بن يزيد مرة وهو يريد أن يُجاعل في بعث خرج عليه، ثم أصبح يتجهز، فقيل له: ألم تكن أردت أن تجاعل؟ فقال: بلي، ولكن قرأت البارحة سورة براءة فسمعتها تحث على الجهاد(٣).

---

(١) رواه أحمد (٣/ ٤٨١ برقم: ٢٠٤٢)، واللفظ له، والبخاري (١/ ٨ برقم: ٦)، ومسلم (٤/ ١٨٠٣ برقم: ٢٣٠٨).

(٢) رواه أحمد بن حنبل في الزهد (برقم: ١٤٠٦)، وابن حبان في صحيحه (١٦/ ١٥٢ برقم: ٧١٨٤)، والحاكم في المستدرك (٢/ ١١٤ برقم: ٢٥٠٣)، وقال: إسناده صحيح على شرط مسلم، ووافقه الذهبي.

(٣) فضائل القرآن لأبي عبيد (ص: ٢٤٣)، والجُعل مبلغ من المال يعطيه من وجب عليه الجهاد لرجل آخر ليخرج مكانه.

ومن علامات أهل القرآن:

عاشرًا: التعلق بتلاوته وعدم الاستغناء عنها

التعلق الشديد بالشيء: عدم القدرة على الاستغناء عنه، ودوام التفكير فيه، وانتظار وقت الحصول عليه بشغف وترقب.. وهذا ما يحدث لكل من اتصل اتصالًا حقيقيًا بالقرآن.

فصاحب القرآن الذي يتزلزل عند قراءته ويعيش معه في جو من السكينة، ويشعر بالسعادة والأنس والغنى.. لا يطيق أن يمر عليه يوم دون لقائه، مهما كانت مشاغله، مُنطَلَقُه في ذلك ليس أداء الواجب، بل لأنه قد أدمن تلاوته، ومن ثم فإن قلبه لا يقِر، ومشاعره لا تسكن إلا بلقياه، كالرضيع الذي لا يهدأ أو يستكين إلا في حضن أمه.

والناظر لأحوال النبي ﷺ يجده كذلك لا يفوِّت يومًا ولا ليلة دون تلاوة للقرآن، وقد مر علينا في حديث حذيفة أنه ﷺ قرأ في ركعة سورة البقرة والنساء وآل عمران.

وعندما جاءه وفد ثقيف أنزلهم في قبة بالمسجد وكان يأتيهم بعد العشاء فيعلمهم الإسلام، فتأخر عليهم ليلة ثم أتاهم، فقالوا له: يا رسول الله لبثت عنا الليلة أكثر مما كنت تلبث! فقال:

«نَعَمْ، طَرَأَ عَلَيَّ حِزْبِي مِنَ الْقُرْآنِ، فَكَرِهْتُ أَنْ أَخْرُجَ مِنَ الْمَسْجِدِ حَتَّى أَقْضِيَهُ»(١).

---

(١) رواه أحمد (٢٦/ ٨٨ برقم: ١٦١٦٦)، وابن ماجه (٢/ ٣٦٩ برقم: ١٣٤٥)، وأبو داود (٢/ ٥٤٠ برقم: ١٣٩٣)، وحسنه ابن كثير في فضائل القرآن (ص: ٨٣).

وكان ﷺ يسير يومًا فسمع امرأة تقرأ: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَٰشِيَةِ﴾ [الغاشية: ١]، فقام يستمع إليها ويقول: «نَعَمْ قَدْ جَاءَنِي»(١).

وكذلك كان أصحابه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، فعن عبد الرحمن بن عبدٍ القارِّي قال: استأذنت على عمر بالهاجرة، فحبسني طويلًا ثم أذِن لي، وقال: كنت في قضاء وردي(٢).

وعندما أرسل رسول الله ﷺ معاذًا بن جبل وأبا موسى الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا إلى اليمن انطلق كل واحد منهما إلى عمله وكان كل واحد منهما إذا سار في أرضه وكان قريبًا من صاحبه أحدث به عهدًا فسلم عليه فسار معاذ في أرضه قريبًا من صاحبه أبي موسى فجاء يسير على بغلته حتى انتهى إليه.

وفيه: قال معاذ يا عبد الله كيف تقرأ القرآن؟ قال أتفوقه تفوقًا، قال فكيف تقرأ أنت يا معاذ؟ قال أنام أول الليل فأقوم وقد قضيت جزئي من النوم فأقرأ ما كتب الله لي فأحتسب نومتي كما أحتسب قومتي(٣).

وكان عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إذا دخل بيته نشر المصحف وقرأ فيه(٤).

ودخلوا على عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وهو يقرأ في المصحف فقال: والله إني لأكره أن يأتي عليَّ يوم لا أنظر فيه في عهد الله عَزَّ وَجَلَّ(٥).

---

(١) عزاه ابن كثير في التفسير لابن أبي حاتم.

(٢) فضائل القرآن لأبي عبيد (ص: ١٨٥).

(٣) رواه البخاري (٥/ ١٦١ برقم: ٤٣٤١)، ومعنى: أتفوقه تفوقًا: أي أَقرؤه مُتَمَهِّلًا شيئًا بعد شيء بتدبر وتفكر (لسان العرب ٢/ ٥٧٩).

(٤) رواه الطبري في التفسير (١١/ ٤٩٩).

(٥) رواه عبد الله بن أحمد بن حنبل في السنة (١/ ١٤٧)، والبيهقي في الشعب (٣/ ٥١١).

وكان عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إذا أصبح أمر غلامه فنشر المصحف فقرأه عليه[١].

وقيل لنافع: ما كان يصنع ابن عمر في منزله؟ قال: لا تطيقونه: الوضوء لكل صلاة والمصحف بينهما[٢].

وكانوا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ يقرءون القرآن الساعات الطوال كل يوم، فكان منهم من يختمه في سبعة أيام ومنهم في نصف شهر ومنهم في شهر.

عن عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «**أَمَرَهُ أَنْ يَقْرَأَهُ فِي أَرْبَعِينَ، ثُمَّ فِي شَهْرٍ، ثُمَّ فِي عِشْرِينَ، ثُمَّ فِي خَمْسِ عَشَرَةَ، ثُمَّ فِي سَبْعٍ، قَالَ: انْتَهَى إِلَى سَبْعٍ**»[٣].

وكان ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقرأ القرآن من الجمعة إلى الجمعة، وفي رمضان في كل ثلاث، وما يستعين عليه من النهار إلا باليسير[٤].

وكان أُبي بن كعب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يختم القرآن في ثمان ليال[٥].

وكان تميم الداري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يختمه في كل سبع[٦].

وإن تعجب فاعجب من حالهم في المعارك، فمع شدة تعبهم وإجهادهم في

---

(١) ذكره القرطبي في التذكار (١٨١- ١٨٥).

(٢) رواه ابن سعد في الطبقات (٤/ ٧٠).

(٣) مر بمعناه من رواية الإمام أحمد في المسند وفي الصحيحين، ورواه بهذا اللفظ أبو داود (٢/ ٥٤٢ برقم: ١٣٩٥).

(٤) رواه سعيد بن منصور في سننه، من جزء التفسير الذي حققه الدكتور سعد آل حميد (٢/ ٤٤٨ برقم: ١٤٩، ١٥٠)، والبيهقي في السنن الكبرى (٢/ ٣٩٦).

(٥) فضائل القرآن لأبي عبيد (ص: ١٧٧).

(٦) رواه ابن أبي شيبة في المصنف (٢/ ٢٤٢ برقم: ٨٥٧٦).

القتال بالنهار إلا أن ذلك لم يكن يثنيهم عن قيام الليل وتلاوة القرآن كما حدث في القادسية:

فبعد انتهاء المعركة وانتصار المسلمين كتب قائد الجيش سعد بن أبي وقاص كتابًا إلى الخليفة عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا يخبره فيه بالنصر، فكان مما جاء فيه:... وأصيب من المسلمين سعد بن عبيد القاري، وفلان وفلان، ورجال من المسلمين لا يعلمهم إلا الله، فإنه بهم عالم.. كانوا يدوُّون بالقرآن إذا جَنَّ عليهم الليل كدويِّ النحل، وهم آساد في النهار لا تشبههم الأسود(١).

لو أردت أخي تفسيرًا لذلك فلن تجد إلا أن حب الله وحب كلامه قد استولى على مشاعرهم وجعلهم في شوق دائم لتلاوة آياته لتهدأ ثائرة مشاعرهم ويتقلبوا في جو من السعادة والأنس لا يوجد له مثيل في دنياهم.

كان يحيى بن معاذ يقول: أشتهي من الدنيا شيئين: بيتًا خاليًا، ومصحفًا جيد الخط أقرأ فيه القرآن(٢).

---

(١) رواه الطبري في التاريخ (٣/ ٥٨٣).

(٢) التذكار في أفضل الأذكار للقرطبي (ص: ١٧٨).

وصية جامعة

ونختم هذه المظاهر العشرة بوصية جامعة قيلت من أحد السلف.. علينا أن نجتهد في تطبيقها قدر استطاعتنا.

«اعلموا أن هذا القرآن هو الناصح الذي لا يغش، والهادي الذي لا يضل، والمحدث الذي لا يكذب، وما جالس هذا القرآنَ أحدٌ إلا قام عنه بزيادة أو نقصان، زيادة في هدى، أو نقصان من عمى.

واعلموا أنه ليس على أحد بعد القرآن من فاقة، ولا لأحد قبل القرآن من غنى، فاستشفوه من أدوائكم، واستعينوا به على لأوائكم، فإن فيه شفاءً من أكبر الداء، وهو الكفر والنفاق، والغي والضلال، فاسألوا الله به، وتوجهوا إليه بحبه، ولا تسألوا به خلقه؛ إنه ما توجه العباد إلى الله تعالى بمثله.

واعلموا أنه شافع مشفَّع، وماحل مصدَّق، وأنه من شفع له القرآن يوم القيامة شُفِّع فيه، ومن محل به القرآن يوم القيامة صدق عليه، فإنه ينادي مناد يوم القيامة:

ألا إن كل حارث مبتلى في حرثه وعاقبة عمله، غير حرَثَةِ القرآن.

فكونوا من حرثته وأتباعه، واستدلوه على ربكم، واستنصحوه على أنفسكم، واتهموا عليه آراءكم، واستغشوا فيه أهواءكم».

وفي النهاية

أخي القارئ..

ها نحن قد وصلنا بفضل الله إلى نهاية الكتاب...

.. فهل وصلتنا رسالته؟

.. هل أدركنا حجم الجُرم الذي ارتكبناه في حق القرآن ؟!

.. هل شعرنا بالاحتياج الحقيقي إليه؟!

.. هل تاقت أنفسنا إلى روحه وعلمه وهدايته وشفائه بإذن الله؟!

إياك أخي أن تجيب بالنفي، فهذا معناه خطير، خطير..

إننا نعاقب، كل يوم، بسبب تعاملنا الخاطئ مع القرآن، ولا سبيل لرفع تلك العقوبات إلا بالعودة الحقيقية إليه.

يقينًا ليس أمامنا خيارات أخرى..

ليس أمامنا إلا طريق واحد؛ إذا أردنا خيرًا حقيقيًّا لأنفسنا وأمتنا.

والحمد لله الذي هدانا لهذا، وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله.

وصلِّ اللهم على سيدنا محمد، وعلى آله، وصحبه وسلم.

فهرس الموضوعات

الموضوع **الصفحة**

المقـــدمة ٥

الفصل الأول
بل نحن محرومون

بل نحن محرومون!! ١٥
الاختبارات الكاشفة ٢٤
أخطر صور الحرمان.. ٢٩

الفصل الثاني
لماذا حُرمنا الانتفاع بالقرآن؟!

لماذا حُرِمناالانتفاع بالقرآن؟!.. ٣٣
الجزاء من جنس العمل.. ٤٤
أليست آيات القرآن من آيات الله؟ ٥٤
الخسارة العظيمة والعقوبات المتوقعة ٥٦

الفصل الثالث
صور وأشكال العقوبة

صور وأشكال العقوبة ٦٥
هل فُتح القرآن؟ ٦٨
الفارق بين تخفيف القرآن وتيسيره للذكر ٧١
الصمم والعمى ٧٦
الحرمان المُخيف ٧٨

الموضوع **الصفحة**

هل سيرفع القرآن؟! ٧٨

الفصل الرابع
ماذا نخسر بعدم انتفاعنا بالقرآن؟

ماذا نخسر بعدم انتفاعنا بالقرآن؟! ٨٩

وضوح وصراحة ١٠٤

من نتائج عدم التغيير بالقرآن ١٠٧

استمرار الفرقة بين المسلمين ١٠٧

ضياع البشرية ١٠٨

غياب الربانية ١٠٩

القلق والاضطراب النفسي ١١٠

الفصل الخامس
أخطاؤنا مع القرآن

أخطاؤنا مع القرآن ١١٣

الجفاء عن القرآن ١١٥

أخطار الجفاء عن القرآن ١٢٢

التوجه الدائم نحو الكتب قبل القرآن ١٣٨

لكي تكتمل الصورة ١٦٢

الإسراع في حفظ حروفه مع عدم العمل به ١٧٠

منطلقات أساسية لفهم موضوع الحفظ ١٧٢

الصحابة وحفظ القرآن ١٨٥

بداية الانحراف ١٩٦

الموضوع **الصفحة**

تشغيل الآلات الحديثة التي تبث آياته دون الإنصات لها................ ٢١٣
الإسراع في قراءة آياته دون تفكر وقراءتها في أماكن الصخب واللغو ٢١٩
الاهتمام بإقامة حروفه، وإهمال العمل به ٢٢٦
قراءته بالألحان المحدثة.. ٢٣٣
وضع الآيات في غير موضعها ٢٣٥
كلمة أخيرة حول الممارسات الخاطئة مع القرآن ٢٣٨

الفصل السادس
كيف استُدرجت الأمة لهذا التعامل الخاطئ مع القرآن؟!

كيف استُدرجت الأمة لهذا التعامل الخاطئ مع القرآن؟ ٢٤١
المعركة المُسْتَعِرة، والعدو الأول ٢٤٣
عداوة اليهود الأبدية لأمة الإسلام ٢٤٦
الفتوحات الكثيرة التي حدثت في عهد الخلفاء الراشدين............. ٢٤٩
تمييز القراء ٢٥٢
افتراق القرآن والسلطان... ٢٥٣
الانفتاح على الثقافات الأخرى ٢٥٤
ظهور آثار البعد عن القرآن على فكر الأمة وثقافتها ٢٥٥
تغيير الأوزان النسبية للعلوم ٢٥٦
نشأة علم الكلام وظهور الفِرَق ٢٥٨
ظهور الصوفية.. ٢٥٩
تغيير مدلولات بعض المفاهيم القرآنية ٢٦١
وضع منهجية لتلقي العلوم والترقي فيها ٢٦٣

الموضوع **الصفحة**

كثرة التصانيف في فضائل القرآن، وتضمينها أخبارًا لا تصح ٢٦٤
مرحلة الاستشراق والغزو الفكري ٢٦٥
أخطاء في العصر الحديث ٢٦٦

الفصل السابع
من أين نبـــــــــدأ؟

من أين نبدأ؟............................ ٢٦٩
إذكاء الشعور بالخطر والمسؤولية التضامنية ٢٧٥
التوبة الصادقة إلى الله............................ ٢٧٧
الإقلاع عن كل الممارسات الخاطئة مع القرآن ٢٧٩
دوام التضرع إلى الله عز وجل ٢٨٤
حسم أمر الأسئلة والشبهات التي تُثار حول التعامل مع القرآن........... ٢٨٥
التحضير الجيد للقاء مع القرآن ٢٨٨
الإنصات التام أثناء التلاوة............................ ٢٩٠
طول المكث مع القرآن............................ ٢٩٢
العمل على زيادة الثقة بالقرآن ٢٩٤
عقد مجالس للمدارسات القرآنية ٢٩٦
الدعوة إلى الانتفاع بالقرآن ٢٩٧
وصايا على الطريق ٢٩٩

الفصل الثامن
مظاهر النجاح وعلامات الاتصال بالقرآن

مظاهر النجاح وعلامات الاتصال بالقرآن............................ ٣٠٧

الموضوع **الصفحة**

إشارات تحذيرية ٣٠٨
العلامة الأولى: التغيير الإيجابي الشامل ٣١٤
العلامة الثانية: الزلزلة.. ٣١٤
ثالثًا: زيادة الإيمان مع كل لقاء بالقرآن................................ ٣٢٣
رابعًا: تدبر آياته ٣٢٦
خامسًا: الشعور بالسكينة ٣٣٣
سادسًا: الشعور بالسعادة والمتعة والأنس.............................. ٣٣٥
سابعًا: تحصيل الغنى ٣٤٠
ثامنًا: آثار مادية على الجسد ٣٤٣
تاسعًا: المبادرة والمسارعة لفعل الخير ٣٤٥
عاشرًا: التعلق بتلاوته وعدم الاستغناء عنها............................ ٣٤٧
وصية جامعة ٣٥١
فهرس الموضوعات ٣٥٣